أعيان البيان

من صبح القرن الثالث عشر الهجري الى اليوم

كتاب خاص بتاريخ الآداب العربية فى هذا العصر
وتراجم مشهوري الادباء من الكتاب والشعراء

تأليف

حسن السندوبي

١٣٣١

الطبعة الاولى

سنة ١٣٣٢ هـ
١٩١٤ م

« المطبعة الجماليه بحارة الروم — بمصر »

أعيان البيان

من صبح القرن الثالث عشر الهجري الى اليوم

كتاب خاص بتاريخ الآداب العربية فى هذا العصر
وتراجم مشهوري الادباء من الكتاب والشعراء

تأليف

حسن السندوبي
١٣٢١

﴿ الطبعة الاولى ﴾

سنة ١٣٣٢ هـ
١٩١٤ م

« المطبعة الجماليه بحارة الروم — بمصر »

اهداء الكتاب

الى صاحب النيل ووارث عرش اسماعيل
« الجناب العالى خديو مصر »
عباس باشا حلمى الثانى

مولاى :

هـذا عبد من عبيدك المخلصين ، وكاتب من كتـاب مصرك الامين ، نشأ فى أيام دولتك ، وظهر فى عصر سلطانك وصولتك ، يرفع الى علياء سـدتك كتابا وضعه فيمن أيقظ الادبَ العربى بعـد رقـدته ، وأنهضه بعـد كبوته ، من أولئك الاعيان « أعيان البيان » الذين لولا أيادي آبائك المتسابقة ، وروادف نعمائك المتلاحقة ، ماعرف الادب الى نفوسهم سبيلا ، ولا كان التاريخ لذكرهم حافظا أو كفيلا

ولقد أنعم الله على مولاى فيما أنعم ان أضاف الى جلالة ذاته ، وكمال صفاته ، همة محمد على ، وبطولة ابراهيم ، ومجد اسماعيل ، وفضل توفيق ، فكان خير من تهدى اليه الاسفار ، وتتوَّج باسمه الآثار ، لا سيما اذا كانت حسنة من حسنات عصره ، وأثراً من آثار عهده

حسن السندوبى



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، الاحياء بآثارهم النافعة وأعمالهم الصالحة ، وسلم

وبعد فالكتابة — أسعدك الله — هى الوسيلة لإبراز مايجول فى النفس من الخواطر الحاصلة من ارتسام المرئيات فى صفحات الفكر ، وتصوير مايعلق بلوح الخيال من المعانى والاغراض ، وإحالة ماينبض به الذهن من بروق الامانى وسوانح الآمال ، مثالا قائما تحسه الافئدة ، وتدركه الالباب ، وتشهده الأبصار

وهى كما علمت — ربقة ما يندّ فى سماء المشاعر من أوابد الافكار ، وضبط مايخفق فى بساط الحواس من آل المدركات (١) . فمن انتهج من المنشئين طريقها واعدّ لها عدتها من نفس زاكية ، وقريحة صافيـة ، وطبع سليم ، وذهن قويم ، وحافظة وروية ، وبديهة والمعيـة ، واطلاع واسع ، وأخذ باطراف الفنون ، وتفنن فى الصناعة ، وافتنان فى الصياغة ، وابتكار للمعانى ، وإحكام للمبانى .

(١) المراد . أن الكتابة قيد شوارد الافكار ، وضبط مشاهد الابصار .

وتصفّحَ أسفار الطبيعة واكتنه أسرارَها ، واقتطف أزهار العقول وجنى ثمارها ، ودرس صحائف الدهور وطروس الاجيال . ملك اعنتها ، وراض عصيها ، وكانت له فيها الحياة الخالدة على الايام والذكر الباقى على الزمن . ومن قصر شأوهُ عن بلوغ مداه ، أو وقف به التحصيل عند أولاه ، كان خلوده منتهى جهده (١)

ولست أرى فرقا بين كلام الناثرين كاتبهم وخطيبهم ، وقول الناظمين شاعرهم وراجزهم . غير أن هذا أقيم مجازه من قواف شدت بأسباب وأوتاد ، ممتدا على اثباج (٢) بحار العروض ، وذاك انبعث مرسلا ، وجرى مطردا ، لا ضابط له غير ذوق الكاتب ، ولا قيد الا سلوك سبيل الفحول من أعيان البلغاء وأئمة المترسلين . وكلا الكلامين ينتهى الى غاية واحدة ، ويفضى الى غرض مشترك ، وهو ابلاغ ما فى نفس المنشىء — كاتباً كان أو شاعرا — من بنات خواطره الى نفوس القارئين ، كل على قدر تطوله فى الفصاحة ، وتبسطه فى البيان لبث ما يروم بثه مما حواه صدره من نتائج مشاهداته ، ومستكنات ضميره

وما أحسب الادب الا طائرا جميل المنظر ، حسن الشكل ، بديع التغريد ، مطرب الصوت ، جناحاه المنثور والمنظوم ، يهبط الى صدور الكتاب ورؤس الشعراء فيتخذ منها مساكن يقيم بها ويبعث باغاريده البديعة الى قلم الكاتب فيرقص القلوب فى الصدور بمختلف النغمات ، ويرسل صوته المطرب على لسان الشاعر فيهز الارواح فى الاجسام بمؤتلف التوقيعات . وما الكتاب والشعراء فى ديوان الادب الا أغصان وأفنان ، ومزاهر وعيدان ، يحركون النفوس الى منازل الكمال ويبيحونها ساحات الجمال

---

(١) يريد أن الكتابة قد تكون ملكة في النفس غير أنها لا تظهر الا بآلات التعلم والدرس .
(٢) الاثباج الامواج . والمجاز يراد به الجسر أو الطريق

ولقد مرت بالكتابة العربية عصور رتناولتها أثناءها أيدي النهوض والعثور، وتناوبتها دواعي الظهور والدثور، فكانت في العصر الجاهلي وجودا أشبه بالعدم لانصراف العرب عن عمل النثر الى قرض الشعر في تأدية معانيهم وأغراضهم، ولاستغنائهم به في وصف أحوالهم وأطوارهم، والابانة عما له اتصال بحياتهم. كالنجوم وبزوغها، والانواء وسقوطها[1]، والسحب وتثجاجها، [2] والجبال ووعوثها، والسهول وميوثها [3] والابل والشاء، والاسد والظباء، والخيل والسلاح، والسيوف والرماح. والاشادة بوقائعهم وحروبهم، ومواقف الفرسان، ومقارعة الاقران، في الدفاع عن الاعراض، والنضح عن الاحساب، والتفاخر بالانساب [4]، وما الى ذلك من بواعث البداوة، ومستلزمات الفطرة، وقليل من مطامح النفوس، وخفايا القلوب، ومناجاة الحبيب. حيث كان الشعر ديوانهم، اليه مرجعهم في تخليد مآثر أيامهم، ومآبهم في تدوين مفاخر أعمالهم، اللهم الا حثالات من مرذول الفقر، وثمالات من سفيف الاسجاع، نسبت الى الكهان من أصحاب الهياكل، وعزيت الى الرهبان من احلاس الصوامع

ومهما بالغ الرواة في توثيق ما جاءونا به من منثور الكلام المسند الى أهل ذلك العصر القديم، وانى تعددت مصادره، ووفرت مراجعه، فلا تسخو نفس بأن تؤمن بخلوه من بضاعتهم المزجاة، أو سلامته من صناعتهم المتعملة، فقد كان جل ما تصبو

---

(١) جمع نوء وهو أن يسقط نجم في المغرب مع الفجر ويطلع آخر يقابله لساعته في المشرق وكانت العرب تعرف بذلك أوقات الغيث ولهذا سموا المطر نوءاً

(٢) شدة الانصباب وفي القرآن الكريم : وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا .

(٣) الوعوث الصعوبة والحزونة والميوث اللين والسهولة

(٤) من أحسن ما قرأت لبعض الاعراب قوله مفتخراً بنسبه

اذا مضر الحمراء كانت أرومتي   وقام بنصري خازم وابن خازم
عطست بأنف شامخ وتناولت   يداي الثريا قاعدا غير قائم

اليه نفس أحدهم ان يحضر مجلس صاحب السلطان فيعرض بين يديه من مغربة الاخبار، وجائبة (١) الابناء والآثار، مايكون زلفى الى بسط اليد له بالنوال، غير حامل نفسه من العناء الا على مايسبك به حكايته فى الغريب من قوالب الإعراب، ومايسند به روايته الى بعض جفاة الأعراب، نفيا لدغله، وتوصلا الى أمله

و رواتنا رحمهم الله وان لم يستطيعوا ان يخدموا التاريخ بصدق الرواية وتمحيص الحقيقة، فقد أهدوا الى الادب العربى بما ابتدعوه فيه من الاساليب، وما اخترعوه من المناحى والتراكيب، طرفا حلت من نفوس المتأدبين محلا عجيبا، وان كانت فى عيون النبلاء من أهل الادب وأولى التحقيق قذى حال بينهم و بين مايشتهون من الوقوف على ما اعتور الانشاء العربى فى أطواره من أصول نشئه، وأسرار ارتقائه

أدر طرفك فى مناظرة النعمان وأصحابه لكسرى أنوشروان (٢)، ووصف الجارية التى زعموا ان المنذر بن ماء السماء أهداها الى ملك الفرس (٣)، وغير ذلك مما طفت به كتب الادب، ونسب الى جاهلية العرب. بل انظر الرسالة المعزوة الى أبى عبيدة التى افتروها على أبى بكر وعمر فى حق على كرم الله وجهه (٤)، ونعت الاسد فى حضرة عثمان بن عفان وماقاله لواصفه، وأعرض ذلك وأمثاله على ميزان عقلك ومحك رويتك، و بعد أن تجرد نفسك من ثياب الهوى، وتطلقها من قيود التقليد، قفنى على واضعها : أبدوى هو أم حضرى؟ وسليقى أم صناعى؟ و فى أى

(١) مغربة الاخبار أي الاخبار الغريبة. جائبة الانباء أى البعيدة التى تحتاج في الحصول عليها الي قطع البراري والقفار وتحمل مشاق الاسفار

(٢) هذه المناظرة قد ملات كتب الادب قديمها وحديثها حتي لاتكاد ترى كتابا فى المختارات الا وجدتها فيه لمكانتها من البلاغة ومنزلتها من الجودة، ولشهرتها اجتزأنا بالتنويه بها

(٣) قد كرر وصف هذه الجارية في كثير من كتب الادب أيضاً

(٤) هذه الرسالة مبسوطة في صبح الاعشى وهي طويلة جدا تستغرق عدة صحائف ولولا ذاك لاثبتاها هنا لجودة صوغها ومحكم نسجها

طور من أطوار الكتابة أنشئت ؟ ولأى قصد صنعت ؟ هذا قليل من كثير ، وغد من غزير من منثور الكلام . أما منظومه فحدث فى دخيله عن البحر ولا حرج

ومازال الانشاء العربى فى أرجوحة مهده الى أن أشرقت شمس الرسالة المحمدية فى سماء جزيرة العرب ، وأرسلت اشعة هداها الى زوايا العقول، وتصاكّت (١) الاذهان بما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه من محكم الآيات ، ومعجز البينات ، واتجهت القلوب الى بارع حكمه ، ونوابغ كلمه ، انتقلت الافكار من حالتها الفطرية الى مقام سام استقام معه محال البيان . واذ دعت الحال الى ارسال الرسل وتسيير البعوث ، مست الحاجة الى الكتابة والكتاب فارتقى الانشاء الى مستوى تجلت آثاره فى خطب الخلفاء الراشدين و رسائلهم . فليس أفضل من كلام الرسول بعد كلام الله ، ولا أشرف من خطب الخلفاء بعد خطب رسول الله ، ناهيك بفُصح الامام على و بلاغته المتدافعة تدافع الغيث المدرار

ولما جاء عصر بنى أمية والمدة المروانية ، بلغت صناعة انشاء الخطب وتحبير الرسائل مبلغا كانت الكلمة فيه تثير الشعب الخامل وتلوى بالامة الثائرة الى الاخلاد والسكون . فقد ملك زمام الكلام فيه رجال قادوا الشعوب باقوالهم ، وأقاموا عظائم الامور بشقاشق (٢) ألسنتهم . كزياد والحجاج من أمرائهم ، و بنى المهلب من قوادهم ومساعير أجنادهم . واذا ذكرت هؤلاء ، فلا تنس خصومهم من الخوارج والازارق ومواقفهم التى كانت تفزع الدهر وتلفت صروف الايام . فقد أوتوا حظا من قوة اللَّسَن ، و مِرّة اللدد ، واختصوا ببسطة اللسان ، ومكانة البيان ، وعضد

(١) تصاكت . تقارعت

(٢) أصل الشقشقة للبعير واستعيرت للخطيب المنطيق وقد سميت احدى خطب الامام على بالشقشقية

البرهان ، والافصاح عما أشربته قلوبهم من النحل والاهواء ، وجرى فى ضمائرهم من العقائد والآراء ، مالم يتسن لسواهم من زعماء العصائب ورؤساء الاجناد .
فاجتل — حفظك الله — حسن البيان وجمال الادب من مقالتهم ، واجعل دَبر أذنك مرامى نحلتهم ، ومغازى قالتهم . فما البيان الامابه أفصحوا فى مآقط(١) اللجاج ، وما الادب الاماعنه أبانوا فى مآزِق الحجاج(٢)

و فى هذا الابان نبغ عبد الحميد وابن المقفع واختطا للناس فى صناعة الانشاء نهجا قويما ، وابتدعا أسلوبا مهذبا حكيما ، اعتمد أولهما فى تعبيد(٣) مذهبه على ماوهب له من كمال الطبع ، وسلامة الذوق ، وما ألهمه من لحون لغى النفوس وأهازيج الارواح . واستعان ثانيهما على تذليل طريقه بالآداب الفارسية وعباراتها اللطيفة ، فاحل ما انتقاه من معانيها الشريفة المتهدلة تهدل الازهار من الاكمام ، الالفاظَ العربيةَ ، العذبة النقية ، الجارية مع النفس مجرى الصهباء فى الاعضاء . وكلاهما نافذ الطريقة فى الادب ، مصيب الرمية فى الحكمة وفصل الخطاب

ولما شيدت أركان الدولة العباسية على انقاض سابقتها الاموية ، وانبثت لها الدعوة فى الامم وخفق لواؤها فى الشعوب ، ودفعتها دوافع الملك وبواعث الفتوح والاتساع الى الاحتكاك بما وليها من الدول والحكومات والاخذ عنها . زهت الآداب العربية واتسع رحابها بما نقل الى علومها من علوم الاقوام وآدابهم ، وأسست دواوين الانشاء ورحب نطاقها ، وتولى الكتاب فيما تولوه من أمور الدولة وسياسة الملك ، شؤون الاحكام ، وجبوة الاموال . والهيمنة على الجيوش . فكان منهم الوزراء أصحاب الحول والطول ، وبطانة الملك ، وحاشية السلطان ، وذوو الكلمة المسموعة

(١) مآقط جمع مأقط وهو موضع التحام القتال
(٢) مازق الحجاج بمعنى مضائق الخصام (٣) تذليل

والارادة المطاعة

وكان إفعام لسان العرب بآداب الفرس وفلسفات الهنود وعلوم اليونان والرومان سببا الى تصادم الافكار، وظهور الفرق، ومجاهرة قادتها بآرائهم وتأييدها بعذبات ألسنتهم، وأسلات أقلامهم. فمن بين صريف هذه الاقلام وتسابقها فى حلبات التناظر والخصام، ظهر الجاحظ وصنوه بشر بن المعتمر وقبضا على ضَبْعَى العلوم والآداب، وتناولا طريقة من سبقهما من أئمة الكتابة فدحياها وانتهجا فيها نهجاً جديدا من طول الباع فى تناول الاغراض البعيدة المرام، ومزج العلوم الآلية بالآداب، والتبسط فى أساليب الكلام، والضرب فى مختلف الفنون بأوفر سهام، والتمكن من ناصية اللغة وفقه أسرارها، والتغلغل فى انحاء البيان، بعالم بعهد من التبيان. وقد انفرد الجاحظ من بين أئمة الكتاب بمذهب بديع وأسلوب حكيم، وهو الكفاية والاقتدار على تكييف التعبير عن مرامى العلوم ومقاصد الفلسفة والآداب بالالفاظ الشفافة المتخيرة، والكلمات الآخذة الساحرة، مع اطراد النسق ووضوح المعانى وجمال الانسجام

وبهذا الانتقال والتحول أخذت الكتابة شكلا غير شكلها الاول ولبست من التنميق والتجويد ثوبا معلما، واكتست رداء موشى، نسجت برودة أيدى كتاب الرسائل. كبديع الزمان والخوارزمى، والصاحب والصابئ وابن العميد، وكالعتبى والحريرى وابن حبيب، ومن أخذ إخذهم وتعزى بعزائهم من كتاب المقامات المسجعة، والمقالات المرصعة

وفى هذه الاثناء بزغ هلال المدنية العربية، والحضارة الاسلامية فى أفق أفريقية وجزيرة الاندلس وما لبث أن نما حتى استنارت به عقول أدهشت العالم روائع ثمارها، فنشأ فى خصب أرضها، وانسياب مائها، وصحو سمائها، وازدهار رياضها، أمثال

ابن خلدون ، وابن عبدربه ، وابن سعيد ، وابن زيدون ، وابن الخطيب ، وابن خاقان ، وغيرهم من عيون الادباء ، وخيرة الكتاب والشعراء ، و والله لتكاد النفس تذهب حسرات ، وتفارق القلوب مرابضها من الصدور أسى وحزنا، ولوعة وكمدا ، كلما ذكر هذا المجد الضائع ، والنجم الافل ، والكوكب الهاوى قبل تمامه . وما أرى النهضة الاندلسية الا كينبوع ماء مالبث ان فار حتى غار ، أوكبدر ماعتم أن أضاء حتى وقع فى السرار ، ومامنزلة الادب الاندلسى من الادب العربى الا كمنزلة مدنيته من مدنيات الاسلام ، شامة فى خد الحسناء ، أوكلمة حكمة فى صحيفة بيضاء

ولما كان ارتقاء الكتابة وانحطاطها تابعا لما تكون عليه حال الدولة من قوة السلطان ومظاهرة الاعوان ، أوسقوط السطوة و وهن النفوذ ، علت الكتابة فى ابان عز الدولة العباسية ، وانحطت باضطراب حالها ، وانتقاص أطرافها ، واغارة التتر عليها ، وغزو المغول لها ، ولم تتنفس الكتابة بعد ذلك صعداءها الا فى عهد الدولة الايوبية فى مصر والشأم ، حيث أخذ بيدها وأقال عثارها القاضى الفاضل ، والعماد الكاتب ، ولما شعثها ، ونظما ماانتثر من عقدها ، وأجادا فيها ماشاءت لهما الاجادة ، واحسنا ماتطلب الاحسان

ثم أصاب الكتابة بعد ذلك بحران عميق طالت مدته ، وامتدت فترته ، الى غروب القرن الثانى عشر ولم يظهر فى هذه الآونة من الكتاب والشعراء الا شخوص كانوا زجرجة بين مجالى الادب كدروا صفو الانشاء بما أراقوه على بساط البلاغة مما دعوه بالمحسنات البديعية ، وتفانيهم فى ارهاق النفوس بالغوص على مستغلق المعانى ، ونابى المرامى ، والعبارة عنها بساقط الالفاظ ، ومتكلف التعابير ، حتى كادوا يذهبون بما كمن فى البيان من الذماء بالاسجاع الباردة ، والاوضاع الشاذة . كما هووا بالشعر الى أسفل الدركات بجمود خيالهم ، وخمود قرائحهم ، وحتى أشرف الادب ان

تستل منه بقية روحه ، ويسلب مسحة جماله ، وصفاء جوهره

وقد ظل الادب في اغماءته الى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى حيث استقام الامر في الديار المصرية لمحييها العظيم محمد على باشا، وسرى نفوذه الى بلاد الشام . فكان للعلوم العربية والآداب نصيب وافر مما صرف عنايته لاحيائه ، اذ أنشأ المدارس والمكاتب وعَمَّرَ معاهد التعليم المختلفة الدرجات وحشد اليها أبناء البلاد كما مهدها للوافدين عليها من سائر البلدان . ومابرحت تسمو به همته ـ رحمه الله ـ حتى أرسل البعثات العلمية الى أوربا لدراسة وسائل التقدم وأسرار النجاح ، ورد ما استعاره القوم من الآداب العربية فى القرون الاخيرة الى لسان العرب

ولما عاد رجال هذه البعثات من أوربا بعد أن وردوا مناهل العلوم الافرنجية الجارية باسباب العظمة والسؤدد ، واستقوا من عيونها المتفجرة بالحكم والآداب ، وضعوا أيديهم فى أيدى أفاضل السوريين وظاهرهم نخبة من جهابذة الازهر وتوفروا جميعا على تكوين نهضة يكون لها فى أطوار الادب العربى أحسن الاثر ، وأجمل الخبر ، فانشؤا الصحف ، وترجموا الكتب ، ونشروا الاسفار بالطبع ، وكتبوا الرسائل المفيدة ، وحرروا المقالات النافعة لتكوين الافكار وتنبيه الاذهان، وانشدوا الاشعار بما وسعه النظم وما بلغ اليه قرض الشعر فى ذلك العصر

ثم تلا هذه النهضة نهضة ثانية فى عهد مُتْرِف مصر الخديو اسماعيل وعلى يده حيث تأثر جده فى ارسال البعوث العلمية الى بلاد الافرنج ، وأعار الادب العربى عناية فائقة ، فنبغ فيه رجال خدموا اللغة العربية ، وبرعوا فى الانشاء حتى بلغت الكتابة فى وقتهم مبلغا عظيما فاتت فيه الشعر اشواطاً . وما كانت جريدة الجوائب ومطبعتها وهى ماهى ، ودائرة المعارف البستانية الا حسنة من حسناته الى لغة الضاد ، وغرفة من بحر افضاله على الادب العربى

ثم اطرد القياس فى التحسين الى ان كانت هذه الوثبة الادبية الحديثة فى عصر مولانا العباس أطال الله أيامه ، وامضى أحكامه ، فقد منح الادب العربى من حسن رعايته وفضل عنايته حظا عظيما لم يمنحه اياه من قبل أحد كما أغرق سجال نعمه على الادباء وأقرأ عينهم بتوالى كرمه ، حتى نشطوا التنفيذ ارادته فى احياء الآداب العربية واعادتها سيرتها الاولى لعصرها الذهبى ، عصر هارون والمأمون العباسى ، وتبارى الكتاب فى ساحات البيان وميادين الاحسان ، فسموا بالكتابة الى درجة عالية ، لم تتهيأ لاكثر من سلف من الكتاب ، ولم تبلغ اليها الكتابة فى طور من أطوارها الماضية ، ولا عهد من عهودها الفائتة ، فكان هذا العصر أجدر بان يسمى (عصر الكتابة) وكذلك تسابق الشعراء فى اجادة الاختراع ، واحسان الابتكار ، واحكام النظم ، فاحيوا عهد الشعر ، وأعادوا أيام بشار وأبى نُوَاس والبحترى وأبى تمام والمتنبى والشريف والمعرى وابن الرومى وأمثالهم من المجيدين

ولما كان الله قد خار لى فى الادب ورجاله شحذت العزم لدراسته ، وحبست النفس على تتبع آثار نوابغه قديما وحديثا ، وصرفت من وقتى زمنا طويلا فى الاطلاع على أطواره الاخيرة منذ قرن ونصف على التقريب ، وتتبعت مسالكه تتبع متفهم متثبت ، ودرست صحائف رجاله الناهضين فى احيائه حتى اليوم ، فرأيت أن أضع كتابا وافيا يصح ان يكون تاريخا للآداب العربية ورجالها الذين نبغوا فى عهد محمد على وعصر اسماعيل . وهذا العصر المبارك عصر مولانا العباس أيده الله ، دعوته (أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجرى الى اليوم) تخليدا لذكر نوابغ هذه المدة من الادباء واحياء لآثارهم

على انى لست بالحافل كثيراً بالشهرة ولا معتداً بها فى اختيار الاعيان كل الاعتداد اذ لست أرى نباهة الذكر وبعد الصيت فى أكثر الاحيان دليلا على التفوق أو معياراً يوزن به النبوغ ، ولا رأى الجماعات بذلك الرأى الناضج الصادر عن

روية ، والصادع بالحكمة التي تطمئن اليها نفوس الأثبات ، فطالما كانت الجماعات نصيرة المفسدين ، وحربا عوانا على المصلحين ، وقديماً كانت الشهرة أخيذة المحتالين ، أكثرمنها للاكفاء القادرين ، فكم علمنا من بين الكتاب ومنتحلي حرفة الادب من له ذكر ذاهب في الآفاق وشهرة طائرة في الخافقين ، اذا بلوته وسبرت غوره ، رأيت سرابا بقيعة يحسبه الظمآن ماء ويخاله العشوان نارا ، وماهو الا آل السباسب ونار الحباحب . وكم رأينا فيهم خاملا لا يكاد يعرف الا بين عشرائه ، ومغمورا قلما يذكر الا بلسان معارفه وسجرائه ، اذا أوريت زنده وجدت على النار هدى . وكذلك لست بالآبه للصداقة اذا كانت تحول بين نفسي و بين ما أبغي من الحقيقة . اذ جل ما أقصد خدمة الادب وانارة التاريخ ، لا الإشادة بذكر أناس على غير ما يستحقون ، أو الحط من آخرين والغض من فضلهم ، وما قاعدة الاختيار عندي الا الانفع والاصلح والابقى أثرا والاحمد ذكرا

و يحسن بي هنا ان أعرض رأيا طالما حامت حوله أفكار الكتاب ، وجمجمت به صدور الادباء ، وهو المفاضلة بين المصريين والسوريين في خدمة اللغة العربية ، والنهوض بها الى أوج عزها الحاضر . فاقول : اني لا أرى لسوري فضلا على مصري في احياء الآداب العربية في أطوارها الاخيرة ، ولا لمصري مفخرة على سوري ، أو يدا على عراقي ، الا كما يكون للاخوة الرُحماء من فضل التسابق في مضمار البر بامهم ، والتزاحم على ارضائها بما في وسعهم ، فكلهم بار وكلهم سابق ، ولا وجه لادلال السوري على المصري بجده ونشاطه ، ولا لمفاخرة المصري السوريَّ برقة طبعه ، وسلامة ذوقه . على ان كتابي هذا سيكون ان شاء الله كفيلا بتخليد الفضل لذويه من أدباء المصريين ، وفضلاء السوريين ، وحفظ الايادي البيضاء لمسديها الى لغة الضاد من أبناء العرب

وسبيلى فى تحريرهذا الكتاب وتنسيقه ، ان أوثر بالذكر فيه : الكاتب المجيد ولو لم ينظم فى حياته شعرا ، والكاتب الشاعر ، والشاعر الكاتب ، والمترجم الماهر الذى يساعد على نمو اللغة بما ينقل اليها من علوم الافرنج وغيرهم ، دون الشاعر الذى لم يكتب أو لم يُعرف انه كتب ، أو كتب ولم يُجِد الا من كان سامى الخيال ، حسن الابتكار ، وقليل ماهم . وان ارتبه على النسق الآتى — :

ترجمة حياة الاديب ترجمة مفيدة ابسط فيها مايهم الاطلاع عليه مما يصح ان يكون قدوة صالحة ، أو موعظة حسنة ، معتمدا فى ترتيب التراجم على تواريخ ميلاد أصحابها السابق منهم فالسابق . مع نشر صورته اذا نالتها اليد

ثم فصل عنوانه (مميزاته) أبين فيه عن الصورة الذهنية التى ارتسمت فى مخيلتى من دراسة ما كتب من منثور أو منظوم أو ألف من كتب . وعما امتاز به من الخصائص الذاتية ، فى ملكته الكتابية ، وسليقته الشعرية ، واضطلاعه بالادب وما كان له من حسن الاثر فى أهل جيلة

ثم فصل عنوانه (مؤلفاته) أصف فيه مؤلفاته وصفا يطابق ماهى عليه وأذكر منزلتها من الكتب والمطبوع منها وغير الطبوع

ثم باب عنوانه (آثار أقلامه) فيه فصلان : فصل عنوانه (نخب من نثره) وفصل عنوانه (نبذ من شعره) اختار فيهما طائفة صالحة من أحسن ما كتب وانفع مانظم ، واضمنهما ما يتفق لى مما تتوق النفوس الى عرفانه من الرسائل ذات الشان التاريخى ، والقصائد ذات الاثر الادبى ، مع شرح مايلزم شرحه منها والتعليق عليه بما يعن من الملاحظات افادة للناشىء المتادب ، وفاكهة للكامل الاديب . وهذا كله على قدر مايبلغ اليه علمى ، وتتسع له طاقتى

والله أسأل أن يسدد خطواتنا ، و يلهمنا الرشاد ، و يهدينا الصراط السوىّ ، و يسلك بنا السبيل الاقوم ؟

حسن السندوبى

الشيخ حسن قويدر

ترجمته

هو الأديب العالم حسن بن علي قويدر . ولد بمصر (١٢٠٤ ﻫ) من أسرة مغربية الأصل استوطن أحد أفرادها الخليل من بلاد فلسطين وعرفت ذريته هناك بالمغاربة ومنها جاء والده علي الى مصر في تجارة وأقام بها ورزق فيها بحسن فأنبته نباتا حسنا وألحقه بالازهر فقرأ العلوم والآداب على شيوخ وقته ، ومنهم الشيخ حسن العطار ، والشيخ ابراهيم الباجوري ، وتخرج عليهم في اللغة والادب ، فأنشأ الفصول ، وحبر القصائد ، وكاتب أدباء وقته ، وقصده الكتاب والشعراء وأخذوا عنه وشدوا بفضله ، ولم يعلم انه تقلب في مراتب ، أو ارتقى الى مناصب ، غير أنه كان يتجر في ما خلفه له والده من المال مع شركاء له بسوريا كان يبادلهم سلع الشام ببضائع مصر ، على أن ذلك لم يلهه عن الاشتغال بالعلوم والآداب وتصنيف الكتب ، وشرح المؤلفات . وقد كان موصوفا بالجود بمنح العوارف ، وبجود بالمعارف ، وهي صفات حميدة الاثر لم نعهدها في أبناء عصرنا ، فانك لا تكاد ترى تاجرا متحليا بشيء من الآداب ، أو أديبا يحسن ضبط ما قد يكون لديه من مال ، فضلا عن استثماره ، أو الاتجار به ، حتى أصبح أكثر من لقيت منهم فقيرا معدما ، وحتى صار البؤس عندهم عنوانا للادب

أما أخلاقه فالعفة والامانة وصدق المودة وعدم الميل مع الهوى في كشف

مثالب الناس، اللهم الا اذا كان مدافعا عن نفسه، أو أدبه، كما فعل مع عاقل أفندى فى رسالة الاغلال والسلاسل. هذا ومازال المترجم له حركة الوصل بين الادب والذهب الى أن دعاه ربه فلباه فى شهر رمضان سنة (١٢٦٢ هـ) فرثاه الشعراء، وأبنه الادباء، ومنهم تلميذه صفوت الساعاتى الذى زعموا أنه رأى فى منامه قويدر قبل وفاته بثلاث ليال ميتا فانتبه قائلا : رحمة الله على حسن قويدر. فحسب جملها فكان تاريخا لسنة وفاته.

ومما رثاه به الساعاتى قوله من قصيدة

بكت عيون العلا وانحطت الرتب * ومزقت شملها من بعدك الكتب
ونكست رأسها الاقلام باكية * على القراطيس لما ناحت الخطب

وفيه يقول

قالوا قضى حسن المناقب فارثه * فاجبتهم ومدامعى تتحدر
لا أستطيع رثاء من لمصابه * أضحى لسانى فى فمى يتعثر

مُمَيِّزَاتُهُ

نفحة من نفحات (العطار[1]) الزكية، وعلم من أفراد أدباء الازهر النوادر الذين وجد الادب فى مهاد قلوبهم أرضا خصيبة، وفى أذهانهم سماء صافية الاديم، ومن طباعهم جوّدا مغيثا وغيثا مدرارا، فازهر وأثمر وجاء من الافانين بكل زوج بهيج، فما شئت من نثر مجوّد سهل، ومارمت من شعر منسجم جذل. فى ميل

(١) هو أستاذه الشيخ حسن العطار المشهور

الى السجع مع قليل تكلف ، وخبرة باسرار الكلام ، وتفوق فى فن المزدوجات بما لا يطال . وحسبه انه نابغة زملائه من خريجى الازهر فى زمنه أدبا وفضلا

مُؤَلَّفَاتُهُ

نيل الأرب فى مثلثات العرب — كتاب جليل جمع فيه ما يثلث من الالفاظ العربية بالحركات، منظوما فى أرجوزة غاية فى السبك والاحكام ليسهل حفظه على الطالبين وموشى الهامش بفوائد عدة لا يستغنى عنها متأدب . وهو مطبوع معروف

شرح منظومة العطار — هى منظومة فى النحو لشيخه الشيخ حسن العطار معروفة بشرحها لدى طلبة الازهر

زهر النبات فى الانشاء والمراسلات — كتاب لم يطبع ولعله على مثال انشاء العطار

شرح على مزدوجته البديعة لم يطبع و يقال انه كان واقعاً فى مئة ونيف كراسة . ذهبت به الايام

رسالة الاغلال والسلاسل فى مجنون اسمه عاقل : كان عاقل هذا من نظامى ذلك العصر ، واسمه محمد افندى عاقل كاشف زاده ومقامه الاسكندرية . له شعر يقول فيه

معالم الصبر دون الحى من مضر * ومرتع الغيد فى قلبى و فى فكرى
ومنبت الشيح شيح الظبى أفئدتى * فارعى وحاذر من النيران والشرر
واحكم بما شئت فى حر تملكه * رق الغرام وقيد مطلق الخفر

وفوق اللحظ من جفنيك فى كبدى * فوت مثلى من سهم ومن وتر
فما يعيش مدى الايام ذو نفس * والحتف يحلو بسيف الطرف والحور

كان قد سرق قصيدة ونحلها نفسه، فجاء بها أحد الادباء الى الشيخ قويدر وأطلعه عليها، فلما قرأها وعلم انها مدعاة، كتب الى عاقل افندى ينصح له بالعدول عن ادعائها، وان ماغيره فى بعض أبياتها من الكلمات لا يغنى من الحق فتيلا، ولا سيما انها من القصائد المشهورة حتى عند تلاميذ المدارس. فأجابه عاقل افندى بجواب ملوء الهزؤ والسخرية والاستخفاف. ومن أدلته المضحكة: ان كون القصيدة شهيرة حتى عند التلاميذ فضلا عن أهل الادب لا يثبت انها ليست له، فقد يجوز انه توارد مع قائلها المعروفة له، ومع هذا فلا يمكن اثبات سرقتها وانتحالها الا باعترافه ؟؟ وعلى هذا فما أرى الاان الشيخ قويدر قد أصاب فى تلقيب هذا العاقل بالمجنون. والرسالة موجودة بدار الكتب الخديوية مكتوبة بخط سقيم لا تستحق النشر

آثار أقلامه

نخب من نثره

قطعة من خطبة شرح الكتاب

ومن شغفى بتلك العرائس الخواطر، حملتنى بواعث الخواطر، على ان أكتب عليها شرحا، وأبنى على دعائمها صرحا، وأشد بنطاق البلاغة لها كشحا، فوقفت على

أقدامى ، متردداً فى تاخرى و إقدامى . . . وشددت نطاق العزم ، وتقلدت بصارم الحزم ، وقومت سنان براعى ، و بسطت فى حومة هذا الميدان باعى ، وانى لارى التوفيق يقوم أمامى ، والعناية تقود زمامى . الى آخر ماهنالك من مثل هذا الكلام الذى لاأكتم القارئ الكريم ان نفسى لم تسطع الصبر على نقل بقيته ؛ ولعل الشيخ قويدر فى الكلام المرسل خير منه فى تنميق الخطب ، و فى رسالته الآنفة الذكر مايدل على ذلك غير انى لم أشأ الإتيان بشىء منها لما بنيت عليه من الهجاء المقذع الذى أربأ بكتابى هذا ان يحويه

نبذ من شعره

نصيحة

ياطالب النصح خذ منى محبرة * تلقى اليها على الرغم المقاليد
عروسة من نبات الفكر قد كسيت * ملاحة ولها فى الخد توريد
كانها وهى بالامثال ناطقة * طير له فى صميم القلب تغريد :
إحفظ لسانك من لغط ومن غلط * كل البلاء بهذا العضو مرصود
واحذر من الناس لاتركن الى أحد * فالخِل فى مثل هذا العصر مفقود
بواطن الناس فى ذا الدهر قد فسدت * فالشر طبع لهم والخير تقليد
هذا زمان لقد سادت أراذله * قلنا لهم هذه أيامكم سودوا

و رأيت له هذا المستهل

يامن له خلق كنفحة عنبر * بالله كف سهام لومك عن برى

وهذا

لو كان أمر فؤادي دائما بيدي * لما وضعت يدي اليمنى على كبدي

محاسن المزدوجة

رأيت بدراً فوق غصن مائس * يخطر فى خضر من الملابس
و يسحر العقل بطرف ناعس * وهو بشوش الوجه غير عابس
كان ماء الحسن منه يجرى

خاطرت لما أن رأيته خطر * وحار فكرى فى بها ذاك الحور
وقلت لا والله ماهـذا بشر * ومن بشمس قاسه أو بقمر
فليس عندى بالقياس يدرى

فلفظه العذب لقلبي قوت * كأنه الدر أو الياقوت
وسحره الى النهى مثبوت * يعجز عن مثاله هاروت
وهو الحلال من صنوف السحر

وكم حوى الثغر من الجمال * اذ نظمت فى جوفه اللآلى
منسوقة جلت عن المثال * وحليت بريقه الزلال
فالحسن مجموع بذاك الثغر

ان قيل بدر قلت ذا قريب * وكامل فى الحسن لا يغيب
والبدر فيه كلف يعيب * وذا الرشا جماله عجيب
والفرق ظاهر لدى من يدرى

عقرب مسك فوق خده التوى * وجمرة الخد بها القلب اكتوى
جمال هذا الظبي قدهد القوى * وليس لى غير الوصال من دوا
فاسمح به يابدر واكسب أجرى

فقال لى يامرحبا وأهـــلا * أدخل تجد عندى مكانا سهلا
بادر ولا تقـل الىّ مهـلا * واشرب شرابا عللا ونهـلا
فى ساعة تعدل كل العمر

خاف من اللوم والاعتراض * فقال هـل تدخل للرياض
قلت نعم اشفى بذا أمراضى * ياحبذا ان كنت أنت راضى
ياغرة فى وجه هذا الدهر

فضم راحـــة له براحتى * فكان هـذا سبباً لراحـتى
وماس ينثنى بغصن القامـة * حتى دخلنا روضة الحسن التى
فاح شذاها عبقاً كالعطر

فقال طب نفسا فقد زال الالم * والصفو من كل الجهات قد ألم
كأنه يتـلو على القلب ألم * نشرح لك الصدر بهذه النعم
روض ووجه حسن ونهر

تخفقت فى القلب رايات الفرح * وامتلأ الصدر سروراً وانشرح
وقد سمعت بلبل الأيك صدح * يقول قد داوى الحبيب ما جرح
وهذه أسنى خصال البر

لم أنس اذ تنافس الازهار * ودهشوا من حسنه وحاروا
وظلموا فى حكمهم وجاروا * تشـبهوا به وهـــذا عار
لان هذا بالمليح يزرى

قال الشقيق أنا مثل الخد * ورثت لونى عن أبى وجدى
ونسبتى تنبيكم عن مجدى * لكن الى النعمان ليست تجدى
فانا منسوب لهذا البدر

والياسمين صاح فى الرياض * يقول شطر الحسن فى بياضى
فعرضى من أشرف الأعراض * وأرجى يشفى من الامراض
من ذا الذى يشبه هذا غيرى

والنوفر الرطب يقول جسمى * كجسمه فى حده والرسم
لكننى مخالف فى الاسم * من أجل هذا حكموا بوسمى
وغرقونى وسط هذا البحر

فابتدر النرجس اذ يقول * هذا الكلام كله فضول
طرفى كطرف ذا الرشا مذبول * والعين للقلب هى الرسول
ولم بها تغزلوا فى الشعر

سمعهم بنفسج فثارا * كانه يطلب منهم ثارا
وقال أنا أشبه العذارا * حين سبا بحسنه العذارى
وصار لونه كلون الحبر

فشمر الغصن عن الساق وقد * جرد سيفاً لرقابهم وقد
وقال جرى بكلامكم وقد * أنا الذى أشبه اعطافا وقد
أحملكم وتجهلون قدرى

وكثر الخصام واللجاج * واختلفوا فى أمرهم وهاجوا
واضطربوا فى رأيهم وماجوا * ورجعوا للحق ثم عاجوا
فابصروا الهدى بعين الفكر

فجملوا الورد عليهم قاضى * وكلهم بما يقول راضى
لانه لم يقض بالاغراض * وسالم من سائر الامراض
ذو شوكة وهو جليل القدر

قالوا له يا عادلا يابى الرُّشا * من الذى يشبه فينا ذا الرّشا
فقال قولا للعقول أدهشا : * هل فيكم غصن رطيب قد مشا
وفوقه كل صنوف الزهر

دعواكم يا أيها الزهور * كما زعمتم باطل وزور
وكلكم بنفسه مغرور * وواجب فى حقه التعزير
من جملة التعزير لوم الحر

الحسن شىء ماله مثيل * وكل وجه حازه جميل
والنفس دائما له تميل * وصاحب العز له ذليل
فى قيد أسر نهيه والامر

من شبه الجمال بالجنى جنى * وكان عندى مستحقا للجنا
لو كان فضل الله يؤتى بالمنا * كما زعمتم كنت لاشك أنا
أحق منكم لوجهلت قدرى

من لم يكن يعرف قدر نفسه * وقد تعدى طور أهل جنسه
يهدم عالى قدره من اسه * حتى يرى الوحشة بعد أنسه
والذل بعد عزه والفخر

وحين لاح البدر فى اشراق * وكمل السرور بالتلاق
وأطفئت لواعج الاشواق * سطا علىّ صارم الفراق
أراد تحرى عامدا فى نحرى

فصرت أشكو للحبيب مابى * وقلت قد تزايد الجوى بى
ودمع عينى ملأ الجوابى * ولم أطق ردا الى الجواب
والصبر صار طعمه كالصبر

فقال لابد من الفراق * ولو رقانا اليوم ألفُ راقى
قلت اذا يا ناعس الاحداق * فهل يكون بعده تلاقٍ
فقال ان اليسر ضد العسر

وأشمت البين بى الازهارا * فاظهرت سرورها إظهارا
وفككت من طوقها الازرارا * وجعلت تلحظنى جهارا
كانها تأمن خطب الدهر

وكدرُ الدهر سريع ان صفا * وهل رأيت الدهر يوما أنصفا
ان النوى صيرنى على شفا * والحب داء لم يكن له شفا
الا الوصال بعد طول الهجر

عبدالباقي العمرى الفاروقي

ترجمته

هو الاديب العراقى عبدالباقى بن سليمان ينمى نسبه الى الامام عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ولد بالموصل سنة (١٢٠٤ هـ ١٧٨٩ م) فى بيت وجاهة وفضل فنشا محبا الادب ، ولعا بالمعالى ، ونظم الشعر قبل انفراط عقد تمائمه ، وعرف بالذكاء والفطنة وهو دون العشرين ، وما بلغها حتى صار يعتمد عليه فى العظائم . فأسندت اليه الحكومة العثمانية منصب كتخدا ولاية بغداد إثر قمعه لفتنة ثار ثائرها بجهات النجف ، ومع قيامه باعباء هذا المنصب فما برح مجلسه مثابة للادباء ، آهلا بالفضلاء . وقد كان عالى الهمة ، ذا وجاهة فى قومه ، ومقام كريم بين وجوه بلاده ، نافذ الارادة لدى حكومته ، و بهمته أسند منصب افتاء الحنفية فى بغداد الى الشهاب الالوسى . كما أفاد كثيرا من أهل الادب والفضل . ومازال قائما بمناصبه ، عاملا على اذاعة آدابه ونشر فضائله ، ومراسلة أدباء عصره وشعراء وقته الى أن توفى سنة (١٢٧٨هـ ١٨٦٢ م) فقام نعيه ورثاه من مدحه فى حياته من الادباء والشعراء . وقد جمع شعره الشيخ عثمان الموصلى فى ديوان مشهور دعاه بالترياق الفاروقى وهو متداول

مميزاته

أقام من منظوماته فى آل البيت سوقا عرض فيها صورا خزفية زوّرها بما قد يظن معه انه تحدى بها الكميت فى هاشمياته ، والسيد الحميرى فى طالبياته . أفرغ فيها ما أكنته جوانحه من التشيع بحب أسباط الرسول ، والتشيع الخالص لابناء فاطمة البتول . نظمها نظم من يريد الايضاح عن عقيدته بما يسعه طرقه من القدرة على التعبير والافصاح . أما نظمه فيما عدا ذلك فاكثره ليس بالجيد السهل ، ولا بالمنسجم الجزل ، غير أنى رأيت انه كان لا يكاد يضع قصيدة حتى يتناولها شعراء وقته بالتشطير والتخميس ، ولعل هذا كان إما لوجاهته ومقامه فى عشيرته ، و إما لطفولة الشعر فى عصره ، وأما كتابته فلم أرمنها الا رسائل خاصة منسوجة على منوال السجع المتكلف شان أكثر كتاب ذلك العصر ، وحسبه انه ظهر فى أوائل نهضة جاءت بعد طول الرقاد وتمطى ليل السبات

مؤلفاته

له من المؤلفات غير شعره الذى حواه كتاب الترياق الفاروقى ، ديوان اسمه : أهلة الافكار فى معانى الاشعار ، لم أطلع عليه ، وما عسى أن يكون لهؤلاء من المعانى المبتكرة التى تروق أهل عصرنا هذا عصر العلم والعرفان وارتقاء الافكار الذى

أصبح فيه الفاروقي وأمثاله وان كانوا واضعي أساس هذه النهضات لا يصلحون أن يعدوا تلاميذ لمفكرينا . وكتاب اسمه : نزهة الدهر في تراجم فضلاء العصر لا أظن انه من الكتب الخطيرة ولعله لم يطبع

آثار أقلامه

نخب من نثره

من رساله الى الآلوسي

أنهي لجناب ذلك الشهاب الثاقب، والبدر الحاضر الغائب، انه وصل منه شريف كتابه ، ومنيف خطابه ، والداعي اذ ذاك في عقائل شكوى سدكتني منذ أيام سدك الغريم ، وعركتني بأكف آلامها وأيدي اسقامها عرك الاديم ، حتى لقد فغرت عليّ فاها المنون ، واستوت في اليأس من الحياة مني الظنون . الا أنه تعالى بلطفه منَّ على بالشفاء ، ونقلني عن جهة اليأس الى جانب الرجاء . فلله الحمد متواتراً ، والشكر أولا وآخراً ، وهو المسئول ان يبلغك أطول الاعمار ، ويزوي عنك مكروه الاقدار ، وكان كتابكم قد وافى في عنفوانها ، وإبان نزوانها ، تخفف من أوصابها ، وخلع من أنوابها وكانما ورد عائداً متلطفاً ، أو وفد زائراً متحفاً ، ولما نضوت بُرد الاعتلال ، وشمت برق الإبلال ، وجب انهاء العذر المعترض ، وتعين قضاء الحق المفترض ، فنبهت عين النون ، وأطلقت لسان القلم لتحرير هذه الاحرف ، المشحونة بالزُّخرف ،

ولولا ترتب الحق كما ذكرتم ما كنت أنطق ببنت شفه ، ومازاد على هذا فمعدود من السفه ، وأما الشرك الذى نصبته لصيد غرانق العقول ، فهو منقول عن معقول ، فتدبر

نبذة من شعره

هلال المحرم

ليت المحرم ليلة استهلاله * سلخت عشيتها بنصل هلاله
شهر به شهر البلاء بكربلا * عضباً تأنق قينه بصقاله
قد حرمته الجاهلية واجترت * عدوا بنو حرب على استحلاله
قتل الحسين به فأى فضيلة * تعزى له وتعد من إفضاله

فى الغزل

وعفراء سكرى المقلتين كأنما * سلقتها الندامى من سلافة اشعارى
تمر مع الاتراب بالخيف من منى * مرور المعانى فى مفاوز أفكارى[1]
وماخطرت الاتذكرت فى الوغى * بهام خطير القدر ميلة خطارى
ومن ضمها كادت تبيح طمرّتى * من الضيم ماأخفيته تحت اطمارى
فرحت اليها اشتكى مضض النوى * كما شكت الاقلام منى الى البارى
وجاراتها راحت مؤنبة لها * على ماجرى بالسفح من دمعى الجارى
يعفين آثار الخطى بذوائب * كما قدعفت من منزل الذل آثارى

(١) تعالى الله ما سمعت قبل الآن أن للشعراء مفاوز فى أدمغتهم تخرقها الافكار . ولكن سبحان المبدع الحكيم

يسامرني طول الدجا من غرامها * سميراناغي في معانيه سُماري
على قربها حتى اذا هي اسفرت * يباعدمنها الحسن مابين اسفاري
لنفثة سحري ينتمين لحاظُها * وألفاظها تعزى لرقة أسماري

وفيه قال

بروحي غريراً بالرصافة قلبه * لدى ظبية لمياء خلفه رهنا
وقاليه بالكرخ علم أهله * فنون جنون وهو في غيرهم جُنا
له في الهوى العذرى عذر اذا لوى * لبان اللوى عطفاً وحن الى المغنى
أتشجيه سُعدى والرباب وانه * يحاول ان يقضي اللبانة من لبنى
اذا ماانتضى من جفن عينيه مرهفا * رجوت فؤادي ان يكون له جفنا
فقلته تلك المصيبة انها * لام الدواهي والدواهي لم أضنى
ومن قده واللحظ ان ماس أو رنا * يقاسي كقلبي قالبي الضرب والطعنا
تثنى فاودت بالقلوب طعانه * فما ضره لما تثنى لو استثنى
وهيهات عن قلبي تطيش سهامه * وقدصار منه قاب قوسين أو أدنى
اذا قلت قلبي أين حل أجابني * فهل لك من كَمٍّ به تعرف الأينا
ويبسم عن برق فأبكى بمدمع * اذاشمت ذاك البرق تحسب ذامزنا
لقد زارني والليل زرجيوبه * علينا ونام النجم عنا وما نمنا
وبات يعاطينا سلافة ريقه * فلله ماأحلى ولله ماأهنى
الى أن رأينا الليل غطى ذراعه * ضياء نهار صبحه شمر الرُّدنا
ومد يدا تجنى من الزهر نرجساً * حكى من عيون العين فعلتها الوسنا

خاليته (١)

الى الروم أصبوا كلما أومض الخال * فاسكب دمعا دون تسكابه الخال (٢)
وعن مدح داود وطيب ثنائه * فلا القد يثنيني ولا الخد والخال (٣)
مشير الى العليا أشار فطأطأت * وأصبح مندكا لهيبته الخال (٤)
مناصبها انقادت لاعتاب بابه * كما انقاد مرتاحا الى العطن الخال (٥)
وقد نالها اذ أوتي الحكم حكمة * الهية فصل الخطاب لها خال (٦)
مليك ملاك الامر والنهي كله * اليه أنتهي والحكم في الارض والخال (٧)
حكى نهر طالوت ببسطة علمه * وفي فضله ذاك الفتى الماجد الخال (٨)
توسم عرّافا بسيماه دهره * فخوله النعمى وما كذب الخال (٩)
وصدق فيه ماتخيله النهى * وفيما سواه قلما يصدق الخال (١٠)
فبالرجال من علاه تفرسوا * أغر عليه من نسيج العلا خال (١١)
اذا اعتركت آراؤهم عرضت لهم * كتائب رأي من نهاه لها خال (١٢)
عصامي نفس سودته جدوده * فلا الجد يجديه ولا العم والخال (١٣)
له العلم خدن والكمال منادم * وحسن السجايا والحجا الخل والخال (١٤)
هو الصدر منه القلب كالصخر في الوغى * اذا طاش في غلوائها الوكل الخال (١٥)
ودهم الليالي ان تمادى جماحها * فهمته الكبرى الشكيمة والخال (١٦)

---

(١) مدح بها المشير داود باشا والي بغداد اذ ذاك معارضا فيها خالية الشاعر بطرس كرامه
(٢) السحاب (٣) الشامة (٤) الجبل (٥) الجمل (٦) ملازم (٧) الخلافة
(٨) الكريم (٩) التخيل (١٠) الصادق (١١) ثوب (١٢) لواء٠٠وكانه نظر فيه الى قول المتنبي : أرادوا أن يديروا الرأي فيهم * فصبحهم برأي لا يدار
(١٣) أخو الام (١٤) الصاحب (١٥) الجبان (١٦) اللجام

توهم قوم أن يجاروه في العلا * فلم يجدهم ذاك التفكر والخال (١)
يشق على من لا يُشق غباره * رهان الذي عن شوطه عاقه الخال (٢)
عفا الله عنه قد عفت بعد بُعده * من البلدة الزورا المعالم والخال (٣)
وهيهات ما دار الرصافة بعده * وما الكرخ الا السبسب القفر والخال (٤)
ولكن بهذا العصر أمست كجنة * بها تتباهى ربوة الشام والخال (٥)
ورضوانها اليوم النجيب مشيرها * يحافظها مولى عليها هو الخال (٦)
عظيم وقار لو تراءى ليذبل * تصاغر منحطا وطاوله الخال (٧)
حماها حماه الله من كل ريبة * تشين علاه فهو من ريبة خال (٨)
فلا زال كل منهما طود رفعة * يلوح عليه مع تواضعه الخال (٩)
واني وان كنت الرديف زمانه * لمسبوقة حسن الرويّ لها خال (١٠)
فذي معجزاتي ما أرى ابن كرامة * يعارضها حتى يصاحبه الخال (١١)

التحاء

حرف لام قد حرروه بمسك * فغدا نزهة لعين الرائي
أم عبير به تضمخ خد * فازدرى بالشقيقة الحمراء
أم هو الآس قد أحاط بورد * لاح يغني عن روضة غناء
أم عباب لما طمى قذفت أمواجه * عنبرا على الأرجاء
أم هو النمل دب يرسف في كبْل * من الند حول ضحضاح ماء

(١) التوهم (٢) العرج (٣) الأثر (٤) الموحش (٥) موضع بالشام
(٦) القائم ويريد به نجيب باشا والي دمشق في ذلك الحين (٧) الاكمة (٨) برئ
(٩) الكبرياء (١٠) نقطة (١١) الكفن

أم لوت بانة عـلى الورد فرعا * أم عـذار قد حف وجه البهاء
وجرى مسـكة بنهر نهار * فأرانا الإصـباح فى الإمساء

حسام الدهر

كل يوم يجرد الدهر سـيفاً * نصله الصبح والمساء قرابه
يتراءى نجاده من شـعاع * وعمود الفجر المنـير نصابه
والدرارى فى ظهره فقرات * فالورى مثل ذى الفقار تهابه
فاذا مابدا ينضنض كالصل * على الخافقـين سال لعابه
انه ذلك الحسام الذى يخشى * على كل من عليها ضرابه

الشيخ محمد شهاب الدين

ترجمته

هو محمد بن اسماعيل الشهير بشهاب الدين صاحب السفينة ولد بمكة سنة (١٢١٠ هـ ١٨٧٦م) ثم حضر الى القاهرة ونشأ بها والتحق بالازهر فدرس على مشايخه واختص منهم بالشيخ حسن العطار والشيخ العروسى ، وكان ميالا الى الادب ، حسن النظر فى فنونه ، فبرع فى الانشاء ، وأتقن الشعر ، وتفنن فى ضروبه ، كما أخذ قسطا وافرا من علوم الرياضة ، كالحساب والهندسة والموسيقى والالحان ، وكاتب أدباء عصره ، وقصده الطلاب للاستفادة من معارفه ، وبارع آدابه ، وكان فيمن تخرج عليه فى فقه اللغة وأسرار البيان الشيخ أحمد فارس ، وناهيك بها مفخرة كبرى . ولما كان ممن يحررون الوقائع المصرية مع الشيخ العطار فقد ولى رئاسة تحريرها بعد اسناد مشيخة الازهر الى شيخه المذكور ، ومن ثم اطلق يد الشيخ أحمد فارس فى انشاء الفصول ، وتحبير الرسائل فيها ، وظل مهيمنا على تحريرها الى سنة (١٢٥٢ هـ ١٨٣٦ م) ثم جُعل مصححا لمطبعة بولاق الشهيرة ، وكان من حاشية عباس باشا الاول ومن القائمين بالادب بين يديه ، والملازمين له فى حله وترحاله . وقد كان حسن الاخلاق رقيق حاشية الطبع فكه المسامرة ، مقصود الجناب ، يمنح أدبه لاى طلب ، غير ضنين بما وُهب . ولما توفى المرحوم عباس باشا الاول لزم بيته وانقطع للدرس والتأليف ونشر الاداب الى ان توفى سنة (١٢٧٤ هـ ١٨٥٧)

مُمَيِّزَاتُهُ

للشهاب كما سواه من أدباء جيله فضل عظيم فى إعداد الأفكار وتمهيد الأذهان، لقبول مبادىء الادب ، وانتهاج سنن العرب ، بعد ان نسج الخمول عليها خيوط عناكبه ، وطليت العقول بقشرة صفيقة من صدأ الجمود . فكان من الذين أجروا أقلامهم بالكتابة والإنشاء ، ورفعوا أصواتهم بالنظم والإنشاد ، مهيبين بالعقول أن تثوب الى سالف عهدها من الحدة والصفاء ، وان تثوب الى سابقتها من الفطنة والذكاء، وهو وان كان قد رأس تحرير الوقائع المصرية ، وخرج مثل أحمد فارس ، فان ماقرأته له من منثور الكلام لا يدل على انه كان فى صناعة الانشاء ذا ميزة تجعله فى مصاف المجيدين من كتاب وقته ، ولعل ذلك راجع الى ما كانت عليه الكتابة فى ذلك العهد من الوهن والسقوط ، والضعف والهبوط ، على انى أحسبه فى شعره ممن يصح ان يعدوا من شعراء الطبقة الاولى من أهل ذلك الجيل . وخير ماله من الحسنات ماجدده فى سفينته من دارس الغناء العربى ، فقد افتتح مغالقه بعد إيصادها من عهد الاصبهانى ومن سار على نهجه ممن جاء بعده ، وأوضح معالمه ، وأبان مااستعجم من آيانه ، فكان فيه المبرّز من بين أدباء المتأخرين ، والمعلّم الاخير الذى لم يأت مثله الى الآن ، ولعل الذى صرفه الى هذا الفن حتى أجاد قواعده ، وأحكم أساسانه ، مناظرته لمعاصره الدرويش والمناظرة جلاء الاذهان . وكأنه كان فى زمنه قاضى الغرام ، ومفتى العاشقين ، يحكم بينهم بشرع التصابى ، ويفتى باحكام الهوى .

ثم مازالت أعنى ان أعلم من أمره أ كان ممن يطربون النفوس برخيم أصواتهم، ويحيون

الليالى ببديع انشادهم ، أم كان من الذين يُقيمونِ أركانِ الطرب وليس لهم فيه صوت يهز النفس ، أو جرس يحرك الحس ، حتى علمت انه كان من المعلمين ، ولم يك من المطربين

مُؤَلَّفَاتُهُ

ديوان شعر — مطبوع سنة ١٢٧٧ حوى على كبر حجمه شعراً يتناسب فى الجودة مع ما كان عليه الشعر فى ذلك العصر

سفينة الملك ونفيسة الفلك — كتاب جليل لم أر أجمع منه فى فن الموسيقى والاغانى العربية ، فانه فضلا عما وعاه من ضروب الغناء الحديث فقد حوى نخبة صالحة من مختار الشعر الرقيق وجيده وهو مطبوع متداول

وله رسالة فى التوحيد وأخرى فى الاوفاق وغير ذلك مما هو معروف مشهور

آثار أقلامه

نخب من نثره

لم أقف له من النثر على ما يستحق النشر فى كتابى هذا ، اللهم الا ما كتبه مقدمة للسفينة ، وهذه المقدمة وان كانت كثيرة الفوائد الا انها فنية محضة لا تروق الا أرباب فن الغناء وغواته الذين يحرصون على الوقوف على أسراره ، والاخذ باطرافه ، وهؤلاء قد علموا

مكانها و يستطيعون الحصول عليها ، وأما سواهم من عشاق الطرب سماعا فليسوا فى حاجة اليها . ومع هذا فقد عثرت له على رسالة صغيرة من الرسائل الخصيصة بعث بها الى ناظر الوقائع اذ ذاك سامى افندى . وكان الشيخ عبد الرحمن السفطى هجاه بقصيدة مطلعها

الأهل مورقة دان ماروت العصى * لسحرهم سحر الحبال مع العصى

فرد عليه الشيخ شهاب بقصيدة على رويها مدافعاً فيها عن سامى افندى ملأها من الهجو بما لا هُجر فيه ولا فُحش . قال فى مطلعها

اذكر حلى شيم المحاسن واقصص * واقطع لسان السوء أصلا واقصص

فأخو الجزالة من يصون لسانه * ويجيء من حسن المديح بمرقص

وأخو السخافة من تفوّه بالخنا * وغدت مقالته كفارغ حمص

والرسالة هى

سيدى أدام الله سؤددك النامى ، وأيد بنصره عز جنابك السامى ، ان ذيالك الخبيث المشمر عن ساعد شيطانه ، الرامى عن قوس أفكه و بهتانه ، لما أن قال ما قال ، مما أحدث به على نفسه و بال ، وكان كالباحث عن حتفه ، بظلفه ، والجادع مارن أنفه ، بكفه ، لا جرم ان شهابك الثاقب ، القاعد لمثل هذا الشيطان بمراصد المراقب ، قد أتبعه على غفلته ، و رماه بصاعقة شُعلته ، وكبه على وجهه وفيه ، وأوخ ما أولج فيه ، ثم أتى بنيان قصيدته من القواعد ، ونقض كل بيت منها حتى خر لديه ساجد ، وعند ما صال وجال ، أنشد هنالك وقال . ثم جاء بالقصيدة التى أشرنا اليها

نبذ من شعره

وصف مسجد القلمه

عروس كنوز قد تجلت بمسجد * مكللة تيجانها بالزبرجد
أم الجنة المبنيّ عالى قصورها * بأبهج ياقوت وأبهى زمرد
أم المكرمات الآصفية أبدعت * هيولى أعاجيب بصورة مسجد
هو الفلك الأعلى تنزل وازدهى * بزُهر الدرارى جامعاً كل فرقد
الا ان تجديد العجيب من البنا * يؤكد تأسيس اقتدار المجدد
وهل أثر ياصاح يعرب عن حلى * مؤثره دون البناء المشيد
فدع قصر غُمدان واهرام هرمس * وايوان كسرى ان أردت لتهتدى
ودع ارما ذات العماد ونحوها * وعرشاً لبلقيس كصرح ممرّد
ودع أمويّ الشام وانزل بمصرنا * وبادر الى هذا بإيماء مرشد
فلو عددت فى الكون بدأ بدائع * لكان به ختم لذاك التعدد
كأن الليالى الوالدات عجائباً * أصبن بعقم بعد هذا التولد
لئن صار فى الدنيا وحيداً تفردا * فلا غرو والمنشى له ذو تفرد
مليك جليل الشان ليس كمثله * جليل بعلياه اقتدى كل مقتدى
محمدُ آثار علىُّ مآثر * عزيز افتخار ساد كل مسود

رياض المسرات

وما روض آس ذي غصون موائس * كسته يدُ الأنداء خُضرَ الملابس
وباتت سواري المزن من دَرّ طلها * تحلي طلى قضبانه بنفائس
وأصبح ثغر الزهر يضحك من بكا * عيون الغوادي المعصرات العوابس
ووالت به وُرق الحمائم نوحها * لوحشة إلف بات غير مؤانس
وصاحت شحارير الطيور كانها * رهابنة صلت بسود البرانس
وراح غدير الماء يجري مسلسلا * ويشكو على الاطلاق ضيق المجالس
يمر به روح النسيم وينثني * فيروى شذا أنفاسه للمعاطس
وقد باكر الندمان دوح أراكه * جراح حكت في الكاس جذوة قابس
معتقة بكر عجوز بدنها * مخدرة في الحان عذراء عانس
يطوف بها ساقٍ اذا ماس وانثنى * تقول غصون البان هذا مجانسي
وان قام يستجلي الكؤوس حسبتها * شموشاً بها تسعى بدور الحنادس
لَمَى فيه فيه كم نفوس تنافست * وقد قل ان تلقى سوى متنافس
وغناهم شادٍ أغن اذا انتضى * ظُبي اللحظ أزرى بالظباء الكوانس
رطيب قوام أهيف القد لم تدع * ليانة عطفيه قياساً لقائس
فان قسته بالبان فالفرق ظاهر * وان بالعوالي فهو ليس ببائس
اذا صاح بالالحان يشدو فمعبدٌ * وان طارح الندمان فابنُ مُكانس
ولو حضر الواشي لحاضره بما * يُسبين عن الجزار وابنِ قلاقس
وقد آن ابان الربيع وشابهت * أزاهره في الروض وشيَ الاطالس
وكلل تيجان الربا بلآلىء * من القطر يجلوها جلاء العرائس

وحيّاهم الساقي بورد ونرجس * وبالخد حيّي والعيون النواعس
فطابوا نفوسا واطمأنوا خواطرا * وقد أمنوا تكدير صفو المجالس
بأطيب يوما من ثناء يديره * لساني امتداحا في مدير المدارس

اجابة لملتمس صديق

يا دُميةً شرعها ضرب النواقيس * ما بين قرب مزاري والنوى قيسي
هذي ثناياك قد لاحت بوارقُها * أم أشرقت في الدجى أنوار برجيس
أم ثغر كاس الطلا يفتر عن حبب * أم ذا ضياء نبي الله جرجيس
أم تلك طلعة بدر التّم قد ظهرت * يحكي سناها محيا غورغريوس
بابا النصارى مربي روح ملتهم * حامي حمى كل شماس وقسيس
شخص ولكن هيولى روحه ملك * وجسمه صورة في شكل قديس
أقام وهو وحيد العصر مفردُه * دينَ النصارى بتثليث وتغطيس
تسعى الملوك الى تقبيل راحته * في البحر والبر فوق الفُلك والعيس
أحيى الكنائس جسما بعد ما درست * وشيد الروح تشييدا بتأسيس
فعظموا الرب فيها بالصلاة له * ومجدوه بتسبيح وتقديس
لا غرو ان زهت الدنيا ببهجته * فالطير تزهو ابتهاجا بالطواويس
كم بطرك حل فيه سره فبدت * منه عجائب معقول ومحسوس
يريك آصف اذ وافى بدعوته * في ظرف طرفة عين عرش بلقيس
لا سيما البطرك السامي سرادقه * مَن فخره فاق فيهم كل نقريس
أعني به حضرة المظلوم من بسمت * به ثغور الاماني بعد تعبيس

شبيه الغصن

بروحي من لغصن البان شابه * ومشروب الطلا بلماه شابه
مليح لم يخط له عذار * وفي رقي له ابدا كتابه
بذا العقد الفريد بفيه نظما * وحكم فيّ ديوان الصبابه
ومن فلم اجد صبرا عليه * واحشائي ترى عذبا عذابه
رمى قلبي بسهم قدمضى في * رميّته ولم يخطىء مصابه
وراح وقد بدا برق الثنايا * ودمعي هاطل يبدى انسكابه
يلوح ووجهه بدر ولكن * عليه من ذوائبه سحابه
بخد روضه يرعاه طرفي * وقلبي بالجوى يصلى التهابه
يدير من الحديث عتيق خمر * فيسكرني ولم أطعم شرابه
أراه في محاسنه عليًّا * ولكن ما تنزل للصحابه
سعيت وزرته فازداد تيها * وولى معرضا يولى اجتنابه
أنا الجاني على نفسي لأني * دخلت على هزَبر الغاب غابه
فبدلني بنوم الليل سُهدا * وعوضني الشجون على الدُّعابه
شياطين الوشاة به المووا * ليسترقوا ولم يخشوا شهابه
سألقى منه غايات الاماني * وسوف تكون عُقباها عتابه

أمرد حج والتحى

تشبيب

أ آس عـــذار فوق خديه منثور
أم الورد فى روض به حف منثور
حـديقـة أزهار عبير شميمها
له فى جميع الـكون نشر وتعـطير
حماها من الجانى قسيٌّ حواجب
وفتاك لحظ سيفه العضب مشهور
الى الله أشكو جفن ظبي اذا رنا
الى قلب صب صاده وهو مكسور
الا فى سبيل الحب صب متيم
مصاب بسهم الجفن ولهان مسحور
عليـه سطا لحظ الحبيب بنظرة
فراح طليقا دمعُه وهو مأسور
لئن ساءه يوم الرحيـل فراقه
فقد سره لقياه والحظ موفور
الا قاتل الله الفراق فكم به
على ذى رفاق قد تعسر ميسور
ورب محب حذروه من الهوى
وقد بات يغريه على الحب تحذير

مداعبة

فى حبه كم بت صبا * أجرى عليه الدمع صبا
ظبيٌ حلاه فى العلا * تحكى لنا بدرا وشهبا
بهرَتْ شموسُ جماله * فسبت بطلعتها المحبا
عجبا لنمل عـذاره * اذ فوق ورد الخد دبا
سلك الطريق لثغره * متطلب الشهد المربى
لله نجل سعادة * فى حجر حظوتها تربى
لو صار أشيب لم يحل * عما عليـه كان شبا
حاكى أباه تربياً * بل فاقه وعليه أربى
كانت عواقب أمره * محمودة شرعا وطبا
أدى فريضة حجه * سعيا وتطوافا ولبا
وسقته زمزم شربة * قد لينت ما كان صعبا
وأتى ليُحدث لحية * فاسترسلت كالريح هبا
سهلت عليه طبيعة * ولرب طبع قد تأبى
وفشت بخديه وما * بالت ولا كادت تخبا
وغدت تقول لخده * ياحسرتا تبت وتبا
كم من حزانى حولها * هموا بها شتما وسبا
واذا رأوا تلويثها * صبوا عليه الماء صبا
فاصبر عليها واعتذر * عنها لعل تزور غبا

تشبيب

سباه غزال قد دعته الى الحمى
مهى الوحش تبغى انسه والظبا القور
تخلفه حيران فى ظلمة النوى
وسار الى البطحاء يكنفه النور
وفاز بحج البيت غير مقصر
وان فاته حلق فما فات تقصير
وزمزم زانته بحلية لحية
على مثلها الولدان تحسدُها الحور
حلاه بها زادت كمالا وبهجة
وان قال من يهواه حقا هى الزور
تقول أواحيه وقد عجبوا لها
الا ان من يهوى العذار لمعذور
ولما قضى نسكا وأدى زيارة
ولاحت على الاوطان منه تباشير
أتته تهانى الحظ يضحك سنها
وقلب محبيه بلقياه مسرور
ونادته ان ابشر محمد بالمنى
فحجك مبرور وذنبك مغفور
وهذا لسان الحال قال مؤرخا
الى حج بيت الله ساعيك مشكور

مداعبة

وارجع عن الشكوى وقل
انى رضيت الله ربا
فلقد جنيت بها على * خد جناه كان رطبا
ربيتها فتفلتت * ولكم تفلت من تربى
بعضا لها من لحية * كشفت وحاشى ان تخبا
هجمت عليك تطاولا * ودعت سميا قد أُلبا
ومذ استطالت أرخت * قد ضر طولى يوم لبى
١٢٥٧

الدرويش

ان فى الروم من يروم الجبوشا * ويرى محض نصحه مغشوشا
اذ ترجى من مائهم رى أرض * زادها خلف نوئهم تعطيشا
وتصابى فى حبهم وهو شيخ * كان فى دولة الجوى جاويشا
فهو مثل الفراش حُمقا وزعما * طاش عقلا وظن ان لن يطيشا
عاش دهرا وجهله فى ازدياد * ليته بعد لم يكن ليعيشا
لو فهمنا حلى الكمال فهمنا * بالمعانى لراح يهوى النقوشا (١)
نجتنى الكرم يانعاً وهو يأبى * بجناياته ويرعى الحشيشا
ان تبدى خياله بغدير * خاف منه وخال فيه جيوشا
وهو فيما داخلته خارجىٌّ * رافضىٌّ يدعونه الدرويشا
كان مثل البابوش فى الرجل لكن * جملته أيدى العلى سربوشا
قربه لم يكن لنا منه بدٌّ * لو صرفنا فى البعد عنه قروشا
فتوخى يانفس صبرا عليه * فى لياليك ما يشل العروشا

ضارب رق

همت وجدا بحب ضارب رق * قد رمى لحظه فؤادى بأسهم
رمت منه وصلا فما كان أحلى * قوله لى من بعد ذلك تك تم

ظبيٌ أغن

لله شاد رخيم الصوت همت به * وفيه طابت أويقاتى وأحيانى
اذا رنا بظُبى الالحاظ مت به * وان ترنم بالالحان أحيانى

(١) فهمنا الاولى هي من الفهم والثانيه من الهيام

السيد علي الدرويش

ترجمته

هو ابن السيد حسن بن ابراهيم الانكورى . ولد ونشأ بالقاهرة فى غرة شهر المحرم سنة (١٢١١ ﻫ) ولما بلغ سن التعلم أدخل الازهر وأخذ علومه على شيوخ وقته كالشيخ المهدى والقويسنى والصاوى وغيرهم من جلة شيوخ الازهر . ثم مالت نفسه الى الأدب ، فانكب على ما وصلت اليه يده من كتبه ، واستقرى أمهات اللغة وأخذ يستخرج دررها ، ويحتلب درها ، كما صبت نفسه الى تعلم الهندسة والحساب . ثم تفرغ للكتابة وقرض الشعر واختص بعلم البديع وأتقن فيه فن التأريخ حتى ما كانت تمر به حادثة الا أرخها عفو الساعة . وكان يُعرف بشاعر عباس باشا الاول . وقد كان حسن الحال ذا مال وعقار غير متكسب بالشعر . ميالا الى اللهو والسرور مداحا للكرام ، نباذا للئام ، مقذعا فى الهجاء ، مر الخصومة ، حلو المفاكهة ، ومازال مشتغلا بنظم الشعر وانشاء الرسائل ومكاتبة أدباء عصره حائزا لإعزاز أصدقائه ، وإجلال عارفى فضله ، إلى أن توفاه الله فى ٢٧ ذى القعدة سنة (١٢٧٠ﻫ) فما قام نعيه حتى رثاه الشعراء وأبنه الادباء . وقد جمع ما تفرق من شعره ونثره تلميذه مصطفى سلامه النجارى فى كتاب سماه (الإشعار بحميد الأشعار) وطبعه على مطبعة الحجر سنة ١٢٨٤ ﻫ

مميزاته

جارى أدباء عصره فى ضروب الشعر وتحبير الرسائل المسجعة ، والمقامات المرصعة ، و برع فى صناعة البديع ، وحسن التفنن فيه . وامتاز من أنواعه بالتأريخ ، وأدوار التغنى ، وصناعة المواليا والموشحات ، وما اليها من فنون الغناء ، وأحسبه ممن يعدون فى ذيل الطبقة الاولى فى شعره ، حسبما كان عليه الشعر فى عصره ، ولولا ما كانت تجره اليه الاسجاع من الحشو والخروج لعد من كتاب الطبقة الاولى فى منشئ ذلك العهد . ومع هذا فهو من أفراده المعدودين فى الادب والفضل

مؤلفاته

الدرج والدرك — كتاب وضعه فى مدح من اشتهر فى أيامه بحميد المزايا وكريم الصفات ، وذم ذوى المثالب والدنايات ، على ما أرشده اليه عقله ، وقادته نحوه ميول نفسه . جعل الدرج للممدوحين والدرك للمذمومين . روى تلميذه مصطفى النجارى ان هذا الكتاب استعاره منه صديقه حافظ بك مصطفى ولم يرده . غير اننى وقفت منه على نبذ ترى بعضها فى نخب منثوره

تاريخ محاسن الميل لصور الخيل — كتاب وضعه بامر صاحب مصر عباس باشا الاول ذكر فيه محاسن الخيل ومساوئها

رحلة — لم أطلع عليها ولعلها لم تطبع

سفينة فى الادب — استعارها منه صديقه على أغا الترجمان ولم يردها

آثار أقلامه

نخب من نثره

من مقامة

سمعت برجل اسمه فلان ظهر يدعى الشعر انشاءً وانشادا ، وانه أبدع فى السجع إملاءً و إيجادا ، وله لسان حسان ، وحكمة لقمان ، وشعر الوليد ، ومعانى أبى الوليد ، وكتابة عبد الحميد ، و بلاغة ابن العميد ، و ذكن اياس ، وعلم ابن عباس ، وخط ابن مقلة ، و يستصغر لجعفر فضله ، و يدعى الادب ، فى الشعر والخطب ، و يقول فى كل مجال ، هل من مبارز للنزال ، وهذه الدعوى يتوهمها حدسه ، وتسول له بها نفسه ، فشوقنى خبرهُ خُبْرَه ، وشوقنى اذشوقنى سبره ، وكنت كثيراً ما ألح على بعض من عرفه ، وبالجبل وصفه ، فى ان يرينى شكل هذا المدعى ، وان كان لا يعى ، الى ان أشتفى من الحاح ان أراه ، وأكتفى من معاقبتى بان جمعنى و إياه ، وذلك فى مولد البدوى ، بمنزل خادم المقام العيسوى ، فرأيت عماره ، فى إماره ، ساحبا على بنى مخزوم ذيل الفخارة ، وهو كاتم انفاسه ، جامع حواسه ، مطأطىء رأسه ، يتهجى فى كراسه ، فيها أحاديث خرافه ، يرددها بكثافه ، وهى مقامة اشتراها ، وهو لا يدرى مادحاها ، لوسمعها صاحب المقامات مات من بردها ، وهلك المبرد ولم يكتس ببردها ، وصار السفيه ، يقول ماليس فيه ، ويدعى أبوة بنت فكر

الغير ، كدعواه فى أبيه

خفض عليك فلو كساك قميصه ✻ تاموزُ كنت فتى وحقك باردا

يحرف الحروف ، و يؤلف غير مالوف ، يتعدى بالتحريف ، و يلزم اللحن والتصحيف ، و يفوت ماأعجم عليه ، و ينسب فى كل كلمة اليه ، يجر الفاعل من كل بيت ، و يفتح فى موضع السكون بليت . فقلت من هذا القارى ، ذوالوجه القارى ، فقيل هاشم ، فقلت رأسه . فقيل إسمه . فقلت بئسه ، وتأملته فاذا فيه كبر نمرود ، وذات شقى ثمود ، ولؤم مادر ، وعىّ باقل ، وطمع أشعب المعلوم لكل ناقل ، وجهل أبى جهل المتقدم ، وحمق هَبنَّقَة وخفة المعلم . فعرفت من العنوان المضمون ، واللفتان فلتتان من المكنون ، فقنعت من الغنيمة بالاياب ، و بالجوى عن الجواب .

مأثرة السلطان محمود خان

كان فى زمن خرج فيه من العدو اعصار ، سجرت نيران حروب ما اصطلاها فؤاد عصر من الاعصار ، فاخرج الله منهم موسى النصر خائفاً يترقب ، حتى استظل بحرمة الامان من علمه المنصور منذ رآه يترقب

لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا ✻ من نفسه وحدها فى جحفل لجب

فوقع بهم بأس بأسه فتخفشوا فى نهار البواتر ، وكاد يشيب الليل لنسبته لهم انه كافر

لقد بث عبد الله جند انتقامه ✻ على الليل حتى ماتدب عقاربه

ففى كل نجد فى البلاد وغائر ✻ مواهب ليست منه وهى مواهبه

كايلهم بارواحهم من بنادقه شركيل ، حتى تكسرت النصال على النصال ، باشباحهم من سهام النهار على سهام الليل ، فقدمت جنودُ عدوه قدوم العير على أبى الاشبال : حيث أيقنوا انها صرّى عزم من أبى سنمال . والعير تقدم من جبن على

الاسد ، وأسمعهم غناء البنادق من حانة الصفوف ، فرنضت عيون جراحهم الدموع على خدود السيوف ، حتى عموا وصموا لحب الحياة مخافة الهجران ، وسمعوا ملام الموت بآذان الطعان

أراعهم منك رعب واقف بهم * حتى تآمر فيهم رائد الاجل

فتقاسمت جثثهم الطيرُ فى محشر طرقه ، وترى كلاً منهم طائره فى عنقه ،

وأخفت أهل الشرك حتى انه * لتخافك النطف التى لم تخلق

فاروى الامانى بريق قلمه ، واظما نفوسهم بَريق لهذمه

أمضى من الاجل الماضى وأسرع من * جارى القضاء واضوا من سنا القمر

فزعت اليه الارض من تلك الدواب ، فأحال مشرق مشرفيه بين الاوعال والهضاب ، فالقوا بسلاح منهزمين امام العسكر ، وظنوا انها حاجة الصائد من الجند بيدستر

ان الاسود أسود الغاب همتها * يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب

لم تشيبه من توالى الحروب الشوائب ، ورد ماء شبيبة الدهر الهرم وماطر له شارب ، ورجعت بيادق هذا الشاه الاعظم فرزانا بغنائمهم ، وداسهم بالفرس فعاش الرخ فى رمائمهم

خذوا الآن ما يأتيكم بعد هذه * ولا تذكروا ذا العام فهو مثال

شيء من نقده

وكان الواجب الاضراب عن مجاوبة أمثاله ، والتأمل لما لا شيء فى خياله ، لكن كاتب تلك الكتابة ، الخالية عن الاصابة ، المتكلم عنك ، المتقرب اليك بما ليس منك ، ليست براعته الا فى ذمى وسبي ، ولا تمش براعته الا بتاء كيد ذنبي ، مع ان

جميع ما أبداه غير مطابق للحقيقة ، ولم يجر فى سنن الجواب على طريقة ، وقد علمت مقدار عقل القائل ، وما هو عليه من التقوى والفضائل ، حيث قال وأشار لى بقوله السعيد فى الدنيا ، وهو السعيد فى تلك الدرا ، فقد اعترف لى بالسعادة فى الدنيا والله أكرم منه فى الاخرى . واما قوله كان الواجب نعت قائل البيتين اللطاف ، فهما فى كتاب المنسوب والمضاف للامام الثعالبى . وكانه استطرد فيها أفسد ، فلست ملزوما « كذا » برد هذا التهافت ، واصغر قاصر يكبر عن معارضة كل اعتراض له باهت ، حيث اطال بكل محال من تعريفه الدهر ، بما لا يتعلمه الدهر ، ولو وفقه الله ، فمرض ما ابداه ، فى تفسيره للدهر فى جوابيه ، لا رشده كل سامع لما يترتب عليه ، لكن ما علىّ اذا لم يفهم ، أو هجانى وذم وتكلم . واما كلامه فى اعترافى بقلة بضاعتى ، ومماراتى بما لا يعنينى بجاداتى ، فانى لم أزل معترفا بالتقصير والقصور ، بل وعدم البضاعة التى بها الغير مغرور ، لكن مثله لا يغتر بتمشدقه ، ولا يلتفت الى تلهوقه . ومما يدلنى على أنه معدوم البضاعة ، وان آراءه فى الصواب مضاعه ، قوله فى أبيات الجواب الاول « هو الامام العلى العالم الورع » فلا يخفى قاصرى طالبى العلم ان الجزء الاخير من الكلمة الاخيرة من المصراع الاول التى هى عروض البيت لا يجوز تحريكها بل لا بد من اعتمادها على تنوين أو ساكن ولا تنوين هنا لوجود آدات التعريف ولا يصح أن تقيد عين الورع فالواجب أن يقال « هو الامام علىّ عالم ورع » الثانى قوله من أبيات الجواب الثانى

ألا يا نسيم الريح ان كنت محسنا * تحمّل الى وادى الاحبا سلامى

فما هذه الكثافة ، التى لا تحسن بوجه من أقسام الاضافة فى قوله « نسيم الريح » الذى لم يقله ألكن ولا فصيح ، وما هذا الحشو الكريه ، الذى يأباه كل نبيه ولا يرتضيه ، ولو أصاب لقال : ألا يا نسيم الشوق أو نحوه ، فما أثقل نسيم ريحه ، وأثقل منه فى ضبطه وتصحيحه ، لفظة تحمل بسكون الحاء وكسر الميم ، فان ذلك غير مستقيم

والصواب تحمل بالفتح والتشديد ، لاستقامة الوزن والمعنى والفرار من التعقيد ...

الفضيلة والرذيلة

من مقامة

وفقك الله لما يرضاه ، وعصمك من موجب الذم ومن لا يتحاشاه ، ان الفضيلة والرذيلة صفتان متضادتان ، ونوع الانسان مجبول على الميل للاولى ، والفرار من الاخرى ، على حسب آراء العباد ، وعوائد البلاد ، فربما كانت الفضيلة عند قوم رذيلة عند آخرين ، وكانت الرذيلة عند أمم فضيلة عند غيرهم من المتاخرين (١) ، وحسنات الابرار سيئات المقربين ، مع تفاوتهم في طبائعهم ، وأشكالهم وصنائعهم ، فمنهم ذو الطبع السليم ، ومنهم الذميم ، ولا سبيل الى ترغيب الاول ليجتهد في الازدياد ، والترهيب للثاني لينطبع على أن يتحاشى بالاعتياد ، الا باللسان الآتي بسحر البيان ، فقد جاء في الحديث ان إيمان المرء ليربو اذا مُدح ، وربما يصح الجسم اذا جُرح ، فمن ذلك كان المدح على المحاسن تذكيرا ، والذم على القبائح تنفيرا ، وكلاهما مطلوب شرعا ، ومرغوب فرعا ، ليستيقظ الغافل ، ويقبل الكمال الكامل ، وليس كل المدح بمقبول ، ولا كل الذم مطلقا بمعذول ، فان كان من ذممته لا ينتفع بنصيحة ، ولا ينتهي عن فعلة قبيحة ، فحينئذ لا يكون الهجو من سيء الافعال ، بل يندرج في صالح الاعمال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذكروا الفاسق بما فيه تحذره الناس . وأن الله تعالى في كتابه العزيز قد ذم مصرِّحا ومعرِّضا ، قال تعالى : تبت يدي أبي لهب

(١) في هذا الموضوع مجازفة وتناقض غريبين اذ ماممنى أن نوع الانسان يكون مجبولا على الميل الى الفضيلة والفرار من الرذيلة في حين أن لا قاعدة عنده لكلا الصفتين فما يكون عند بعضه فضيلة يعد عند البعض الآخر رذيلة . فليتأمل

وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب . وقد مدح صلى الله عليه وسلم وذم . قال نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه . وفى مروان : الوزغ ابن الوزغ . وهو كثير فى كتابه القديم ، وحديث نبيه الكريم ، وأكثر من أن يحصر فى كلام الكتاب والبلغاء من السلف والخلف .

ولما كان ممن استهوته الشياطين ، وتسلطن جنونه على جنون سائر المغفلين ، ذو البهتان ، غلام امرأة السيد فلان .... وكان قد تزوجها بعد زوجها فيما سلف ، وعاشرها على كره وصلف ، فولدت له أم غيلان ، ولدا وهبوه لا ولا دعلوان ، وبعد مضى سنين ، سموه سى ولا الضالين أمين ، فلما فاق العشرين ، وعلت غلفة الشب على السكين ، أرادوا أن يطاهروه ، لينجس بالماء كلما طهروه ، وعملوا فرحا ولكن لعدوهم ، ووليمة ما أكل فيها غير لحمهم بحجومهم ، فاتى هذا المهم ، بالطم والرم ، وأردت أن أوقظ غيره من غمرات الغفلات ، وأن لا يقع أحد فى تلك الفضائح العجيبات .

نبذ من شعره

روضة ونعيم

رياض مسرات بمبتسم الزّهر * تقول ازدهى دارالسعود على الزهر
تقول أمانى ناظريها لمن بها * كذا صاحب العمران فى الناس والعمر
فياحبذا تلك المبانى وحبذا * قصور بها الايوان معترف القصر
أشاهد منها جنة قد تزخرفت * بولدان ورد أو بحور من القمرى

فارفع صـدر خارج دون حسنها * وأدنى مكان داخل منتهى الصـدر
فكل زمان عنـدها زمن الصـبا * وكل مكان ضمنها دميـة القصر
رياض باخـلاق الزهور تـكونلت * على حسن أخلاق النسيم الذى يسرى
بأحمر قان أو بأصـــفر فاقع * وأبيض مفـتر وأزرق مغـبر
تمايلت الاغصان فى القطر نشوة * اذا ضحكت أزهاره من بكا القطر
كأن عيون الزهر بين قصورها * عيون المها بين الرصافة والجسر
عرائس أشـجار تجلت فزفها * طيور تغنى وهى فى سندس خضر
تراقصت الاغصان لما ترنمت * بلابلها والجو نقط بالدر
خليلى فيها غنيانى على الطلا * ولا تذكرا لى حال زيد ولا عمرو
فقلبي فقير فى ظلام همومـه * لجامد نور فيـه ذوب من التبر
ولا تجهرا فى سبك اكسيرها على * لهيب الحشا فالكيمياء من السر
أعد فقـيراً راح بالراح مثريا * بألف غنىٍّ بات منها على فقر
حواسى بذكراها نعـيم ولذة * ونور وطيب كل ذلك فى الخمـر
اذا شمسُها حلت بروجَ كؤسها * ترى فلكا قد دار بالكوكب الدرى
مليح له لحظ به الموت كامن * ولفظ به يحيا المناجى من القبر
علىّ بها ان مال فى الشرب وانثنى * تميل به ميل الزمان على الحر

بركة

يابركة بوركت نار الزهور بها * وكان عرش مبانيها على الماء
صغى الهزار عشاء والهواء شكى * بها وخبط فيها خبط عشواء

يامسبل الستر ليلا من ذوائبها * ومساب البدر فيها حسن اضواء (١)

معنى جديد

ومجتهد اللحاظ أصاب قلبي * كذلك كل مجتهد مصيب
بسهم وقعه لم يخط اذ من * بنى أمل كثيرا ما يخيب

الى مؤدب ولده

هرب الغلام ولم يُغسّل بعد ما * أكل الطعام وفر عنى واحتجب
وسألت عنه فقيل لى لم ندره * حتى تحقق انه لك قد ذهب
فاذا أتى الكتّاب فقرع بالعصا * فوق الحصير ومس مافوق الركب
وأشهر عصا التأديب لا تضرب بها * غضباً فكم لم يهد ضالا من ضرب
واعلم بان المشتكى منه على * من يشتكيه أعز محبوب يحب
واعلمه ان الاتساخ مذمة * ورجوعه متسحباً غير الادب
واساله لِمَ لم يُعلم الابَ إبنُه * أولم بعقب الاكل منه قد هرب
وأفده أن الدين حب نظافة * وتشبث الاوساخ مفض للجرب
انى شكرتك وهو يقرأ أحرفا * حفظا فكيف يكون شكرى إن كتب
ان الصغير يشب مع عاداته * حتى يشيب وانه مع ماغلب
حتى ترى عينيه قد أخذ البكا * بدموعها عاهده فى ترك السبب

(١) يالله . ما كان ضره لو قال : وسالب بدل من ومسلب ؟ ان البيت بها يكون سليما من الشوائب ولكنها احدى جنايات التهالك على البديع وجناسانه

الهرمان

انظر الى الهرمين واعلم اننى * فيما اراه منهما مبهوت
رسخا على صدر الزمان وقلبه * لم ينهضا حتى الزمان يموت

التحبب

الا حب يلاقينى اطارحه * هوى حبيب متيم الدار نازحة
رأيت فى الغصن شيئاً من رشاقته * فكدت من فرط أشواقى اصافحة
ضنى يؤجج نار الحب فى كبدى * ظلما وقلبى مع هذا يسامحه
كأن شمس الضحى من طوقه شرقت * لنا ومن فرعه عادت بوارحه
وان جفانى لبعدى عن منازله * واعتاض بى مائقا يهجوه مادحه
فطالما قصرت أوقاتنا معه * فى ظل بان يثير الوجد صادحة
ورب ماض من الاعراب ذى شرف * تصافح الهام فى الهيجا صفائحه
سابقته للمعانى ثم قدمنى * قلب الى الذروة العليا مطامحه
وبات يسرى الى شأو ليدركه * كالوعل يمشى الى طود يناطحه
ومهمه نازح الارجاء ذى محن * كانما لجج خضر مناوحه
قطعته وركاب الركب واقفة * سيان سانحه عندى وبارحه
حيا العقيق من الوسمىّ صوب حيا * وجاد مغناه غاديه ورائحه
فكم فؤاد أبىٍّ فيه منطرح * وعاشق سُفحت فيه سوافحه

المداراه

اذا رفع الزمان عليك شخصا * وكنت احق منه ولو تصاعد
انله حق رتبته تجده * ينيلك ان دنوت وان تباعد
فان تبد الذى تدريه فيه * تكن ممن عن الحسنى تقاعد
فكم فى الخدر أبهى من عروس * ولكن للعروس الدهر ساعد

الوفاء فى منفلوط[1]

سعيد من نآى عنه الصعيد * صعود ما لطالعه سعود
وردنا منفلوط فلا سقاها * وردناها فأظمأنا الورود
فمالى قد بعثت لقوم عاد * كأنى صالح وهم ثمود
أراهم ينظرون الىّ شزرا * كعيسى حين تنظره اليهود
فمالى منهم خل ودود * ولى من طبعهم خل ودود
وكم لى منهم سمج وقيح * تقعر وهو فى جهل فريد
وصلدان وفى أو صد يوما * فطبع الموت فيه والصديد
فلو أن الجحيم هم لاضحى * مطيعا من تولاه الجحود

---

(١) ليسمح لي السيد مصطفى لطفي والسيد أبو بكر لطفي بالتفكه بهذه القطعة فانه قالها فى يوم وقف به حظه فيه عند السفهاء وهم فى كل بلد دهماؤه

تهنئة المرحوم رياض باشا برتبة مهردار
لعباس باشا الاول سنة ١٢٦٩

ياحفيظا على الختام عليا * وأمينا بكل مدح جدير
خاتم الملك فى يمينك يمن * رسمه الاصفى نعم النصير
نافذا أمره به ختم الله * على قلب حاسد ذى نكير
دمت فى نعمة وجاه وعز * وسترقى بطول عمر وزير

وقال مضمنا

قد قلت لما بدا يختال فى خفر * وهز عطفا كغصن البان ممشوقا
هذا الذى ترك الاوهام حائرة * وصير العالم النحرير زنديقا

لؤلؤ الشعر

لقد كان لى قلب تضمن لؤلؤاً * من الشعر مسبوك النظام انيقا
فلما حللتم فيه حاولت نقله * فاخرجته من ناظرى عقيقا

دواهى العيون

ودواهى العيون نعم الدواهى * أيقظتنى للوجد وهى سواهى
واستعانت على القوى بهواها * فاستعنا على الهوى بالله

غادة الروم

بروحى من بنات الروم ماست * بأبيض ملبس يصبي الهها
تستر بالغمام البدر منها * وشق ثيابه وجدا عليها

فليت القلب كان لها لباسا * وصاحب قلبه عبدا لديها

الادوار وأمثالها

هات راحى ياحياة الانفس * فشفائى فى شفاه الاكؤس
فوق مرج مكتس بالسندس * يبسم الورد لعين النرجس

زفها بالناى لى البكر العروس * أخذ العقل لها المهر القسوس
حين تملا ينتفى عنك العبوس * كلما قد أحسن الدهر تسى

من أدوار

يامن على خده دينار * صرفت فيه فضة دمعى
جدلى ببوسة قال دينار * والبوس محرم فى شرعى

من طلعتك بدر الافراح * والشمس هىّ الفرّاحى
حسنك عليه راحت الارواح * والثغر فيه روحى وراحى

قلبى على قدك يحكى * طيره على غصن السروه
تضحك ومن صدك أبكى * ومحبتك مره وحلوه

الدمع من عينى جارى * والوردمن خده جورى
والوجد قال لى ياجارى * قل للعيون فينا جورى

الحب روضة

جناين العشق فيها اشجار وفيها انهار * فيها البلابل وفيها الليل وفيها نهار
فنزهة النفس وجهه والشعور أستار * على العقول فوق أعطافه ودمعى احتار

الشيخ ناصيف اليازجي



ترجمته

هو ناصيف بن عبد الله اليازجى الشاعر الناثر المجيد ولد فى قرية كفرشيما من قرى ساحل لبنان سنة (١٢١٥ هـ ١٨٠٠ م) من أسرة كريمة من أسر لبنان المسيحية.

وكان والده عبد الله متطبباً على نهج ابن سينا فعهد بتأديب ناصيف الى أحد القسوس فتلقى عليه مبادئ القراءة والكتابة. ثم صبت نفسه الى الدرس والمطالعة فتطلب كتب الادب وأصول اللغة وقواعد النحو ودواوين الشعراء، فكان يعانى المشاق فى

الحصول عليها لفتور الهمم عن نشرها وعدم توفر أسباب الطبع ، حتى لقد كان ربما أضطر الى نسخ الكتاب بأكمله مهما تعددت صحائفه ، وانكب عليها تفهماً واستظهارا ومما حفظه القرآن الكريم ، وديوان المتنبي ، وكان له به ولع عظيم وايثار فائق ، فنال حظاً وافراً من فنون الآداب ، وشهرة واسعة بين أبناء اللغة ، وفهماً نافذاً في فقه العربية . وكانت له سليقة نادرة في قرض الشعر حتى لهتف به وهو في أوائل العقد الثاني من سني حياته

ولما ورى زنده ، و بلغ أشده ، وفد على الامير بشير الشهابي مع قاصدي بره ، ومنتجعي فضله ، من شعراء عصره ، فلقي منه حسن الرعايه وكريم المثوى ، حتى ألحقه ببطانته ، واختاره كاتباً لاسراره . ومازال في خدمته الى سنة (١٢٥٦ هـ ١٨٤٠ م) حيث نزعت حكومة لبنان من يد الامير ونفي الى مالطه . فانحدر الشيخ ناصيف الى بيروت وأقام بها مع ذويه ، وعكف على المطالعة والتدريس ، وتأليف الكتب للناشئين ونظم الاشعار ، ومراسلة الأدباء في الاقطار ، فذاع صيته ، وعلت مكانته ، فكان نجعة أهل الادب ، وشرعة أولي الفضل ، الى أن أصيب بفالج نصفي عطل شقه الأيسر سنة (١٢٨٦ هـ ١٨٦٩ م) لكنه لم يؤثر في ذكائه النادر ، وفطنته العجيبة ، فما برح ينظم درر الاشعار ، و ينثر غرر النثار ، الى أن فوجيء بوفاة ولده البكر حبيب ، فكان لمنعاه وقع سيّئ في نفسه ، فحاول رثاءه فخانته قريحته ولم يستطع ان يبكيه بأكثر من الأبيات التي تراها في نبذ شعره بعد . ثم مالبث بعده أياما حتى لحق به فمات فجئة في ٨ فبراير م ١٨٧١ فقام نعيه ورثاه أدباء عصره

مميزاته

إعتور الشعر العربي في أيامه الأخيرة ضروبٌ من دخائل الصناعات ابتدعوها، وصنوف من البديع اخترعوها، ليست من الفطر العربية في شيء، ولا لها من الأثر الشعريّ لدى النفس ذلك المكان، ان هي الا أنصاب عنا لها متشاعروا المتأخرين، ولم يعرفها شاعر من فحول المتقدمين. فكانت للشعر قيوداً وأغلالاً رسف فيها حيناً من الدهر الى ان جاء الشيخ ناصيف، فكان له فضل تخفيفها عنه، و إبعادها منه، الا فيما اقتضاه حال زمنه من جناسات البديع، وحسابات التأريخ على قلة و إجاده. فأحسن فيما نظمه جزالة المباني والتراكيب، وأحكم سهولة المعاني والاساليب، محتذيا المتنبي في فخامة العبارة، وبارع الحكمة، وناصع الاشارة، وذهاب المثل، على وجه الزمن، مؤثراً إياه على غيره من الشعراء حتى كان يقول: كأن المتنبي يمشي في الجو وسائر الشعراء يمشون على الأرض. أما الكتابة فقد فات فيها أكثر أهل عصره إجادة و إحساناً، وسلامة وافتناناً، كما أبدع محاكاة المقامات، وجوّد صوغ العبارات تجويداً يذكر فهو في الكتابة والشعر في الطبقة الأولى من صدور الأدباء، في ذلك العصر

مؤلفاته

مجمع البحرين — كتاب جليل حوى ستين مقامة في هزل القول وجده على نمط مقامات الحريري، أودعها فنونا من الآداب، وصنوفا من بديع الانشاء،

وسائر الامثال، وغريب الكلام، ولطائف اللغات، مما أبان عن علم واسع، واطلاع فائق. وهي مشهورة متداولة بين أيدي المتأدبين، طبعت مرارا

ديوان شعر — في ثلاث نبذ لطيفة الحجم، دعاها: النبذة الاولى، نفحة الريحان، ثالث القمرين. فيه من جيد الشعر مالا تكاد تجد بعضه في أكثر شعر من عاصره. وهو معروف متداول

شرح لديوان — المتنبي كان قد شرع في وضع هذا الشرح غير أنه لم يعلق عليه سوى بعض تفاسير وجيزة، ثم أتمه ببسط وإيضاح ولده الشيخ ابراهيم كما نظر في سائر مؤلفاته نظر تهذيب وإصلاح، وحذف وتصحيح

كتب مدرسية ما بين منظوم ومنثور في النحو والصرف والبيان والعروض وجلها مطبوع متداول ورأيت له كتابا اسمه (فاكهة الندماء) في مراسلات الادباء، فيه بعض مادار بينه وبين أدباء عصره من المراسلات بالشعر فقط يظهر ان الذي جمعه هو عزيز أفندي زند

آثار أقلامه

نخب من نثره

علوم العرب

لا يخفى أن العرب كانوا قوماً أميين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة الا القليل منهم ، ولم تكن عندهم علوم الا قليلا في النجوم والطب عملا بالاستقراء والتجربة . غير أنهم كانوا في أعلى طبقة من نباهة الفكر ، وفصاحة اللسان ، وسرعة الخاطر ، حتى كانوا ينظمون الشعر ارتجالا فيأتون فيه بما لا يقدر عليه غيرهم بعد التروية والاستعداد ، وهو أمر عظيم لا يعرف مقداره الا من كلف نفسه الهجوم عليه . ولم يكن لهؤلاء القوم أعمال يشتغلون بها فكانوا يصرفون هممهم الى تهذيب لغتهم والتفنن فيها حتى ذهبوا في ذلك كل مذهب ، وساعدهم على التصرف فيها ما عندهم من الحذاقة ، فكانوا يجعلون لكل حكم من أحكامها وجها سديدا يحكم العقل بصحته ، فكانت باعتبار ألفاظها منقوله ، وباعتبار أحكامها معقوله . وما زالوا كذلك حتى ظهر الاسلام ودخلت فيه شعوب من الاعاجم ، فاختلطت اللغات وخيف الفساد على العربية ، فجعل لها روابط وضوابط تحفظها على أصلها عند ما يقف عليهن . فمن ذلك ما تعرف به مباني ألفاظها بحسب الوضع وهو علم متن اللغة ، ولعل واضعه أحمد بن المستنير الملقب بقطرب .

ومنه ما تعرف به أحكام أبنية الألفاظ المتداولة في المعاني المختلفة وهو علم الصرف وواضعه معاذ الهراء فيما قيل . ومنه ما يعرف به تركيب الألفاظ الدال على أصل المعنى المراد وهو علم النحو وقيل واضعه علي بن أبي طالب، وقيل أبو الأسود الدؤلي ، ونسبه بعضهم الى حماد بن سلمة . وهو أجل علوم هذه اللغة لاشتماله على الاعراب الذي هو دليل القاري، ومصباح الساري، وعليه مدار المعاني، واختلاف المباني، كما هو في نحو : لا تأكل السمك وتشرب اللبن، فان رفع تشربُ يدل على النهي عن الاول وإباحة الثاني، ونصبه يدل على النهي عن الجمع بينهما دون انفراد كل منهما على حدته ، وجزمه يدل على النهي عنهما جميعاً ، والواو على الرفع للاستئناف ، وعلى النصب للصرف ، وعلى الجزم للعطف . فقد تلاعب الإعراب بالمعاني والألفاظ جميعاً . كما تلاعب في قولهم: ما أحسن زيدا . فان النصب يدل على التعجب من حسن زيد ، والرفع على نفي الاحسان عنه ، والخفض على الاستفهام عن أحسن ما فيه . فتكون « ما » على الاول تعجبية وأحسن فعلا جامدا ، وعلى الثاني نافية وأحسن فعلا متصرفا ، وعلى الثالث استفهامية وأحسن اسم تفضيل . ولو أردنا الإتساع في ذلك لأوردنا كثيرا من الصور المختلفة ، ولعل هذا لا يوجد في غير هذه اللغة .

ومن علوم العربية ما تعرف به مطابقة ألفاظها للمعاني المقصودة بها في التركيب وهو علم المعاني ، وما يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة وهو علم البيان ، وواضعهما الشيخ عبد القاهر الجرجاني . ومنها ما تعرف به وجوه تحسين الكلام وهو علم البديع ، وواضعه عبد الله بن المعتز . ومنها ما تعرف به أحكام موازين الشعر وهو علم العروض ، وما تعرف به أحكام الأجزاء الملتزمة في أواخر الابيات وهو علم القوافي، وواضعهما الخليل بن احمد . ويتصل بذلك فنون شتى، كعلم الاشتقاق، وأصول النحو، وقرض الشعر، وإنشاء النثر، والفصاحة، والمحاضرة، والخط ، ومقاطع الحروف، والاحكام

المتعلقة بها مما يطول بيانه حتى يكون من لم يدرك منها غير المتعارف بين العامة كمن أصاب سقطا قد ضربته الريح الى خارج البستان وفاته ما في داخله من الثمار الصالحة الكثيرة المختلفة الأنواع

ثم اتسعوا في العلوم الشائعة فتداولوا علم المنطق وكان أسبقهم اليه الشيخ الرئيس الحسن بن عبدالله بن سينا البخاري وهو الذي استوفى حق الصناعة الطبية غير أنه كان قد سبقه الى شيء من ذلك الشيخ محمد بن زكريا الرازي . وكثيرا ما تشتمل مؤلفاتهم على فنون من هذه الصناعة كالبيطرة وهي طب الخيل ، والزردقة وهي طب الطيور . وقد يتعرضون لشيء من البزردة وهي صناعة الغرس وأوقاته ، والفلاحة وهي صناعة الاغراس ومغارسها . وكان كثير من الاطباء المحققين يضمون الى علم الطب علم الطبيعيات لعلاقة بينهما في الاحكام المزاجية وغيرها ، وعلم النجوم لتأثير الاجرام العلوية في الأبدان ، وعلم الموسيقى لمعاضدته في أحكام النبض ، ولهم في ذلك مؤلفات لا تحصى

ومما أفرغوا كنانة الجهد فيه علم الفقه ، وهو ثلاثة أطراف . أولها العبادات وهي ما حق لله على الناس ، والثاني البيوع وهي ما حق للناس على الناس في المعاملات ، والثالث الفرائض وهي ما حق للأحياء من الأموات . ومن علومهم أيضاً علم الحساب ، وهو لازم للفقيه المحقق لاستخراج السهام المجهولة ، وقسمة السهام المعلومة ، ويتصل به علم الهندسة والمساحة ، ومن علومهم علم الآلهيات ، وعلم الآداب ، وعلم الانساب ، والتاريخ ، وبين ذلك فنون قد تعللوا بها كالكهانة ، والفراسة ، وضرب الرمل ، وزجر الطير ، وقيافة الاثر ، ونحو ذلك

وكان الملوك ومن يليهم في الايام القديمة يعرفون كثيرا من العلوم ويتمكنون منها حتى كان منهم من يخطئ العلماء في بعض المسائل ، ولذلك كانوا يعتنون بشأن العلم والعلماء

ويعرفون حقهم . وكانوا يقيمون مدارس في علوم شتى حيثما وجدوا لها موضعا ، ويغمرون المشايخ والطلبة بالعطايا والاحسان ، فكان الناس يدخلون فيها أفواجا وينعكفون على تحصيل ما يستطيعون من العلوم حتى اذا استتم الرجل علمه خرج الى منصب أو وظيفة عند السلطان متمتعاً ببسطة الجاه والمال ، ومستغنيا عن جميع المهمات والاعمال ، فيتفرغ للتوسع في العلوم وانشاء المصنفات فيها وبذلك يكون مثالا لغيره في طلب العلم والتجرد له

ومازال ذلك كذلك حتى سقطت رغبة الملوك في العلم فانقطعت أسباب الطلب وتعطل السعي في تحصيله ، ودثرت مصنفاته ، وأفنى الدهر أهله حتى فقد كثير من هذه العلوم فلم يعرف لها عين ولا أثر ، وجرت بقيتها على آثاره لولا أن تداركها الله بهذه الدولة المجيدة السعيدة التي أحيت ما مات من آداب الاولين والحمد لله رب العالمين

المقامة الطبية

حكى سهيل بن عباد قال : خرجت على فرس جموح ، (١) الى نية طروح ، (٢) فأزعجني هملجة وخببا ، (٣) وأرهقني صعدا وصببا ، حتى انهكني اللغوب ، (٤) وأعياني الركوب ، فنزلت لأقيل ، وأستقيل ، واذا ناقة ترعى ، وهي تنساب كالأفعى ، فوقفت استشرف الهضاب والوهاد ، وأنا أريد أن ابدلها بالجواد ، واذا شيخ قد انقض عليّ كنسر لقمان بن عاد ، وقال : هلكت ولو كنت سهيل بن

(١) الفرس الجموح المستعصي على فارسه (٢) النية هنا بمعنى الجهة التي ينوي المسافر السفر اليها والطروح النائية البعيدة (٣) الهملجة أشد الركض ، والخبب الركض المضطرب (٤) أي حملني من اضطرابه في سيره ما لا قبل لي باحتماله حتى انهكني اللغوب أعني التعب الشديد

عباده فتوسمته من تحت اللثام ، وقلت: قاتلك الله ولو كنت ميمون بن خزام . فضحك ثم كبّر ، وقال: الاجتماع مقدّر . ثم قال: الطعام يا غلام ، فأحضر ما تسنّى ، ثم اندفع فتغنى . قال : فكان عندي أنس ذلك اللقاء ، أطرب من شدو سلامة الزرقاء ، (١) وبت معه ليلة من ليالي الدهر ، أحسبها خيراً من ألف شهر ، حتى اشتعل رأسها شيبا ، وعط (٢) الصباح لديجورها جيبا ، فاستوى الشيخ على القتب ، وقال : أجيبوا داعي الله الى ما كتب . فأوفضنا في مفازة صلدة ، (٣) حتى أفضينا الى بلدة ، بها مدرسة للطب عن الحرث بن كلدة ، (٤) فحللناها حلول النون في القفار ، أو الضب في البحار . ولما انجابت وعكة السفر ، خرج الشيخ في ارتياد الظفر ، حتى أتينا المدرسة

(١) كانت من أحسن القيان وأطربهن صوتا وأطيبهن غناء . ابتاعها جعفر بن سليمان الاموي بثمانين ألف درهم . غنت يوما بحضرة معن بن زائدة ، وروح بن حاتم المهلبي وابن المقفع ، فطرب منها طربا هز فيه أريحية الكرم فأفرغ بين يديها بدرة من المال وتابعه على ذلك روح ولم يكن لدى ابن المقفع مال فأعطاها صكا بضيعة كانت له (٢) شق (٣) أي أسرعنا في فلاة صلبة (٤) كان الحرث هذا من أطباء العرب المعدودين . زعموا أنه وفد على كسرى أنوشروان فلما مثل بين يديه قال له كسري : من أنت ؟ قال أنا الحرث بن كلدة الثقفي . قال فما صناعتك ؟ قال الطب . قال أعرابي أنت ؟ قال نعم من صميمها وبحبوحة دارها . قال فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها وضعف عقولها وسوء أغذيتها ؟ قال : أيها الملك اذا كانت هذه صفتها كانت أحوج الى من يصلح جهلها ، ويقيم عوجها ، ويسوي أبدانها ، ويعدل أمشاجها ، فان العاقل يعرف ذلك من نفسه . قال كسري فكيف تعرف ما يورده عليها ولو عرفت الحلم لم تنسب الي الجهل . قال : الطفل يناغى فيداوى والحية ترقى فتحاوى . فأعجب كسرى بكلامه وقال : فما الذي تحمد من أخلاقها ، ويعجبك من مذاهبها وسجاياها ؟ قال الحرث : أيها الملك لها أنفس سخية ، وقلوب جرية ، ولغة فصيحة ، وألسن بليغة ، وأنساب صحيحة ، وأحساب شريفة ، يمرق من أفواههم الكلام مروق السهم من نبعة الرامي ، أعذب من هواء الربيع وألين من سلسبيل المعين ، مطعموا الطعام في الجدب ، وضاربوا الهام في الحرب ، لا يرام عزهم ، ولا يضام جارهم ، ولا يستباح حريمهم ، ولا يذل كريمهم ، ولا يقرون بفضل للانام الا الملك الهمام ، الذي لا يقاس به أحد ، ولا يوازيه سوقة ولا ملك . فأجله كسرى غاية الاجلال وأجلسه في حضرته وسأله عن طبه وتطبيبه فأجابه بما يتلخص في الوصية التي بهذه المقامة . وأني أرجح أخذ اليازجي وصيته منها

وهي حافلة بالطلبة ، وقد قام في صدرها شيخ طويل الأرنبة ، عظيم المرتبة ، فقال : الحمد لله الذي شرف علم الأبدان ، حتى قدم على علم الأديان . اما بعد فان هذا العلم أفضل علوم الدنيا جميعاً ، لانه أشرفها موضوعا ، وهو أدقها نظرا ، وأجلها خطرا ، وأقدمها وضعاً ، وأعظمها نفعا ، وأغمضها سريرة ، وأوسعها حظيرة ، وهو يستطلع الخبايا ، ويستوضح الخفايا ، حتى قيل انه وحي قد هبط على الأطباء ، كما هبط الوحي على الانبياء وصاحب هذه الصناعة ، أروج الناس بضاعة ، وأربحهم تجارة ، وأشهاهم زيارة ، وأكسبهم أجرة وأجراً ، وأنفذهم نهياً وأمرا ، وعليه مدار الأعمال والمهن ، وقيام الفروض والسنن ، فان كل ذلك لا يتم الا بصحة البدن ، وطالما كان هذا الفن أعزمن جبهة الاسد ، حتى اغتاله الجهلاء فأوثقوا جيده بحبل من مسد ، فواهاً له كيف ثُل عرشه ، وآها لعليلهم كيف قُل نعشه ، قال : وكان في الحضرة فتى باهر اللطافة ، ظاهر القضافة ، فقال : يامولاي أني قد منيت بجهل المتطببين الرعاع ، الذين لا يعرفون الصافن من حبل الذراع ، (١) فلعلك توصيني بما يكون غنية اللبيب عند غيبة الطبيب ، فأطرق هنيهة للتروية ، وهب في التوصية فقال : يابنيّ لا تجلس على الطعام الا وأنت جائع ، وقم وأنت بعد دون الشبع قانع ، وباكر في الغداء ، ولا تماسّ في العشاء ، والزم الرياضة على الخلاء ، واجتنبها عند الإمتلاء ، ولا تُدخل طعاما على طعام ، ولا تشرب بعد المنام ، ولا تكثر من الالوان ، على الخوان ، ولا تعجل في المضغ والازدراد ، واجتنب كل مالم ينضج وما بات من الطعام فهو مجلبة الفساد ، واذا أمكنتك الوجبة ، (٢) فهي أفضل نخبة ، واقطع العادة المضره ، مرة بعد مرة ، وعليك بتنقية الفضول ، في معتدلات الفصول ، واذا مرضت فقابل

(١) المتطبب هو المحترف الطب بغير علم ولا يستطيع أن يفرق بين الصافن الذي هو عرق في الرجل وبين حبل الذراع الذي هو عرق في اليد . (٢) الأكلة الواحدة في النهار

السبب ، واحرص على القوة فإنها الى الحياة سبب ، وبالغ في الدواء ، ماشمرت بالداء ، ودعه متى وثقت بالشفاء ، واذا استغنيت بالمفردات ، فلا تعدل الى المركبات ، واذا اكتفيت بالأغذية ، فلا تتجاوز الى الأدوية ، واذا تعاظم العرض ، فاشتغل به عن المرض ، واعتمد الحمية الواقية ، مادامت العلة باقية ، واحذر دواعي النكس ، فانه شر من العلة بالأمس ، واعلم ان التجربة خطر ، فكن منها على حذر ، والعلاج بين استفراغ الحاصل ، وقطع الواصل ، والصحة تحفظ بالشبه وتسترد بالنقيض ، والحمية للصحيح كالتخليط للمريض ، واستعمال الدواء حيث لا يحتاج ، كتركه عند حاجة العلاج ، ألمضر اليسير ، خير من النافع الكثير ، وكل ماعسر قضمه ، شق هضمه ، ومن كثرت تخمه ، تفاقم سقمه ، وأكثر الأوصاب ، يكون من الطعام أو الشراب ، فاحفظ عني هذه المواعظ ، واحتفظ بها والله الحافظ . قال فلما فرغ من كلامه الموضون ، برز شيخنا الميمون ، وقال: اني لأراك من أهل الفضل والفصل ، وأرباب العقل والنقل ، ولقد عثرت على مسائل ، في كتب الأوائل ، فهل تأذن بدفع الظنة ، ولك المنة ؟ قال حبذا ، فقل إذا . قال : ماهو الدشبذ ،(١) وكم هي الدلائل التي تؤخذ ،(٢) وماهو أعدل الاعضاء ،(٣) بالنسبة الى بقية الأجزاء ؟ فأخذ الاستاذ في تقليب رأيه ، حتى أفرط في لأيه ، ثم قال: ان الانسان موضع النسيان ، فهل من مسائل أخرى ، لعلي أصادف بها الذكرى ، قال قد رميتك بالفصيح فاستعجم ، فهل تفرق من صوت الغراب وتفترس الأسد المشيم ، هيهات

(١) هو المادة الغضروفية التي تنبت على طرف العظم ليلتحم بها (٢) الدلائل ثلاثة . المذكر وهي التي تذكر الطبيب بما مضى من الاعراض فيستدل به على سبب المرض وكميته . والحاضرة وهي التي تدل على حقيقة المرض الحاصل . والمنذرة وهي التي تدل على ماسيحدث

(٣) أعدل الاعضاء مزاجا بالنسبة الى غيره من أجزء البدن جلدة طرف السبابة .

ان العلم بتحقيق القضايا ، لا بتنميق الوصايا . فغلب على الرجل الوجوم ، ولعبت بالقوم الرجوم ، حتى قالوا للشيخ : مثلك من يستحق الامامة ، فهل لك عندنا إقامة ؟ قال قد علمتم ان النقلة ثقلة ، ولا سيما مع تطارح الشقة ، وتطاوح المشقة ، فان خففتم عني بالامداد ، أتيتكم كورى الزناد . فنفحوه بعدة من الدنانير ، وقالوا استعن بالله والله على كل شيء قدير . قال سهيل : فلما فصلنا عن المكان أخذ الشيخ مجلسا مكتوما ثم برز فناولني طرسا مختوما ، (١) وقال : اذا أصبحت فألقه الى القوم ، ولا تثريب عليك ولا لوم ، فأجبته الى ماطلب ، واذا به قد كتب

أنا ذاك الطبيب وإن طبّي * لنفسي لا لزيد أو لعمرو
وما عالجت سقم الناس يوما * ولكنّي أعالج سقم دهري
اذا ما مسني ضنك فعندي * جوارش حيلة وشراب مكر

فلما وقفوا على أبياته ، تعوذوا بالله من آفاته ، وقالوا ان لم يكن طبيبا ، فكفى به لبيبا ، فهل لك أن ترده علينا لظرفه ، ان لم يكن لعرفه ، قلت ذاك مما لا يقرب ، فانه أجول من قطرب ، (٢) ورجعت الى موعدنا أمس ، فوجدت انه قد أفل قبل الشمس

المقامة اليمنية

حكى سهيل بن عباد قال : لفظتني احداث الزمن ، (٣) الى مشارف اليمن ، فخلتها أنكر من شيء ، وأنقل من فيء ، لا أعرف بها جليسا ، ولا أجد لي أنيسا ، فلما مللت الاقامة فيها ، هممت بالرحيل عن فيافيها ، فرأيت رجلا في الرجال ، يطالب

(١) صحيفة (٢) دويبة لا تمل الليل تجوالا (٣) طرحتني

شيخاً بمال ، والشيخ يتبرأ من طلبه ، مالم يحكم الشرع به ، فتنافذا (١) الى القاضي بسببه ، قال : وكنت قد تبينت أن الشيخ صاحبنا ميمون ، فابتهجت كأني أوتيت مال قارون ، وتبعته الى دار القضاء لأنظر ماذا يكون . فلما دخلا على القاضي نظر الى رثاثة بُرديه ، فلم يحفل بالرد عليه ، فأخذت الشيخ الحمية ، حمية الجاهلية ، وقال: أراك قد ارتكبت الخلق المنهيّ عنها ، فقد قال الكتاب : اذا حُيّيتم بتحية فحَيُّوا باحسن منها ، فان كنت تعتبر الخلوق دون الاخلاق ، (٢) فهناك مدارج الخز في الأسواق ، وإلا فانظر الى الألباب ، دون الجلباب ، فإن المرء بأصغريه (٣) ، لا بثوبيه ، قال: فخجل القاضي واعتذر اليه ، وقد عظم في عينيه ، وقال: هل للشيخ دعوى ترفع ، قال: لا بل لصاحبنا دعوى لا تسمع ، فاشار القاضي الى الرجل ، وقال: تقدم فقل . فقال: يامولاي تطعم العبد الكراع فيطمع في الذراع ، إن هذا الشيخ قد استأجرني ناقة مهرية ، (٤) في الديار المصرية ، وقال اذا بلغنا اليمن لا أسلمك الزمام ، حتى أسلمك الأجرة عن تمام ، فرخصت له في النسيئة ، (٥) وغفلت عن الخبيئة ، فلما بلغنا موطىء القدم ، اذا هو أضبط من عائشة بن عُثم ، (٦) فأمسك المطية ، فضلاً عن العطية . فقال القاضي : ماتقول أيها الشيخ في دعواه ؟ فضحك حتى استلقى على قفاه ، وقال: قد جعلت تسليم الاجرة موعداً لتسليم الزمام ، فأنا لا أسلمه الأجرة والسلام . فعجب القاضي لافتتانه ، وأعجب بسحر بيانه ، وخاف من ظُبة لسانه . فقال للرجل نجعلها بين بين ، خذ العين واترك الدين ، فويل أهون من ويلين ، فقال اذا لم يكن غير هذا عند المولى ، فالرضى به أولى . ولما خرج الرجل لشانه ، أشار القاضي الى بعض

(١) ذهبا (٢) الثياب (٣) قلبه ولسانه وهو مثل (٤) نسبة الى رجل من العرب اسمه مهرة بن حيدان (٥) تأخير دفع الاجرة (٦) هو رجل من العرب كان أخوه ينزح بئرا واذا بكر من الابل قد اقتحم البئر فاكان أسرع من أن أخذ عائشة بذنبه وضبطه عن الهبوط ثم انتشله فضرب به المثل

غلمانه، وقال له شيع الشيخ الى بحبوحة الربع، وخذ منه دينار المنع . فقال الشيخ: أراك أيها الإمام، قد جهلت زادك مخ النعام، (١) ولقد بلونك لأرى هل تحكم بالقسط بين الناس، فوجدتك تميل الى حيث ترجو غالة الكاس، أو تجهل إخراج القضايا على مقتضى القياس، فلأهجونك بما لم يهج به قاض من قبل، ولأشكونك الى من يؤدبك بالعزل، أو تشترى عرضك مني ولى عليك الفضل . فندم القاضي على قضائه الخاسر، وقال هذا جزاء مجيرام عامر، (٢) ثم أقبل على الشيخ وقال: قد فرضت في مالي من الزكاة نصابا، فخذه وسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا . قال: فلما قبض الشيخ الذهب، نهض وقال لي يارجب، خذ من القاضي دينار الأدب، فقال القاضي: اني بحكمك راض، فاقض ما أنت قاض، فتلقفت الدينار وخرجنا للحين، والقاضي يقول: ان الله لا يضيع أجر المصلحين . ولما فصلنا عن المكان، دعوت الشيخ الى منزلي بالخان، فقال ان نفسي لا تطيب بمقام، حتى افتقد الناقة والغلام، فقلت وماذاك يا حمة العقرب؟ (٣) فضحك حتى استغرب، (٤) وقال: أما الناقة فركوبتي التي جرت على أجرتها المخاصمة، وأما الغلام فخصمي الذي رأيته في المحاكمة، فقلت وماذا حملك على أن تحبط عملك؟ قال: وصلت الى هذه البلاد، وقد خلت وفضتي من الزاد، فتوصلت الى القاضي بسبب لعلمي انه أطغى من فرعون ذي الأوتاد، وأبخل من كلاب بني زياد، ورصدت له حتى طلب دينار القضاء، فكان عليه أشأم من رغيف الحولاء . (٥) فقلت له لله درك ما أطول باعك، وأهول قاعك . قال من ليس يؤخذ بالبنان، فخذه بالسنان . ثم

(١) هو مثل للممتنع وجوده (٢) كنية الضبع (٣) شوكتها التي تلدغ بها

(٤) بالغ في الضحك (٥) هي امرأة من العرب قيل أن رجلا خطف رغيفاً عن رأسها فشاجرته واتسع بينهما الخصام حتى اتصل بأحلافهما فقتل فيه ألف رجل

انساب بي الى منزله كالحباب ، واذا غلامه الذي كان يخاصمه بالباب ، فأشار اليه وأنشد

هذا غلاميَ الذي خاصمته * اني لمثل ذلك استخدمته
حتى اذا الصيد أتى قاسمته * بما كسوته وما أطعمته
وان تمادى الدهر بي علمته * ماقد أذعته وما كتمته
وهو مقام ولدي أقمته * فان ذخرت عنه أو أحرمته
عاقبني الله فقد ظلمته

قال فعجبت من أفانينه في المكر ، وأساليبه في النظم والنثر ، وعدلت اذذاك عن الرحيل الى المقام ، حتى أراد الشخوص الى الشام ، فانطلق الى دار الحرب ، وانطلقت الى دار السلام

المقامة الشامية

أخبر سهيل بن عباد قال: دخلت يوما على صاحب لي بالشام ، أعوده من داء البرسام ، (١) فجلست بازائه ، وأنا أستخبره عن دائه ، وبينما هو يبث شكواه ، ويتأوّه لبلواه ، اذ قيل قد جاء الطبيب ، فقلت قطعت جهيزةُ قولَ كل خطيب ، ونظرت فاذا رجل قد أقبل يجر ذيل طيلسانه ، ويقرع أديم الأرض بصولجانه ، حتى دخل فسلم ، ثم جلس معرضا ولم يتكلم ، فتوسمته واذا هو شيخنا ابن خزام ، فاحتفزت (٢) للقيام ، وأردت أن أستأنف السلام ، فاومض اليّ بجفنيه ، (٣) واستوقفني عن التسليم عليه . فقال له المريض يامولاي أرى ان صدري قد ضاق ، وتواتر عليّ الفُواق ، (٤) فقال ذكر الاستاذ بقراط ، ان ذلك يدل على نضج الأخلاط ، وقد

(١) داء يعتري الصدر (٢) تهيأت (٣) أشار (٤) ريح يتردد في الصدر

وصف له الامام ابن عاتكة ، أن يسقى شراب الملائكة ،(١) لكنه لا يشترى الا بمائة درهم ، فان بذلتها نجوت من البلاء الادهم ، فدفعها اليه وقال حبا وكرامة ، إن ظفرت بالسلامة . قال وكان أهل المريض قد استضعفوا رجاء الشفاء ، و رأوا طبيبهم كالكاتب على صفحات الماء ، فاستحضروا بعض نُطُس الاطباء ، و وافق تلك الساعة وفده عليه ، فدخل وهو يتهادى بين بُرديه ، ثم جلس والشيخ يصوّب طرفه و يُصعّده اليه . فقال إن شئت أن تتحفنا بمعرفتك ، فذلك من عارفتك . قال أنا من أطباء جزيرة العرب ، كنت قد انتصبت للتدريس حتى انقطع الطلب ، فاعتزلت عن مزاولة العلاج واصطناع الادوية ، وخرجت أتفقد العقاقير في الجبال والاودية . فعظم الشيخ في عين الطبيب ، وأراد أن يسبر غوره ليرى أيخطئ ظنه أم يصيب . فقال يامولاى إنى رجل من المتطببين ، وقد عثرت على مسائل أنا منها بين الشك واليقين . قال على الخبير بها سقطت ، فسل عما التقطت ، فان وجدت لذلك عبرة ، أعطيتك الجواب صبرة ، (٢) قال كيف يتركب السرسام (٣) مع البرسام ، وماهى مقادير الاخلاط بالنسبة الى بعضها في الاجسام ، (٤) وماهو المراد عند الاول ، قسمة الطب الى علم وعمل ، وماهى الكيفية المنفعلة والكيفية الفاعلة ،(٥) وماهى الاسباب السابقة والبادية والواصلة ؟(٦) فقال الله أكبر إن الحديث ذو شجون ، وان لك أجراً غير ممنون ، لقد ذكرتنى مائة من المسائل ، جمعتها فى بعض الرسائل ، وهى مما

(١) ليس لابن عاتكة ولا لهذا الشراب أصل فى فن الطب أو الاطباء غير أنه أتى بهما ترويجا لحيلته في الحصول على بغيته (٢) جملة واحدة (٣) ورم الرأس

(٤) أما الابدان المعتدله فيكون فيها البلغم سدس الدم والصفراء سدس البلغم والسوداء ثلاثة أرباع الصفراء وأما غير المعتدلة فتختلف باختلاف الامزجة المتغلبة فيها (٥) المنفعلة: الرطوبة واليبوسة . والفاعلة الحرارة والبرودة (٦) السابقة كالطعام والشراب ونحوه . والبادية كالضربة والسقطة . والواصلة هى التي تكون سبباً لوجود المرض ولا يزول الا بزوالها كالحميات ونحوها

يشكل على الالباء، وتناقش به فحول الاطباء ، فان شئت جعلنا الساعة موعداً ، وأتيناك بها غداً ، قال ذاك اليك ، فنهض وقال السلام عليك . وخرج وهو قد اعتضد الصولجان ، وانساب انسياب الافعوان . قال سهيل فابتدرت الخروج على الاثر ، قبل أن يتوارى عن النظر ، فأدركته عن أمد يسير ، وهو ينشد كحادي البعير

الحمد لله وللفرار * فقد نجوت من فضوح العار
أفلت من جرادة العيار * مالى وللنضال والحوار
ماأنا بالرازى ولاالبخارى * وليس لى فى الطب من اسفار (١)
أدرسها فى الليل والنهار * وسائل مماحك مهزار
يسألنى عن غامض الاسرار * جعلت مثل الخادع الفرار
موعده الساعة فوق النار * فقل له صبراً على انتظارى

قال فما استتم الانشاد ، حتى وقفت له بالمرصاد ، وقلت عهدتك بالامس خطيباً ، فمتى صرت طبيباً ، فقال: البس لكل حالة لبوسها ، إما نعيمها و إما بوسها . دخلت ياابن أخى هذا البلد ، وأنا غريب لا سبدلى ولا لبد ، (٢) فرأيت الاديب عند أمته ، أهون من قُعيس على عمته ، (٣) فلما رأيتهم معارج لا ترتقى ، وأراقم لا تقبل الرقى ، جردت المبضع والمشراط ، وسأستغفر الله لى ولهم إذا وقفنا على الصراط . قال و بينما نحن كذلك إذ صاحت الصوائح ، وعلا ضجيج النوائح . فقلت له قاتلك الله ماأقتلك ، وأحبط علمك وعملك ، قد كنت أهون من قعيس ، فصرت أشأم من

---

(١) أما الرازى فهو محمد بن زكريا صاحب كتاب الحاوى فى الطب . وأما البخارى فالمراد به أبو على بن سينا صاحب القانون والشفاء (٢) السبد الشعر واللبد الصوف (٣) رجل من الكوفة زار عمته فى الشتاء وكان بيتها ضيقاً فأدخلت كلبها الى البيت وتركت قعيساً خارجه فمات من البرد

طويس،[١] لو رمى الله بك أصحاب الفيل، أغنيت عن الطير الأبابيل . فنظر الى شذرا، وأنشد يقول شعرا

لاخير في الناس دعني * افتك بهم يافلان
فليس فيهم رجاء * وليس منهم أمان
ياليت ألف طبيب * مثلي يسوق الزمان
فكلما قصر العيش * يقصر العصيان
تخف عنهم عذاب الا * أخرى وقل الهوان

ثم قال هذه معذرتي فان شئت القبول، وإلا فدع عنك الفضول، وإذا فارقتني فقل ماشئت أن تقول . ثم ولى يهرول، والنائحات تولول، وهو يقول لوقدرت أن ادفع الموت لبقيت إلى الابد، ولوشفى الطبيب كل مريض لم يمت أحد . فرجعت أقول هاهنا كل العجب، لا بين جمادى ورجب

نبذ من شعره

« غزل الصبي »

اتظن هذا الخال فوق المبسم * الا عبيدا حارسا در الفم ؟
وتظن هذا الدر دراً حوله * ماء كماء البحر مثل العلقم ؟

(١) كان من مخنثي المدينة مغنياً ظريفاً ينقر بالدف عارفاً بأمر المدينة وأنساب أهلها . ولذا كان متقى للسانه ، سئل عن مولده فقال ولدت يوم قبض الرسول وفطمت يوم مات أبو بكر وبلغت الحلم يوم اغتيل عمر وزوجت يوم قتل عثمان وولدلي يوم قتل علي وكانت امي تمشي بالنميمة بين نساء الانصار . فلهذا ضرب به المثل في الشؤم

لا والذي خلق المياه فما به * الارْضاب كوثريُّ المطعم
وأجله عن أن أقول بأنه * شهد جنته النحل لا يروي الظمي
نقل الرواية طيب منطقه وما * ذقنا وكان الورد أبرد مغنم
ألوي عليّ فضمني وضممته * وصدورنا بصدورنا لم تعلم
اهوى عليه وفيّ عفة يوسف * حتى يميل وفيه عفة مريم
فيروح بين صبابتي وحنينه * وأروح بين حديثه وتبسمي
خضنا مليًّا في الحديث كما جرى * وكأننا للشوق ثم نتكلم
حتى رجعت كما رجعت وأخمصي * متأخر في نية المتقدم
ياليلة سمح الزمان ببعضها * بعض السماح وليته لم يندم
قد كنت أرجو مثلها فبلغته * والحادثات تقول طرفك فاسلم
حتى دخلت الدار ساعة غفلة * وعرفت ربع الدار بعد توهمي
فكأن كل الدهر مدة لحظة * وكأن كل الارض دارة درهم

سعيد باشا

قفا بين الثنية والمصلى * على جبل دنا حتى تدلى
وان أبصرتما نارا فقولا * ترى أيّ القلوب عليك يصلى
من العرب الكرام كماة حرب * تناظرهم كرائم لسن عزلا
اذا ما أرهفوا نصلا لقتل * فهن أشد بالاجفان قتلا
رجال ينحرون البذل جودا * وغيد تنحر العشاق بخلا
ترى نار القرى في الحي تعلو * ونيران الهوى أعلى وأغلى

على ذاك الكثيب لنا سلام * يكاثر في الكثيب الفرد رملا
كثيب قام فيه رشيق عطف * نشبهه بغصن البان جهلا
رشا في الحي تغزل مقلتاه * ترى من علم الغزلان غزلا
اذا اتحفت عينيه بكحل * يقول أراك تهدي الكَحل كُحلا
رويدك أيها الجاني بطرف * فكم جنت الليالي السود قبلا

لقد جمعت به النيلين مصر * ولكن أشرف النيلين أحلى
هما النيلان من ذهب وماء * قد اجتمعا فليس تخاف محلا
يمين علاء الآفاق جودا * وقلب علاء الاقطار عدلا

عزاء

لاتبك ميتا ولا تفرح بمولود * فالميت للدود والمولود للدود[1]

---

(١) وهي قصيدة عزى بها الشيخ أحمد فارس عن وفاة بعض أنسبائه . ولمطلع هذه القصيدة نادرة لطيفة نوردها هنا على سبيل الفكاهة : لما قدم الشيخ خليل اليازجي مصر كان فيمن لقيه من أهل الفضل الاديب المرحوم الشيخ محمد النجار المصري صاحب جريدة الارغول فجرت بينهما محاورة أدبية انتهى فيها الكلام الى ذكر الشعر والشعراء فقال الشيخ النجار للشيخ خليل : أظن أن والدك أشعر السوريين ؟ فقال الشيخ خليل : نعم . فقال وأظن ان أحسن شعره قصيدته « الدودية » ؟ فدهش الشيخ خليل وقال وايش هي القصيدة الدودية ؟ فقال : التي مطلعها .

لا تبك ميتاً ولا تفرح بمولود * فالميت للدود والمولود للدود

فقال : نعم انها خير ماقيل في العزاء . فقال النجار واذا سلمنا للقائلين بأن خير القصائد مطالعها كان هذا البيت خير شعر السوريين كافة فاسمع مافيه من العيوب أما الشطر الاول فمسروق من قول الشاعر

ان دام هذا ولم تحدث له غير * لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

وأما الشطر الثاني « أدبك شانفه ينفل »

وكل مافوق وجه الارض تنظره * يطوى على عدم فى ثوب موجود
بئس الحياة حياة لارجاء لها * ما بين تصويب أنفاس وتصعيد
لا تستقر بها عين على سنة * الا على خوف نوم غير محدود
ما أجهل المرء فى الدنيا وأغفله * ولا نحاشى سليمان بن داود
يرى و يعلم ما فيها على ثقة * منه و يغترمنها بالمواعيد
كل يفارقها صفر اليدين بلا * زاد فما الفرق بين البخل والجود
يضن بالمال محمودا يثاب به * طوعا و يعطيه كرها غير محمود
هان المعاد فما نفس به شغلت * عن ربة العود أوعن رنة العود
يا أعين الغيد تسبينا لواحظها * قفى انظرى كيف تسبى أعين الغيد
يبدو الهلال و يأتى العيد فى أنق * ماذا الهلال وماذا بهجة العيد
يوم لغيرك ترجوه وليس له * كل ليوم غداة البين مشهود
قد صغر الدهر عندى كل ذى خطر * حتى استوى كل مرحوم ومحسود
إذا فجعت بمفقود صبرت له * انى سأترك مفجوعا بمفقود
يامن له منه أهل لا جزعت على * أهل وهل لك ركن غير مهدود
لسنا نعزيك اجلالا وتكرمة * فانت أدرى ببرهان وتقليد
لكل داء دواء يستطب به * وليس للحزن الا صبر مجهود
والصبر كالصدر رحبا عند صاحبه * فان صبرك مثل البيد فى البيد
لله أية عين غير باكية * ترى وأى فؤاد غير مفؤود
ان كان لا بد مما قد بليت به * هان البلى بين موعود ومنقود
حاشاك من خطة للقوم باطلة * منها الاسى لفوات غير مردود
فالحلم فى القلب مثل السور فى بلد * والعلم فى العقل مثل الطوق فى الجيد

عروس الزهر

هذه عروس الزّهر نقطها الندى * بالدر فابتسمت ونادت معبدا
لما تفتق سِترُها عن رأسها * عبث الحياءُ بخدها فتوردا
فتح البنفسج مقلة مكحولة * غمز الهزار بها فقام وغردا
وتبرجت وُرق الحمام بطوقها * لما رأين التاج يعلو الهدهُدا
بلغ الازاهر ان ورد جنانها * ملكُ الزُّهور فقابلته سجدا
فرنا الشقيق بأعين محمرة * غضبا وأبدى منه قلبا أسودا
بسط الغدير الماء حتى مسه * برد النسائم قارصا فتجعدا
ورأى النباتُ على جوانب أرضه * مهدا رطيبا لينا فتوسدا
يا صاحبيّ تعجبا للابس * قدحاكها من لم يمد لها يدا
كل الثياب يحول لون صباغها * وصباغ هذه حين طال تجددا

الغرائز

تناقض الرأى بين الناس والعملُ * والكل يرضى بما فيه ويقتبلُ
ان كان ذلك مقبولا برُمته * فليس بين الورى عيب ولا زلل
الناس فى الارض كالأشجار قام بها * حلو ومر ومعوج ومعتدل
وكل صنف له وقت يراد به * فلا يصح له من غيره بدل
من كان فى الناس مولوداً على صفة * فليس للناس فى تغييرها أمل
اذا تمكن خلق السوء من رجل * كما اذا استحكمت فى جسمه العلل

لا يستطيع بخيل ان يجود ولو * حوى من المال ما لا تحمل الابل
وكلما رمت تشديد الجبان على * شجاعة زاد فيه الجبن والفشل
ان الكريم الذي لا مال في يده * مثل الشجاع الذي في كفه شلل
والمال مثل الحصى ما دام في يدنا * فليس ينفع الا حين ينتقل
ان الذي قسم الأخلاق قد قسم ال * أرزاق تجرى الى ان يقسم الاجل
يا رب قوم سعوا بالجهل فانتصروا * ورب قوم سعوا بالعقل فانخذلوا

وصف أبيات

أخذتْ نحوي سبيلا * فسقتني سلسبيلا
بنت فكر من خليل * قد شفت مني غليلا
ذقت منها منّ لفظ * كان بالسلوى كفيلا
ومعانٍ كنسيم ال * روض إذ هب أصيلا
هيّجت عندي شجونا * سكنت دهراً طويلا
وبنتْ للشوق عندي * أربعا كانت طلولا

رقة الهوى

أجارتنا هل للنسيم وصول * إليك فلي منه الغداة رسول
مضى وأراه لم يعد فلعله * قضى نحبه إذ راح وهو عليل
تمنعت بين الشوس والبيض والقنا * وكل بمنع الطارقين كفيل
وما كان يجدي لو برزت من الحمى * وأنت على عهد النفار جفول

أيادارها بالواديين قريبة * نراك ولكن ما اليك سبيل
لئن عمرت منك البيوت فانما * لديك قلوب العاشقين طلول
لنا فيك خود تحسد السمر عطفها * فيبدو على اعطافهن ذبول
عزيزة قوم حبها قد أذلني * نعم كل من يهوى الجمال ذليل
أقامت عبيد الخال فى الخد حارسا * على الورد أن يسطو عليه جهول
وأحرزت الدرياق فى الثغر اذ رأت * أفاعى ذاك الشعر وهى تجول
تذكرت مالم أنس من وقفة لنا * خلال الثنايا حين جد رحيل
بكت فاستهل الكحل فى صحن خدها * فحاكى صدى الصمصام وهو صقيل
تقول نساء الحى إلى خليلها * كذبن فما للغانيات خليل
لئن كان بعد البين قد حال عهدها * فعهد الهوى فى القلب ليس يحول

اسر الصبابة

تقول لقلبى ربة الأعين النجل * أفق لا تقف بين الصوارم والنبل
قد استعبدته عينها وهى عبدة * فيا ويل عبد العبد ذل على ذل
فتاة يغار العقد من حسن جيدها * وتضحك عجبا مقلتاها على الكحل
بكيت وقد أرخت سدول قناعها * فقلت جرت هذى السحابة بالوبل
مهفهفة الأعطاف تخطر كالقنا * بمعتدل لا شيء فيه من العدل
تكاد لهضم الكشح تجعل عقدها * نطاقا كما يستبدل المثل بالمثل
أسالت على ورد الخدود ذؤابة * لخوف ذبول قد تلقته بالظل
وخطت لخوف العين بالوشم رقية * على معصميها كالفرند على النصل

يلومونني أن أحمل الذل في الهوى * كأنهموا لم ينظروا عاشقا قبلي
الى الله أشكو جور فاتنتي التي * لئن رضيت قلبي فقد زدتها عقلي

لهفة القلب

لمن الهوادج في عراء الهوجل * تحت القباب تشق ذيل القسطل
يتتبع الآثار قلبي خلفها * فلو انثنين وطئنه بالأرجل
أبراج أقمار تغيب نهارها * فيها وتطلع في الظلام المقبل
حملنني مالو تحمل بعضه * حمر النياق لما نهضن بمحمل
لي ذات خدر بينهن أنالها * وأود لو رضيت فقالت أنت لي
قامت تصول من الرماح بأبيض * ومن السيوف بأسود لم يصقل
ولقد أقول لمن أقام بمرصد * ما كان ضرك لو أقمت بمعزل

مراتع الظبا

أعرفت رسم الدار أم لم تعرف * بين العقيق وبين دارة رفرف
دار عهدناها مراتع للظبا * فغدت مسارح للضواري الخطف
خطت صفائحها الرياح فنقطت * أيدي السحائب ُغفل تلك الأحرف
فترى الرسوم تلوح حول خطوطها * مثل الجداول حول خط المصحف
ولقد وقفت على المنازل وقفة * نصبت لعيني هول يوم الموقف
ناديتها كالمستجير واتما * ماذا يفيد نداء قاع صفصف

يا أيها الركب الذين تحملوا * هل كان يثقلكم فؤادي المدنف
تبع الركاب فما استطاع لحاقها * وبغى الرجوع فلم يجد من مصرف

غزل المشيب

خطرت وفي قلبي لذاك خفوق * ورنت فكل الصاحبين رشيق
هيفاء مال بصبها سكر الهوى * لما تمايل عطفها الممشوق
قامت تدير لنا الرحيق وليتها * طلبت مجانسة فدار الريق
وشدت فأطربت الجماد وهيجت * حتى علمنا كيف يُحْيِي البوق
ناظرتها فسكرت من لحظاتها * وشربت خمرتها فكيف أفيق
ورأيت رقة خصرها فوهبتها * قلبي فان كليهما لرقيق
غيداء آنسة تفور عندها * يحيا الرجاء ويقتل التوفيق
كالآل يطمع لامعا متقربا * ولمن آتاه زفرة وشهيق
قالت وقد غازلتها متصببا * ليس الصبابة بالمشيب تليق
هيهات ما كبرا مشيبي انما * هذا الدلال الى المشيب يسوق
اني امرؤ طرب على غزل المهى * وعلى مناظرة الحسان مشوق
حجت الى قلبي العيون فانه * بيت ولكن لا أقول عتيق
يا ربة الحسن العزيز لك الحشا * مصر غلا فسطا عليه حريق
نعمان خدك في الرياض ومدمعي * هذا لها خال وذاك شقيق
دمعي حديث لا يزال مسلسلا * أبدا وقلبي بالغرام خليق

فكتوريا العظمى

اليوم قامت فتاة الملك بارزة * وقام من قبلها أسلافها الأُول
فرع الأُصول التي مرت وبهجتها * ان الثمار من الأغصان تبتذل
يستحسن الملك فيها والخضوع لها * وليس يحسن فيها الجبن والبخل
باهى الرجالُ نساءَ الدهر وافتخروا * حتى أتت فاصاب المدعي الخجل
اذا صفا الملك نور الشمس في فلك * فما الذى تفرق الجوزاء والحمل
بقية من ملوك الدهر قد ذُخرت * وأفضل الشيء مايخبى فيعتزل
في قلبها خاتم التقوى وفي يدها * من خاتم الملك مايجرى به المثل
تدبر الأمر في أقطار مملكة * كأن أطرافها القصوى لها حلل
في كل نجد لها غور تمهده * وكل سهل به من خوفها جبل
قد أدبت كل نفس في جوانبها * حتى تأدب فيها الصقر والوعل
تلوى الرياح مثاني الرمل عاصفة * حتى تصيب أراضيها فتعتدل
قد التقى الدين والدنيا بساحتها * كما التقى الكُحل في الاجفان والكَحل
في ظلها للورى من كل طارقة * أمن وفي قلبها من ربها وجل
اذا انثنى صولجان الملك في يدها * تحطمت منه بيض الهند والاسل
تصمى بأهدافها الرامي ولو رشقت * بأسهم الشهب عن قوس الهوى ثُعل
لها من الرأي جيش تحت رايته * جيش به تأمر الدنيا فتمتثل
يظل في البحر من أطباقه لجج * تعلو وفي البر من أخفاقه زجل
اذا سقى القوم كاسا من وقائعه * كفاهم النهل ان يستأنف العلل

أفدي التي لبست من مجد دولتها * تاجاً فهان عليها الحلي والحلل
صان القريض عن الدعوى تفردها * بين الكرائم حتى ليس يُنتحل
قد هاج الاعليها الخُلف ُغارقة * فيه الملوك ولم يلحق بها بلل
كالشمس بين بدور لا يلم بها * نقص البدور ولا يغتالها الطفل
قريرة العين ترعى الملك ساهرة * على العباد فنامت حولها المقل
لمشكل الرأي في أجفانها قمر * يدنو ولو أنه في بعده زحل

القد والغصن

ولما تثنى وهو ريان معطف * يميل على سفح العقيق ويخطر
تذكرت أغصان الرياض يهزها * نسيم الصبا والشبه بالشبه يذكر

طعام البخيل

قد قال قوم ان خبزك حامض * والبعض أثبت بالحلاوة حكمه
كذب الجميع بزعمهم في طعمه * من ذاقه يوما ليعرف طعمه

تعزية صديق

أجمل الله في فؤادك صبرا * وجزى منة وأعظم أجرا
وسقى ترب من فقدت سحابا * لا دموعا فذاك أندى وأطرى
ان أمرا دهاك أعظم أمر * من تلقاه لا يعظم أمرا

غيران المريض يرجو دواءً * فاذا لم ينله فالصبر أحرى
إن حقا على الطبيعة أن تحزن * والعقل بالنتيجة أدرى
لو يفيد البكاء والنوح شيئاً * لا أقامت خنساء قبلك صخرا
كل من فى الوجود وهم فلانر * حم زيداً ولا نغبّط عمرا
يطمع المرء فى الحياة طويلا * وهو فى الموت أوعن الموت فترا
وحياة الدنيا تسمى حياة * مثلما تحسب المجرة نهرا
هكذا الناس عاثرا أثر كاب * كل عين بدمعة العين تَشكرى
رب باك لضربة صادفتنى * وهو قدشك ان تفاجيه أخرى
طالما عالج الزمان رجال * فابتلاهم بأحرف ليس تُقرا
حيلة تركها سبيل اليها * وسقام برفضها الطب يبرا

رثاء الحبيب

وهو آخر شعر قاله فى حياته يرثى به ولده حبيبا

ذهب الحبيب فياحشاشة ذوبى * أسفا عليه ويادموع أجيبى
ربيته للبين حتى جاءه * فى جنح ليل خاطفا كالذيب
يا أيها الأم الحزينة أجملى * صبرا فان الصبر خير طبيب
لا تخلعى ثوب الحداد ولازمى * ندبا عليه يليق بالمحبوب
هذا هو الغصن الرطيب أصابه * سهم القضاء فمال غير رطيب
من للكتابة والحسابة بعده * ولصحة التدبير والتدريب

لاأستحي ان قلت قل نظيره * بين الرجال فلست غير مصيب
والمرء يطلق في الكلام لسانه * ان كان لايخشى من التكذيب
أني وقفت على جوانب قبره * اسقي ثراه بمدمعي المصبوب
ولقد كتبت له على صفحاته * يالوعتي من ذلك المكتوب :
لك ياضريح كرامة ومحبة * عندي لأنك قد حويت حبيبي

رفاعه رافع بك

ترجمته

هو العلامة العامل الكبير السيد رفاعه بك رفع ابن السيد بدوى يتصل نسبه بالامام الحسين بن على كرم الله وجهه . ولد فى بلدة طهطامن صعيد مصر سنة (١٢٠٦ هـ ١٨٠١ م) من أسرة شريفة الاصل أصابها عنت الدهر فنشأ فى أحضان الفاقة، ولما توفى والده كفله أخواله، وهم أهل بيت متصل النسب بالانصار الخزرجية ، ولبث فى كفالتهم الى أن شب وترعرع فقدم القاهرة وانتظم فى سلك الطلبة بالازهر الشريف فقرأ العلوم العقلية والنقلية على أكابر علمائه ولازم من بينهم الشيخ حسن العطار وتخرج عليه ، ولما آنس العطار فيه الذكاء أعجب به و رفع أمره الى عزيز مصر محمد على باشا فجعله اماما لاول بعثة علمية أرسلها الى أوربا لتلقى العلوم والمعارف بمدارسها، فسافر معها الى باريس سنة (١٢٤١ هـ ١٨٢٥ م) وما كاد يلقى بها عصاه حتى عكف على دراسة اللغة الافرنسية وأخذ يتصور أساليبها ، و يتفهم معانيها وتراكيبها ، الى أن برع فيها براعة ظهرت آثارها المحمودة فيما نقله عنها من نفائس الكتب وذخائر الاسفار . ولما أحرز منها نصيباً وافرا راسل أفاضل الفرنسيس وكتابهم وصحب علماء المشرقيات منهم، كالبارون دى ساسى الشهير ، والمسيوجوبار الرحالة المعروف ، وكان لهما عليه فضل التعهد والارشاد . وكان مولعا بمطالعة الجرائد وصحف الاخبار ميالا الى الترجمة فعرب فى مدة اقامته بباريس عدة كتب و رسائل لعل أفضلها كتاب قلائد المفاخر ،

و بعد أن نال أمنيته وحاز اجازته الدالة على نبوغه فى العلوم الحديثة وتفوقه فى فن الترجمة والتعريب قدم القاهرة سنة (١٢٤٧ ﻫ ١٨٣١ م) ومصباح الغرب باحدى يديه ، ومفتاح الشرق باليد الاخرى ، وحظى بلقاء العزيز محمد على فسر به وعهد اليه فى الترجمة بمدرسة الطب فى أبى زعبل ، ثم نقل منها الى مدرسة الطوبجية بطره ، وفى أثناء ذلك عاضد الشيخ حسن العطار على إنشاء جريدة عربية هى « الوقائع المصرية » فسعيا لدى الجناب العالى سعيا مشكورا الى أن حصلا منه على الاذن والمساعدة فكانت أول جريدة عربية ظهرت تحت سماء الشرق سنة (١٢٤٨ ﻫ ، ١٨٣٢ م)

وفى سنة (١٢٥١ ﻫ ، ١٨٣٥ م) أنشئت مدرسة الترجمة التى سميت فيما بعد مدرسة الالسن وعهد اليه فى إدارتها كما أحيلت عليه مدارس أخرى مع تفتيش مكاتب الاقاليم فخرج نشأ حديثين نفعوا البلاد وبثوا فى أرجائها روح الحياة بنشر العلوم والآداب . ومازال مثابرا على التعليم فى مدارس القطر وترجمة الكتب النافعة مترقيا فى مراتب الحكومة السنية الى أن ألغيت مدرسة الالسن سنة (١٢٦٥ ﻫ ، ١٨٤٩ م) فى عهد عباس الاول ونفى الى السودان باسم رغبة الحكومة فى إنشاء مدرسة بالخرطوم فلبث هناك يعانى مضض العيش ، وغصص النوى ، الى أن تولى سعيد باشا فاستقدمه وولاه بعض المناصب ولما ألغيت كل هذه المدارس سنة (١٢٧٧ ﻫ) أعيد الى نظارة قلم الترجمة وعين عضوا فى قومسيون المدارس ثم تولى ادارة تحرير جريدة « روضة المدارس » ولم تعقه شواغله ومناصبه على كثرتها عن ترجمة الكتب وتصنيف المؤلفات ونشر جلائل الآثار التى ظل مثابرا عليها الى أن انتقل الى جوار ربه سنة (١٢٩٠ ﻫ ١٨٧٣) ودفن فى بستان العلماء من قرافة المجاورين رحمه الله وأثابه

مُمَيِّزَاتُهُ

منحة من منح صاحب مصر — محمد على باشا الكبير — على مصر، ويد من أياديه الغر على لغة العرب، وحياة الادب، فلولا محمد على ما عرف الناس من أمر رفاعة بك الا أنه ذلك المجاور المنزوى بين أساطين الازهر، ولولا رفاعة بك ماعادت مصر الى سالف عهدها، وسابق مجدها، وصارت كعبة العلماء، ومهبط الكتاب والشعراء، ومافاءت اللغة العربية الى عصرها الاول، عصر رقوها فى حال العلوم والآداب. فهو بما نقله اليها من نفائس الكتب، وأعلاق الأسفار، قد شيد بنيانها، ودعم أركانها. وهو وان كان قد ضرب فى فنون العلوم والآداب بكل سهم نافذ الا أنه اختص من ذلك بفن التاريخ وتحقيقاته، وتمييز صحاحه من معتلاته، بحيث كان فيه الحجة التى لا تدفع، والدليل الذى لا يرد. أما الانشاء فقد كان فيه بحيث لا ينظر فى أى قالب من التعبير جاء معناه، وفى النظم ظاهر الإجهاد بين المعاناه، ومع هذا فقد خرّج رجالا اقتحموا جزور البيان، واقتحموا ميادين البلاغة والتبيان، فكانوا كالأنجم الزُّهر، فى سماء ذلك العصر

مُؤَلَّفَاتُهُ

قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر — كتاب جليل يدل عنوانه على موضوعه ترجمه وهو فى باريس وهذا الكتاب هو من أنفع الكتب وأمتعها ، طبع ونشر غير أنه قليل الوجود

تخليص الابريز الى تلخيص باريز — كتاب وصف فيه رحلته الى فرنسا وذكر ماشاهده بها من آثار التمدن وما وقف عليه من عادات القوم وأخلاقهم وآدابهم . قيل انه حاز إعجاب العزيز محمد على باشا لدرجة أمر معها أن يتلى فى قصوره ثم أمر بطبعه وتوزيعه على الدواوين و بين حاشيته وأعيان بلاده . طبع غير مرة وتداولته الايدى

التعريبات الشافية لمريد الجغرافية — كتاب ترجمه عن الافرنسية لتلاميذ المدارس طبع مراراً فى مجلد ضخم

جغرافية ملطبرون — كتاب جليل فى الجغرافية والتاريخ ترجمه وهو بطهطا هارباً من الطاعون ، يقال أنه ترجم من أصل هذا الكتاب أربعة مجلدات فقط طبعت فى مطبعة بولاق لم أطلع منها على غير مجلدين فى قطع كبير . وقد وعد حفيده السيد محمد بك رفاعه باعادة طبعه مع كتاب آخر اسمه مونتسكيو من مترجماته أيضاً فمساه يبر بوعده

بداية القدماء وهداية الحكماء — كتاب فى التاريخ القديم أكثره مترجم و به تفصيل وافٍ عن حروب الطرواد ووقائع اليونان التى نظم هوميروس الياذته المشهورة فيها

مواقع الافلاك فى أخبار تليماك — قصة مشهورة ترجمها وهو فى الخرطوم طبعت ونشرت مراراً

مباهج الالباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية — كتاب حوى ضروبا من الآداب . وصنوفا من السياسات ، وفنون الصناعات ، طبع أخيراً

أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل — كتاب من أجل الكتب وأمتعها فصل فيه أخبار من ملك مصر من الاسر والملوك منذ مُصِّرت الى قدوم عمرو بن العاص وأصحابه اليها فاتحين . ويتلو ذلك فصل ضاف فى أخبار العرب وأطوارهم . وضعه فى عهد ممدن مصر الخديوى اسماعيل وجعله تقدمة لولى عهده المرحوم توفيق باشا الخديوى السابق . وهو مطبوع قليل الوجود

نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز — كتاب كريم وضعه فى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وجعله جزءاً ثانياً للكتاب السابق . طبع فى روضة المدارس وهو آخر ما ألف . قليل الوجود

وله غير ما تقدم كتب كثيرة ما بين مطبوع ومخطوط . كما أحيا كثيراً من الكتب الجليلة بالطبع ، مثل خزانة الادب للبغدادى ، ومقامات الحريرى ، وغيرها . ويقال أنه ترجم بنفسه وباشرافه ما يربو على السمائة كتاب

آثار أقلامه

نخب من نثره

مميزات العرب

العرب كلها ترجع الى قحطان وعدنان فيقال لسائر قحطان اليمن ، ولسائر عدنان المضرية والنزارية وهي قيس ، ويقال قيسي ويماني ، كما يقال سعد وحرام ، وكل من قحطان وعدنان كلهم متحدون في النسب متحدون في الطبائع والعوائد على اختلاف طبقاتهم الست التي هي الشعوب والقبائل والعمائر والبطون والأفخاذ والفصائل ، فالشعب أكبر من القبيلة ، كربيعة ومضر والاوس والخزرج ، والقبيلة ككنانة ، والعمارة كقريش ، والبطن كقصي ، والفخذ كهاشم ، والفصيلة كبني العباس . وأول صفة من صفات العرب المحمودة وهي الشهامة في الحرص على ما يوجب الذكر الجميل من العظائم ، والثناء الحسن من المكارم ، وهذه الصفة كعلو الهمة والحمية والنجدة من أركان الشجاعة التي هي صفة جامعة لذلك ، فكانوا يحبون المحامد والفخر وبعد الصيت بما يعدونه عندهم من الفعل الجميل ، كانتصارهم على الاعداء وكسب الغنائم . فكانت النصرة عندهم تقوم مقام الحقوق المدنية فيما يترتب عليها من المزايا . . . . كما يحكى أن بعض العرب وقف على قبر عامر بن الطفيل العامري فقال يرثيه :

أنعم ظلاما أبا علي ، فلقد كنت تشن الغارة ، وتحمي الجارة ، سريعاً الى المولى

المولى بوعدك ، بطيئا عنه بوعيدك ، وكنت لا تضل حتى يضل النجم ، ولا تهاب حتى يهاب السيف ، ولا تعطش حتى يعطش البعير ، وكنت خير ما تكون حين لا تظن نفس بنفس خيرا . فقد مدحه بأحسن ما يوصف به عربى ، فكأن بقاء ذكر الانسان بعد الموت بمنزلة الحياة . قال بعضهم

فأثنوا علينا لا أبا لابيكم * بأفعالنا إن الثناء هو الخلد

وقال آخر

فان يك أفنته الليالى فأوشكت * فان له ذكراً سيفنى اللياليا

ومن صفاتهم النجدة التى هى عدم الجزع عند المخاوف فكانوا منها على مكانة عالية وكانت أحلامهم تحمل أجسامهم ما لا يطاق سواء فى ذلك الشخص والقبيلة كما قيل فى الاول

أكر على الكتيبة لا أبالى * أفيها كان حتفى أم سواها
ولى نفس تتوق الى المعالى * ستتلف أو أبلغها مناها

غيره

كنت المقدم غير لابس جنة * بالسيف تضرب معلما أبطالها
وعلمت أن النفس تلقى حتفها * ما كان خالقها اليك قضى لها

غيره

فان يك قيدى كان نذرا نذرته * فمالى عن أحساب قومى من شغل
أنا الضامن الراعى عليهم وانما * يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى

وقيل فى الثانى

وكنى تستقل بحمل سيفى * وبى ممن يهضمنى امتناع

وحولى من بنى قحطان شيب * وشبان الى الهيجا سراع
إذا فزعوا فأمرهم جميع * وان لانوا فأيدهم شعاع

وقوله

لا يبعدن قومى الذين همُ * سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك * والطيبين معاقد الأزر

الى أن قال :

ومن صفات العرب أيضاً كرم النفس ،ومكارم الاخلاق، وكان يحملهم على الإنتصار لمن استنصر بهم و إجارة من استجار، كما يحملهم على صدق الوعد،و وفاء العهد، يستوى فى ذلك منهم الوثنىُّ والكتابىُّ حتى بقى فيهم الى الإسلام ،الى غير ذلك مما فاضت به الكتب فى صفات العرب ، وقال :

وقد بقيت هذه النخوة الفخارية فى العرب الى الإسلام بل والى الأزمان الأخيرة عند نسل العرب الملتزمين ،فمن ذلك ما ينسب لبعض عظماء أولاد عائد بالدوير بصعيد مصر وهو قوله

إذا ما ركبنا ظهور الجياد * فمن ذا لفرساننا يقهر
ومهما أمرنا لكل البلاد * فكلٌّ مطيعٌ لما نأمر
ونحن الملوك أهيل السداد * ونحن لأصدافهم جوهر
ومن يبتغينا ينال المراد * ويرجع طلقاً ويستبشر
نخل سوانا وصفُّ الفؤاد * ترى من عطانا الذى يبهر

وفن الواو قام عند عرب الصعيد مقام الشعر عند سلفهم فلهم فيه الملكة الجيدة مع لحنه الذى يحلو به

نبذ من شعره

اطلعت على كثير من القصائد التي نظمها رفاعه بك فيما عنّ له من الأغراض والمطالب فلم أجد له من بينها ما يستحق نشره في هذا العصر أو الإتيان به كشاهد على منزلة الشعر في أيامه كما هو المقصود من بعض ما جئنا به لأمير ليكون مثالا لتدرج الشعر في معارج الكمال حتى بلغ منزلته التي صار اليها لهذا العهد من الإجادة والإحسان . ولقد والله أحسن وصف نفسه حيث قال

وما نظم القريض برأس مالي * ولا سندي اليه ولا سنادي

غير أنني رأيت له البيتين الآتيين فآثرتهما بالإثبات هنا على ما فيهما من التعبير العامي في قوله « نزاهة طرفي »

خمر العيون

قد قلت لما بدا والكاس في يده * وجوهر الخمر فيه شبه خديه

حسبي نزاهة طرفي في محاسنه * ونشوتي من معاني سحر عينيه

أبو الثناء الشهاب الألوسى

ترجمته

هو عالم العراق الكبير والكاتب النحرير السيد محمود شهاب الدين أبو الثناء الآلوسى البغدادى ابن السيد عبد الله أفندى ينمى نسبه إلى الامام الحسين بن على كرم الله وجهه . ولد فى ١٤ شعبان سنة (١٢١٧ هـ ١٨٠٢ م) بالكرخ من بغداد فى بيت عز عريق ومجد صميم . أخذ مبادىء العلوم عن والده ، ولما بلغ العاشرة من عمره أسلمه والده الى شيوخ علماء العراق ومدرسيه فقرأ عليهم واستجازهم فى علوم اللغة والدين والآداب والفقه وغيرها من المعقول والمنقول وكانت خاتمة إجازته على يد شيخه العلامة الشيخ علاء الدين الموصلى فى يوم مشهود . ثم أخذ فى الشرح والتعليق ، وأكب على القراطيس تأليفا وتصنيفا ، وتصدر للتدريس وهو فى الحادية والعشرين من سنى حياته . ولما اجتاحت سادة الكرخ جائحة الطاعون قضى والده فيمن قضى منهم « فلبس الزمن له جلد النمر ، وجعل يكر عليه ويفر ، وجرت لها أمور منها السماء تمور ، ووقعت مواد تشيب لذكرها لمم المداد » فاضطر إلى ترك سُكنى داره بالكرخ وسكن بجوار الباز الاشهب

وفى شهر رمضان سنة ١٢٥٠ هـ دعى للوعظ فى جامع الحضرة الغوثية فأجاب مُكرها واتفق ان حضر درسه وسمع وعظه، المشير على رضا باشا والى بغداد فعلقت

به نفسه ودعاه الى زيارته ، والاختصاص بصحبته ، فلبى دعوته ، ولزمه ماشاءت أوقاته ، وفى أثناء ذلك شرح كتابا دعاه « البرهان فى أطاعة السلطان » وقدمه الى الوالى فأجازه عليه بنظارة « وقف مرجان » وجلب له رتبة « تدريس الاستانة » من الحضرة السلطانية . ثم عين مفتيا للحنفية ، وأخذ فى كتابة تفسيره روح المعانى فى أوقات الفراغ ، وإجازة الطلاب ، فى العلوم والاداب ، وخرّج فريقا من أهل الفضل فذاع صيته ونما فضله ، فقصد رحابه طلاب العوارف ، ووفد عليه رواد المعارف ، وراسله الكتاب والبلغاء ، ومدحه الادباء والشعراء ، فكان يفيض على سائليه ما نالته يده من الذهب ، وما بلغ إليه علمه من الفضل والادب . واتفق أن نقل رضا باشا الى ولاية دمشق وعين بدله بولاية بغداد محمد نجيب باشا فأساء معاملة المترجم له بوشاية أعدائه وسعاية حاسديه فعزل عن منصب الافتاء وانقطع لاتمام التفسير ، ثم رُفع عن نظارة « وقف مرجان » فأسبلت عليه سجف الاحزان ، وقطع العوز نياط قلبه ، فصار عُشيئة أثاثه وفُوبرة كتبه ، حتى كاد يأكل الحصير ، ويشرب عليه مداد التفسير » وما كانت هذه الاساءات لتشفى صدر الوالى تولى الله حسابه من غله على صاحب الترجمة ، بل ما برح يصب على رأسه جام نقمه حتى ألجأه الى ركوب الأخطار ، واقتحام الأسفار ، فرارا من ظلمه ، وهربا من عسفه ، وقد كان أتم تفسيره فاصطحبه وسيلة الى بلوغ مرامه لدى جلالة السلطان

ففى سنة (١٢٦٢ ﻫ ١٨٤٥ م) شد رحاله الى الاستانة العلية صحبة المشير عبد الكريم باشا النادر ، ومصطفى بك الربعى ، وسليمان بك أفندى* . وقد كان فى صحبتهم أيضا النوّاب اقبال الدولة أحد ملوك الهند وعظمائها ، كان قد اتخذ العراق له سكنا وكان

(*) هو والد المرحوم الصدر محمود شوكت باشا مزلزل عرش عبد الحميد والمقتول فى دم ناظم باشا البريء منه براءة الذئب من دم ابن يعقوب . وقد كان والده هذا من أكابر كتاب الترك وشعرائهم

ذا ثروة طائلة وجاه عريض . فمر المترجم له في طريقه بآمد ، فالموصل ، فماردين ، فديار بكر ، فارضروم ، فسيواس ، فسامسون ، وقد كان موضع اعجاب علماء هاتيك الديار وكثيراً ماجرت بينه وبينهم مباحث ومطارحات ، ومسائل ومجادلات . ولما انتهى به السير الى دار الخلافة التقى بشيخ الاسلام احمد عارف حكمت بك وعرض عليه تفسيره وما جاء من أجله فأنكر منه ما رآه من انصراف نفسه عنه ، لما كان قد سبقه اليه من وشايات المبغضين ، ثم مالبث أن زال هذا العارض وحل القبول محله ودارت بينهما مباحث ومناقشات علمية وأدبية دلت على توسعهما في علوم الدين والآداب وأجاز كلٌ صاحبه فيما علم من منقول ومعقول ، ومن ثم كثرت أصدقاؤه من رجال الدولة ووزرائها ، وصار موضع اجلال صدورها وأمرائها ، وبعد نزوله دار الضيافة السلطانية أُمر بتقديم مذكرة عن حاله ومايرجوه الى الصدر الاعظم ، وكان اذ ذاك مصطفى رشيد باشا فكتبها وألحق بها ورقة فيها :

قصدت من الزوراء صدراً معظما * وقد سامني ضر وقد ساءني دهر
فقلت لنفسي والرجاء موفر * « لنا الصدر دون العالمين أو القبر »

فحازت اعجاب الصدر الاعظم ، وبعد لأيٍ ما صدرت ارادة السلطان عبد المجيد باعطائه مبلغ ٢٥٠٠٠ قرشا وله مثلها في كل عام ، وبالانعام عليه بالوسام المرصع

ثم آب الى وطنه حسن الحال ، ناعم البال ، فانكب على التأليف ، وانقطع للتصنيف ، ووفد عليه ذوو الحاج من الناس ، وفصّل فيما صنف رحلته هذه في عدة كتب . وما زال بيته مثابة للناس وأمنا الى أن دعاه ربه فلباه في يوم السبت ٢٥ ذي القعدة سنة (١٢٧٠ ﻫ و ١٨٥٤ م) رحمه الله ، فرثاه الشعراء وابنه الادباء ودفن بجوار والده قريبا من ضريح سيدي معروف الكرخي تاركا وراءه ذرية صالحة وأنجالا كراما حفظوا مجد بيت الالوسي وفضله الى اليوم

مميزاته

لكل علم من العلوم، وفن من الاداب، أسلوب من الكتابة خاص به اذا حاد عنه الكاتب التوى عليه القصد، وزلت به القدم، ولم يكن من المجلين . وقليل هم الكتاب الذين يستطيعون أن يضربوا فى كل علم بسهمه، وينضحوا لكل فن عن قوسه، ويلتزموا بيانه بعبارته الخاصة به . ولقد رأيت أبا الثناء من أقدر كتاب عصره على تكييف مناحيه فيما قصد اليه من العلوم والآداب . فبينا تراه يكتب فى التفسير، بقلم الرازى وابن جرير، اذا به يقابل فى رحله بيراع ابن بطوطه، ويقيس بذراع ابن جبير، ويحسن فى الوصف والتعريف، احسان الموفق عبد اللطيف، أما صناعة الانشاء فقد كان يتطالع فيها وراء من تقدمه من ذوى المقامات البليغة، غير أنه كان على اضطلاعه بعلوم الدين الداعية الى التوقر والاحتشام، ميالا الى ما يشرح الصدر من عبارة لطيفة، أو فكاهة طريفة، مما أبان به عن رقة طبع، وحسن ذوق . ومع أن السجع كان ذا السلطان على أقلام الكاتبين، فى ذلك الحين، فقد كان يحاول أن يكون أقلهم فيه تكلفا، وأدناهم الى الانسجام . وقد قال الشعر الا انه ما كان فيه من المطبوعين

مُؤَلَّفَاتُهُ

روح المعانى — هو التفسير الكبير المعروف بين التفاسير، أفرغ فيه طائفة من كتب الفقه والاصول حتى وقع فى تسع مجلدات ضخام، وعلى هذا يكون أقرب فى النسبة الى هذه الكتب ومباحثها منه الى كتب التفسير، ومع هذا فقد ناكبها واشتهر من بينها شهرة عظيمة . وهو مطبوع فى بولاق ومعروف لدى أهل العلم

غرائب الاغتراب ونزهة الالباب — كتاب وضعه فى تفصيل رحلته الى الاستانة العلية وذكر فيه مَن لقيه من رجال العلم وأهل الادب ولاسيما شيخ الاسلام عارف حكمت وماجرى بينهما من المباحث العلمية . طبع حديثا فى بغداد

نشوة الشمول فى الذهاب الى اسلامبول . نشوة المدام فى العود الى دار السلام — كتابان وصف فيهما البلاد التى مر بها فى ذهابه الى الاستانة وايابه الى بغداد وذكر من لقيه أثناء ذلك من العلماء والادباء، ومادار بينه و بينهم من المجادلات والمحاورات . طبعا حديثا فى بغداد

كشف الطره عن الغره — هو شرح لدرة الغواص إعتمد فيه على شرحها للشهاب الخفاجى . وهو مطبوع فى دمشق ومنتشر

المقامات الخيالية — قيل انها طبعت فى كربلا . لم أرها

وله غير ذلك كتب ورسائل وشروح وفتاوى وتعليقات وحواش منها المطبوع المشهور، ومنها المطوى المدثور

آثار أقلامه

نخب من نثره

الاستانه العلية

ان المتقدمين من المؤرخين بالغوا في عظم هذه البلده ، وجاوزوا في الوصف حده ، كما بالغوا في شأن الزوراء ، في عصر الخلفاء ، وأنا أقول ، غير مبالغ بمقول ، إنها بلدة مؤنقة الأرجاء ، رائقة الأنحاء ، ذات قصور تضيق عن قصورها واسعة الاذهان ، وتتجاذب الحسن هي وقصور الجنان ، وربة رياض أريضة ، وأهوية صحيحة مريضة ، قد تغنت أطيارها ، فتمايلت طرباً أشجارها ، وبكت أمطارها ، فتضاحكت أزهارها ، وطاب روح نسيمها ، فصح مزاج اقليمها . وليتك رأيت ما فيها من الرياض الأنيقة ، والأشجار المتهدلة الوريقة ، وقد ساقت اليها أرواح الجنائب ، زقاق خمر السحائب ، فسقت مروجها مدام الطل ، فنشا على أزهارها حباب كاللؤلؤ المنحل ، فلما رويت من الصهباء أشجارها ، رنحها مع النسمات المسكية خُمارها ، فدانت ولا تداني المحبين ، وتعانقت ولا تعانق العاشقين ، يلوح من خلالها شقيق ، كأنه جمرات من آثار حريق ، ويتخللها بهار يبهر ناظره ، فيرتاح اليه ناظره

وكأن النرجس الغض بها * أعين العين وما فيهن غمض

وجملة أمرها انها انموذج الجنة بلا مين ، فيها ما تشتهى الانفس وتلذ العين ، وكم فيها من حبر راقت حبره ، ومن امام توجت جباه الاسلام سيره ، آثار علومهم على صفحات الدهر مكتوبه ، وفضائلهم فى محاسن الدين والدنيا محسوبه ، والى كل قطر مجلوبه ، ولكل قلب محبوبه ، فما من متين علم وقديم رأى الا ومنهم مشرقه ، ومن بروجهم مطلعه ، ولا من معين فضل وقوى فهم الا وعندهم مغربه ، واليهم منزعه ، وما نشاؤه من كرم أخلاق بلا اختلاق الا وجدته فيهم ، ولا جلالة اعراق فى طيب اعراق الا اجتليته من معانيهم ، أطفالهم رجال ، وشبانهم أبطال ، ومشايخهم ابدال ، شواهد مناقبهم باهره ، ودلائل مجدهم ظاهره

فمَن حاتم فى جوده وابن مامـة * ومَن أحنف ان عد حلم ومَن سعد

وأما الثغر وما أدراك ما الثغر ، فذاك الذى تنشق من حلاوة لمى محاسن ثناياه مرارة الخمرة ، وقد ولع لسانه بالافتخار ، فجرى مطلق عنان الفخر فى كل مضمار ، وتلاسن البحران بلا مراء فالقم البحر الاسود حجرا بحر مرمرا ، واذا رأيت ثم رأيت نعيما ، وملكا مقيما ، وملكا عظيما ، فالقصور هناك لها الرفع عن القصور بسمه ، فوحسنها لقد غدت فلفلة الغيرة منها فى است قصور أرض السمسمه ، فان الفرق بين هذه وتلك جبال ، فهذه مما تلتذ به الحواس العشر وليس فى تلك حظ لسوى الخيال ، وقد غدت تسحل ذيول الفخر بأفصح لسان على ساحلى خليج يزرى بالمجره ، وتنقل لرائيها أحاديث غرف الجنان فتملأ اذ تملى الجنان بانواع المسره ، وانها على ما أضمرت من دقائق الحسن فى سرائرها ، ليرى ظاهرها من باطنها و باطنها من ظاهرها ، وقد غلت مقدارا ، وعلت منارا ، وشمخت بأنفها حتى ظن ان لها عند الشعرى العبور ثارا ، وقد اتصلت بها من وراثها جنان ، هى فوق ما تتخيله أذهان الامكان ، وان مبتدأ أمرها لينادى : ليس الخبر كالعيان ، وفى كل منها بركة مفعمة من الحسن ببركات ، ولها خد

كاللجين تحلى بعـذار من انعكاس النبات ، وحول كل بركة — وحياتك — روض نضر ، ومامن روض الا ويلتقي فيـه ماء الحياة والخضر ، وامتداد هاتيك القصور ست ساعات ، على ماحدثني به بعض الرواة الثقاة ، وأسود غابات اسلامبول ، وبدور بروجها التي ليس لها أفول ، ينتقلون اليها اذا بلغت الشمس نصف برج الثور ، ولهم اذا بلغت نصف برج العقرب رجوع بعد الاقامة وحور بعـد الكور ، وفى كلا الامرين قد يتقدمون وقد يتأخرون ، وربما تجد فيها قوما مقيمين فى الفصول الاربعة لا يرحلون ، وقد اتخذوها منزلا ، واستوطنوها ولم يبغوا عنها حولا ، وعرض الخليج هنالك نحو جسر الزوراء أربع مرات ، وانه يزيد على ذلك وينقص فى بعض الجهات ، والزوارق فيـه تزيد على اثنى عشر ألفا ، وهى مشحونة لطفا ، ومملوءة ظرفا ، وانها تحكي فيه الدعاميس ، كما أن زوارقه السلطانية تشبه الطواويس ، وفيه من السفن النارية عده ، قد اتخذت للعبور عده ، وهى من حيث البوائق ، آمن بكثير من الزوارق ، وفيـه من الحيتان اليونسية كثير ، ويتحرج من هنالك من أكلها كما يتحرج المسلم من أكل الخـنزير ، وربما يظنها الظان ، انها خنازير الحيتان ، وهى تتطارد جهاراً ، ليلا ونهاراً ، فماذا عسى تقول فى بلدة لا يزال يضحك ثغرها على جميع البلاد ، ولا يبرح فى العمارة أمرها كل يوم فى ازدياد ، ويوشك أن تكون جنة يقضى منها العجب ، لولا ما ابتليت به من الحريق وقمل الخشب ، ولكم نمت فيها من القمل على مثل الاسـنه ، واعترتني من محن الدهشة من حريقها أعظم محنـه ، وكلا الامرين فى الساحل قليـل ، وفى الارض قطع متجاورات كما نطق به التنزيل ، ثم انها لـكثرة الخلق فيها ، واختلاف صنوف أهاليها ، لا تخلو عن لو ألقى فى البحر المحيط لنجسه ، أو كان جزءاً من العدد الغير المتناهى لبخسه ، وفيها من النسوان مايخيـل انهن حور الجنان ، وكلامهن لو تجسـد لازرى بالدر ..... وفيهن من عادات

نساء الاعراب ، انهن يبرزن الى الازقة بمجرد نقاب ، الا انه ألطف من شمائلهن ، وادعى للصبوة بهن من تمايلهن ، فكأنه نسيم همّ أن يتجسد ، فعارضه توقد وجنة الخد ، وربما يقول ظمآن النظر اذا أتى منهل مياه خدودهن وورد ، الله أكبر كيف نسج الريح على الماء زرد ، وربما ينشد ، اذا ذاق نظره خمر خدها المتورد

رق الزجاج وراقت الخمر * فتشابها وتشاكل الامر
فكأنما خمر ولا قدح * وكأنما قدح ولا خمر

ومعظمهن حرائر ، وان لم يحتجبن عن النواظر ، فعدم الاحتجاب عادة قديمة في عُرُب الاعراب ، وهن اللواتي ولا شك في عفتهن ، ولله تعالى در من قال في صفتهن

هن الحرائر لا ربات أخمرة * سود المحاجر لا يقرأن في السور

وقد حققت ان منهن من لا تخرج من بيتها حتى الى الحمام ، ولا يحوم عليها طائر نظر أهل الازقة الى أن تصير وكراً لحمَام الحِمام ، نعم لا يخلو غيل من واوى ، وأي بلد عريض طويل ليس فيه كلب عاوى ، فالمعول عليه في رداءة البلدة وفضلها ، انما هو عند المنصف حال غالب أهلها ، وحال أغلب أهل هذه البلدة في الحسن لا يطال ، وسيان في ذلك على ما علمت النساء والرجال

قوم ذكوا نفسا وطابوا مخبرا * وتدفقوا جودا وراقوا منظرا

فانعم بذلك المغنى ، فقد جمع الفضل حسا ومعنى

حمامات سمسون

ذهبت لازالة الدرن الى الحمام فرأيت دلاكيه ظباء الا انها أوانس ، وغواني غير

انهـا لا تزيد لامس ، لم أرمثلهم فى حمامات دار الخـلافة ، مع ان دلا كيها قد ارتدوا بالحسن واتزروا بالظرافة ، فهوى أحدهم الىّ وأخذ بيده بيمنى يدىّ

فسرت أسرت طوتيه فغورت * فى الخصر منه وأنجدت فى نجده

فاقشعرت جلدتى ، وأعظمت ذلك ديانتى وغيرتى ، وجعلت أسال الله تعالى العصمة ، وأصعد النظر وأصوبه فى تصحيح تحريم النظر الى المرد ، كما يحكى عن بعض الأئمة ، مع أنه والحمـد لله تعالى لا يزدهينى حسن أمرد ، ولا يستميلنى بمايله قوام أملد ، قد حبب لى نحو ما حبب لجدى رسول الله ، النساء والطيب ، وجعلت قرة فى الصلاة ، فلذا ترانى كثيرا ما أترحم على الشاعر الامجد ، عصيرنا الشيخ صالح التميمى حيث أنشد

سلوا عن مذهب الولدان غيرى * وعن دين العذارى فاسـألونى

وأستظرف قول بعض الظرفاء من رجال سويداء الادباء

من قال بالمرد فانى امرؤ * الى النسا ميلى ذوات الجمـال
مافى سواد القلب الا النسا * ماحيلتى مافى السويدا رجال

لـكننى شاهدت ما كاد يحل والعياذ بالله تعالى عصام العصمة عما لم يحله دليل العقل والسمع ، وقد رأيت الجائين الى الحمام كلهم يكرمون الخادم على كيسه ، وهو قاتله الله تعالى يخطف العقول بابتسامه ولا يروع أحدا بتعبيسه ، وفى عينيه ذبول تعلق بالقلوب لهاذ بال ، ولعمرى انه يخيله وقد رشح عرقا من حب ، شجرة من فضة نقية حملها اللؤلؤ الرطب ، الى محاسن بلغت فى الحسن الثريا ، وشمائل تـكاد تنشق من حـلاوته مرارة الحيا ، يصحبها غنج ألفاظ ، أخلب للقلوب من غمزات الالحاظ ، وحركات أطراف اجلب للبلاء من لين اعطاف ، فهو من غير تطويل ، ممن يهدى الى الضلال ويضـل عن سواء السبيل ، فأين هـذا من الدلاكين فى حمامات العراق ، الذين تقطر لحاهم البيض

عرقاً أسود أنتن مما تمجه أفواههم من البصاق ، فما رؤية أولئك إلا سقام، وما دخول حمامهم فيه الا حمام ، ثم ان هذا الذي قلته انما هو بالنسبة الى اللذائذ النفسية ، والشهوات الطبيعية البشرية ، والا فالشريعة المحمدية والغيرة العربية تأبيان كون الدلاك امرد، يتمايل بذوائبه كالغصن اذا تأود ، جسده ألين مسا من الزبد ، و رضابه ولم أذقه ألذ مصا من الشهد ، مع أوصاف يمل القلم من خندريس حلاوتها ، و يتلجلج لسانه فلا يقدر الا ان ساعده البارى على تلاوتها ، وعبارات تلتقط بلا اذن السمع حبات القلوب ، واشارات تدخل على الصالح بلا رضى الطبع حيات الذنوب ، ام لم يحكم عقل ولا نقل بالاتفاق ، انه ينبغي ان يكون الدلاك كاكثر دلاكي العراق ، فالانصاف ان ذلك مما لا يتحمله البشر ، اللهم الا ان يكون طبعه الشريف قد قد من حجر، وكان وجه اختيار بعض الناس ذاك ، ان الكيس ربما لا يكون خشنا فتقوم مقامه لخشونتها كف الدلاك ، أو ربما لا يحضر عند الدلك بالصابون الليف ، فيقوم مقامه ذقن ذلك الدلاك الكثيف . . . . وتفصيل الكلام فيما يلزم داخل الحمام قد نظفه فى كتبهم من كل درن الفقهاء الاعلام ، فأتزر بمئزر ما يلزمك منه ، ولا أظنك فى غنى عنه

نبذ من شعره

الماء رسول الحب

ولم تزل العشاق تتخذ الهوا * رسولا بابلاغ السلام خليلا
وانى اتخذت الماء يبلغ جيرتى * إذا ما جرى عنى السلام جزيلا

وحملته من نار شوقي اليهم * ولاعج أشجان الفراق حمولا
فمن حملها يعيي النسيم لانه * يهب بهاتيك الطلول عليلا

حساد الفضلاء

واذا الفتى بلغ السماك بفضله * كانت كاعداد النجوم عداه
ورموه عن حسد بكل كريهة * لكنهم لا ينقصون علاه

الشوق الى الأوطان

أهيم بآثار العراق وذكره * وتغدو عيوني من مسرتها عبرى
وألثم اخفافا وطئن ترابه * وأكحل أجفانا بتربته العطرى
واسهر ارعى في الدياجي كواكبا * تمر اذا سارت على ساكني الزورا
وانشق ريح الشرق عند هبوبها * أداوي بها يا مي مهجتي الحرا

دواء الحب

لقد لامني الاحباب جهلا وعنفوا * غداة رأوا جسمي تقاسمه الضنى
وقالوا عقاقير لديك كثيرة * فهلا باحداهن داويت ذا العنا
فقلت وغير اللطف لم يبق من دوا * «بكل تداوينا فلم يشف ما بنا» (*)

(*) رأيت أديب اليسوعيين الفاضل الاب لويس شيخو محرر مجلة المشرق ينحل الآلوسي أبياتا هي
تتحير الشعراء ان سمعوا به * في حسن صنعته وفي تأليفه
فكأنه في قربه من فهمهم * ونكولهم في العجز عن ترصيفه
شجر بدا للعين حسن نباته * ونأى عن الايدي جنى مقطوفه
مع أن من له أقل اطلاع على كتب الادب يعلم أن هذه الابيات هي (للناشي) الشاعر المعروف وتمامها
واذا قرنت أبيه بمطيعه * وقرنته بغريبه وظريفه
ألفيت معناه يطابق لفظه * والنظم منه جليله بلطيفه

الشيخ احمد فارس

ترجمة

هو فارس بن يوسف بن منصور الملقب بالشدياق ولد بقرية عشقوت من أعمال لبنان سنة (١٢١٩هـ ١٨٠٤ م) من أسرة مجيدة من أسر سوريا المسيحية . ثم انتقل به والده الى الحدث بلبنان فنشأ فيها بادية عليه سيماء النجابة فأدخل المكتب فتعلم مبادئ القراءة والكتابة ، وشدا شيأ من النحو واللغة على أخيه أسعد ، ثم أخذ فى مطالعة ماوصل اليه من الكتب العربية فاستنارت قريحته ، وذكت طبيعته . ولما مات والده طلب العيش من نسخ الكتب تارة ، ومن الاتجار فى القرى تارة أخرى ، غير انه لم يكن ذا حظ فى الكسب من التجارة ، وكان على جانب من حسن الخط . فظل يعانى غصص الحياة الى أن تمت مصائبه بوفاة أخيه أسعد صبرا فى سجن أعدائه المارون لتركه نحلتهم وانتحاله المذهب الانجيلى . فجاهر فارس بسوء فعلتهم وأخذ يندد بهم فخشوا عضب لسانه ، فاقتفوا أثره طلبا للنكال به ، فالتجا الى المرسلين الامير كان فأجاروه و بعثوا به الى مصر ليعلم فى مدارسهم بها فجاء القاهرة فى عهد مصلح مصر الكبير محمد على باشا . ولما ألقى بها عصاه تعرف بالفاضل نصر الله الطرابلسى واتصلت صحبته بالشيخ محمد شهاب الدين محرر الوقائع المصرية فلازمه وقرأ عليه طائفة من كتب اللغة والادب مع شروحها وحواشيها فتخرج عليه أحسن تخريج ، ثم أفسح له فى صدر

الوقائع فكان ينشىء فيها الفصول الرائقة بأسلوب مستقل عما ألفه كتاب ذلك العصر، ثم سافر الى جزيرة مالطه (١٨٣٤) بدعوة الاميركان ليعلم فى مدارسهم فالتحق بها وأخذ يعلم و يصنف و يصحح ما يطبع فى مطبعتها من الكتب والمترجمات الى ان طلبته جمعية ترجمة التوراة فى لوندرة ليساعد فى تعريبها و يتعهدها بالضبط والتنقيح فشخص الى أوروبا (١٨٤٨) وأقام بها مدة تمكن أثناءها من درس أحوال الأمة الانكليزية والوقوف على طبائعها، ثم سافر الى باريس بعد ان حصل على حماية بريطانيا العظمى

وفى إبان وجوده فى باريس زارها باى تونس أحمد باشا و بسط يده لفقراء الفرنسيس ومعوذيهم بجزيل العطايا، ولما آب الى تونس بعث اليه صاحب الترجمة بقصيدة عربية حازت اعجاب الباى فأرسل يستقدمه وأمر باعداد باخرة حربية لحضوره عليها، فلما مثل بين يديه أكرم مثواه، وأفاض عليه سجال نعمه وعطاياه، ثم وقعت بينه و بين شيخ الاسلام بالديار التونسية مجادلات فى العقائد الدينية أدت الى اعتناقه الدين الحنيف ودعى نفسه «أحمد فارس» وتكنى «بأبى العباس» ولبث فى حاشية الباى الى أن شبت نار الحرب بين الدولة العلية والروسيا سنة (١٢٧٠ هـ ١٨٥٥ م) فنظم فيها قصيدة و بعث بها الى الباب العالى فنالت رضا السلطان عبد المجيد فأمر باستدعائه الى الاستانة فلما حضرها الحق بديوان الترجمة وعهد اليه بالتصحيح فى دار الطباعة العامرة

ولما كانت سنة (١٢٧٧ هـ ١٨٦٢ م) كان الخديو اسماعيل باشا رحمه الله فى الاستانة العلية فاستزاره وأثنى عليه وأعجب به وقال له ما معناه «أنى أجل العلم والفضل فى شخصك» ثم نفحه بـ ٥٠٠٠ من الجنيهات و يقال انه هو الذى أشار عليه بانشاء جريدة «الجوائب» فقام بانشائها خير قيام واشتركت الحكومة المصرية منها فى الف

نسخة . وفى سنة (١٨٨٦) وفد على مصر فى عهد عزيزها الخديو السابق توفيق باشا فنال من لدنه كل رعاية واكرام ، واجتمع به نفر من أفاضل الادباء وأرباب الصحف وغيرهم فبهرهم منه على شيخوخته وانحنائه تحت أثقال السنين واعباء الايام — حضور ذهنه وتوقد ذكائه ، وحلاوة سمره ، ورقة حاشيته ، ورشيق عبارته ، ثم آب الى الاستانة فتوفى بها سنة (١٨٨٧ م) وكان لموته دوىّ هائل رددت صداه صحف الاخبار فى الشرق والغرب ، ورثاه الكتاب والشعراء ، وأبنه العلماء والادباء ، ثم نقلت جثته عملا بوصيته الى سوريا حيث ووريت بسفح لبنان رحمه الله

مميزاته

اذا كان أحمد فارس سوريا فى مولده ومنشائه ومثوى رفاته ، فهو مصرىّ فى أدبه وفضله ، فى مجده ونبله ، فى شهرته ونباهته ، فى نبوغه وعبقريته ، فى ذوقه ورقته ، قد جمع الفضل من أطرافه ، وملك فى أكنافه ، همة السورى ومثابرته ، وذكاء المصرى وفطنته . إمام فى فهم دقائق اللغة العربية وفقه أسرارها ، واكتناه مرامى ألفاظها ، وأدراك معانيها بما لم يعرف فى أحد غيره اللهم الا أن يكون الجاحظ ومن ناصاه فى مذهبه . سمرت منذ أعوام وجماعة من الادباء ليلة من ليالى الدهر ، وفيهم أديب العصر حفنى بك ناصف فذكرت الشيخ أحمد فارس مثنيا على علمه وأدبه ، مفضلا إياه على صاحب القاموس . فقال أديبنا الكبير : لكنه لا يستطيع أن يجيب سائله ارتجالا كما أجاب الفيروزابادى من سأله عن كلام للامام على . ولم يرو لنا

شيئاً من السؤال أو الجواب . ولما وقفت على عبارة الامام على ، و إجابة المجد عليها ،[١] رأيت كلاماً يشبه في فعله بالاذهان حجر المُهَلَّبيّ في رءوس الخوارج ،[٢] فضلا عن أنه خال من فائدة تصلح عقلا ، أو تقوم لسانا ، أو ترهف بيانا ، كما لا يدل على فضل أو يشير الى تفوق ، فما شككت في أنه من الكلام المدخول على الامام على كرم الله وجهه وهو ما هو صاحب البلاغة التي تكاد تكون وحيا معجزا ، لنصاعة ألفاظه ، وشرف ديباجته ، وسمو معانيه ، على أننا لم نجرب صاحب « سر الليال » في مثل ذلك حتى نحكم عليه بالعجز عن الاتيان بمثل هذه الالفاظ النابية التي رواها صاحب القاموس عن نفسه مدلا بها على غيره لحضور بديهته واستظهاره للغة . كما ان الفيروزابادى لم يعرف الا بقاموسه ، وكم عرف صاحب « الجاسوس » بغير كتاب . نعم قد اعترف صاحب « الساق على الساق » في بعض كتبه بفضل المجد عليه بما أفاده من كتابه . الا أنه قد فاقه علما وتحقيقا بما حصّله مما لم يبلغ المجد علمه . وكم فات الاول ، ما لم يفت الآخر . وهو أول من طرق أبواب معجمات اللغة العربية من المتأخرين واستتاركوا منها وجرد نفسه لنقدها ومناقشة أصحابها الحساب على ما هو موافيه من

(١) روى صاحب القاموس عن نفسه قال : كنت ببلاد الروم فسئلت عن معني قول الامام على كرم الله وجهه لكاتبه « ألصق روانفك بالجبوب ، وخذ المزبر بشناترك ، واجعل حندورتيك الى قيهلي ، حتي لا أنغي نغية الا وعيتها في حماطة جلجلانك » فأجبت على الفور بقولي « الزق عضرطك بالصلة ، وخذ المسطر بأباخسك ، واجعل جحمتيك الي أثعباني ، حتى لا أنبس نبسة الا وعيتها في لمظة رباطك » قلت وتعريب ذلك : اقعد أيها الكاتب متمكنا ، وخذ القلم بأناملك ، واصغ لما سأمليه عليك ، وعه في سويداء فؤادك ، حتي لا يفلت منه حرف

(٢) في يوم من ايام الخوارج حدث رجل من موالى المهلب قال : لقد صرعت يومئذ بحجر واحد ثلاثة ، رميت به رجلا فأصبت أصل أذنه فصرعته ، ثم أخذت الحجر فضربت به آخر على هامته فصرعته ، ثم صرعت به ثالثا . وقال رجل من الخوارج

أتانا بأحجار ليقتلنا بها ☆ وهل تقتل الابطال ويحك بالحجر

كلماتها، وما وقع لهم من الاغلاط في معانيها ومشتقات ألفاظها، بما لم يعهد في سواه من الانصاف والحرية وبعد النظر، حتى كان ذلك سببا لقيام أنصار القديم عليه، وانشاء الصحف لمدافعته، وتصنيف الكتب لتجريحه. وأما الكتابة فله فيها آيات التجديد، ومعجزات الابتكار، وكان اميالا فيها الى السهولة وسلامة التعبير، منطبعا على الرقة في الفاظه، والدقة في معانيه، والبصر بمواقع الكلم، صعب مراس المناظرة، اذا عن له أمر أحاط باطرافه تبيانا وافصاحا حتى لا يكاد يرى له فيه ثلم أو يلمح له ثغر ينفذ اليه منه. وأما شعره فليس فيه ما في نثره من جمال الإنطباع، وحسن الإختراع، غير أنه كان اذا رام قصدا تناوله غثا وسمينا، يسرك هزله، ولا يروعك جده. فهو في جبهة الطبقة الاولى من كتاب وقته، وفي صدر الثانية من شعراء عصره

مُؤَلَّفَاتُهُ

الواسطة في أحوال مالطه — كتاب وصف فيه هذه الجزيرة وصفا شاملا لم يغادر شيئاً فيها الا أحصاه. وأبان فيه عن أن أصل لغة أهلها العربية شيبت بلهجات الفاتحين ولحون الطارئين

كشف المخبا عن فنون أوربا — فصل فيه سياحته في بلاد الانجليز ومروره بكثير من القرى والبلدان الاوربية، فوصف عادات الانكليز وآدابهم وأخلاقهم واسرار تقدمهم وتاريخ تمدنهم باسلوب عذب، ومنهج سهل. وهو وسابقه مطبوعان معا ومتداولان

الساق على الساق فى ماهو الفارياق* — كتاب من أجل الكتب وأمتعها ، جمع بشر اللهو الى عبوس الجد . وضعه فى طالعة أمر دومستهل نشاته ، فوصف فيه أحواله الخاصة بحركاته وسكناته ، وماعاناه فى عراك أيامه ، وذياد لياليه ، سبكه فى قالب المقامات ، أوعلى شكل الروايات ، غيران اكثره مرسل ، صاغه بلباقة فأدقه وأجله ، وأغرب فيه وأطرب ، وذهب فى ابداعه كل مذهب ، لم يتبع فيه سابقا ، ولن يبلغ شاوه فيه لاحق . طبع فى باريس سنة ١٨٥٥ وهو الآن فى حكم المعدوم

سر الليال فى القلب والابدال — كتاب لغوى جليل يدل اسمه على موضوعه ، لم يطبع منه غير جزئه الاول وهو معروف متداول

الجاسوس على القاموس — كتاب ممتع حافل بالفوائد اللغوية وضعه لاستدراك مافات المجد فى قاموسه ورد ماوهم فيه من الالفاظ الى أصولها . وهو مطبوع متداول

منتهى العجب فى خصائص لغة العرب — كتاب كان قد وضعه فى أسرار اللغة وخصائص الحروف ومدلولاتها بما لم يسبق اليه . ذهب فريسة النار التى أصابت منزله بالاستانة ، ولوسلم منها وطبع لجاء بنفع عظيم . ترى نموذجا كافيا منه فى أوائل كتاب الساق على الساق أوفى الجزء الاول من كنز الرغائب

الجوائب — هى الجريدة العربية التى سارذكرها مسير الشمس . صدرت بالاستانة العلية منذ خمس وخمسين سنة . لولا ارادة الخديو اسماعيل وأياديه ما كان لها فى عالم الصحافة هذا الاثر المحمود وما كان منشئها الا حلس دار الطباعة وقعيدة ديوان الترجمة فى الاستانة . فقد كان يدفع لصاحبها سنويا من ماله الخاص فضلا عما كانت تدفعه الحكومة المصرية من الاشتراكات مبلغا قدره ٥٠٠ من الجنيهات كما كان يدفع مثل

(*) الفارياق لقب منحوت من اسمه « فارس الشدياق » أخذ من فارس « فار » ومن الشدياق « ياق »

ذلك السلطان عبد العزيز، وباى تونس، على انها كانت تصدر أسبوعيا. بلغت من الثقة وبعد الشهرة وعظيم الاعتبار بحيث كانت عمدة أرباب الصحف الاوربية فى الكلام على سياسة الشرق وأحوال العالم الاسلامى. وحتى كانت تتجنى على الباب العالى ولا تحفل بارادته أحيانا. وهى الجريدة الوحيدة التى جاهرت بالدفاع عن الخديو اسماعيل فى دار الخلافة حينما خلع سنة ١٨٧٩ ورثته يوم وفاته ولم تخش سطوة الحكومة العثمانية. ويقال ان السفارة الانجليزية بالاستانة دفعت الى منشئها ألف جنيه انجليزى نظير اذاعة المنشور الذى اصدره الباب العالى باعلان عصيان عرابى باشا سنة ١٨٨٢ وان ذلك كان سببا لفشل عرابى وسقوطه. أفرغ فارسها ما فى كنانته من جهد فى تحريرها بعبارة سهلة لم تكن معهودة فى أقلام كتاب الصحف فى تلك الايام. وجعل للآداب العربية بين أنهارها مكانا فسيحا، وميدانا وسيعا، طالما فتح عليه أبواب المناقشات من أدباء ذلك العصر. ومازالت تصدر الى ان عطلت سنة ١٨٨٤ وقد قام ولده سليم بانتخاب موضوعاتها فى كتاب دعاه «كنز الرغائب» واقع فى سبعة أجزاء وهو مشهور متداول

وله سوى ذلك مؤلفات كثيرة مدرسية وغيرها منها ما هو مطبوع ومنها مالم يطبع. أما ما رأيته مطبوعا منها فهو: غنية الطالب. الباكورة الشهية فى نحو اللغة الانكليزية. السند الراوى فى الصرف الفرنساوى. اللفيف فى كل معنى طريف. النفائس. وأما غير المطبوع فهو: المرآة فى عكس التوراة. كان أوصى أن لا يطبع الا بعد وفاته ويقال انه كان واقعا فى أجزاء كثيرة. ديوان شعره. باقى أجزاء سر الليال. كتاب فى تراجم الرجال

واذا ذكرت هذه الآثار الجليلة فلا بد من ذكر مطبعة الجوائب التى عم نفعها بما أحيته من دارس الكتب العربية وما نشرته بالطبع من مكنوناتها بين أبناء الضاد حتى ملأت المكاتب بعد ان كانت بعيدة المنال

آثار أقلامه

نخب من نثره

وصف مصر

قد وصف مصر كثير من المؤرخين المتقدمين ، ومدحها جم غفير من الشعراء الغابرين ، وها أنا اليوم واصفها ومادحها بما لم يسبقني اليه أحد من العالمين ، فأقول : انها مصرٌ في الامصار ، أو مدينة من المدن ، أو مدرة من المدر ، أو كورة من الكور ، أو قصبة من القصب ، أو بحرة من البُحر ، أو ماهة من الماهات ، أو قرية من القرى ، أو قارية من القوارى ، أو عاصمة من العواصم ، أو صقع من الاصقاع ، أو دار من الديار ، أو بلدة من البلاد ، أو بلد من الابلاد ، أو قطر من الاقطار ، أو شيء من الاشياء . غير ان أهلها يقولون انها مصر الامصار ، ومدينة المدن ، وعاصمة العواصم ، وشيء الاشياء الى آخره . وما أدرى فرق ذلك ، وكيف كان فانها مدينة غاصة باللذات السائغة ، متدفقة بالشهوات السابغة ، توافق المحرورين من الرجال خلافا لما قاله عبد اللطيف البغدادى . . . . فترى فيها النساء سمانا كالأقط بالسمن على الجوع ، والرجال كالحشف بالشيرج على الشبع . ومن خواصها ان أسواقها لا تشبه رجالها البتة ، فان لاهلها لطافة وظرافة ، وأدبا وكياسة ، وشمائل مرضية ، وأخلاقا زكية ، وأسواقها

عارية عن ذلك رأسا . . . . ومنها ان العالم عالم ، والاديب أديب ، والفقيه فقيه ، والشاعر شاعر ، والفاسق فاسق ، والفاجر فاجر ، . . . ومن ذلك ان البنات اللاتى يُستخدَمن فى الميرى لحمل الآجر والجبس والتراب والطين والحجر والخشب وغير ذلك ، يحملنه على رؤسهن وهن فرحات ، جاححات ، سابحات ، صادحات ، مادحات ، مارحات ، غير آحات ، ولا ترحات ، ولا دالحات ، ولا رازحات ، ولا كالحات ، ولا نائحات . ومن كان نصيبها من الآجر نظمت عليه موالا آجريا ، أو من الجبس غنت له أغنية جبسية ، كأنما هن سائرات فى زفاف عروس . . .

ومن ذلك أن البرنيطة فيها تنمى وتعظم ، وتغلظ وتضخم ، وتتسع وتطول ، وتعرض وتعمق ، فاذا رأيتها على رأس لابسها حسبتها شونة « قال الفارياق » وكثيراً ما كنت أتعجب من ذلك وأقول : كيف صح فى الامكان وبدا للعيان ان مثل هذه الرؤس الدميمة ، الضئيلة الذميمة ، الخسيسة اللئيمة ، المهينة المليمة ، المستنكرة المشئومة ، المستقذرة المهوّعة ، المستقبحة المستفظعة ، المستسمجة المستشنعة ، المسترذلة المستبشعة ، تقل هذه البرانيط المكرّمة ، وكيف أنماها هواء مصر وكبرها الى هذا المقدار ، وقد طالما كانت فى بلادها لا تساوى قارورة الفراش ، ولا توازن ناقورة الفرّاش ، وكيف كانت هنالك كالترب ، فأصبحت هنا كالتبر . يا هواء مصر ، يا نارها ، يا ماءها ، يا ترابها ، صيّرى طربوشى هذا برنيطة ، وان يكن أحسن منها عند الله والناس وأفضل ، وأجل وأمثل ، وللعين أبهى وأكمل ، وعلى الرأس أطبق ، وبالجسم أليق ، وغير ذلك قرون تملق لتتلمق ، ويزرق عليها لتزرق . « قال » فلم يغن عنى النداء شيأً ، وبقى رأسى مطربشاً ، وطرف دهرى مطرفشاً . . . .

ومن ذلك ان لضابط البلد شفقة زائدة على أهلها تقرب من حد الظلم . وذلك أنه يأمر جميع السالكين فى طرقها ليلا ان يتخذوا لهم فوانيس وان كانت الليلة مقمرة ،

خيفة أن يعثروا بشيء في أسواق المدينة فيسقطوا في هوة أوجب فتنكسر أرجلهم ، أو تندق أعناقهم ، ومن وجد ليلا يطوف من غير ذوي البرانيط وليس بيده فانوس ، غُلّت رجله الى يده ، ويده الى عنقه ، وعنقه الى حبل ، والحبل الى وتد ، والوتد الى حائط ، والحائط الى ناكر ونكير وتصليه سعير

ومن ذلك أن لِبِنّي جِنّنا فيها أسلوبا في الكتابة لا يعرفه أحد الامم ، ولهم حروف كحروفنا هذه الا انها لا تقرأ الا اذا أدخلها الانسان في عينه ، كذلك رأيتهم يفعلون .
ومنها انه اذا مات منهم أحد فلا يزال أهل الميت يندبونه وينوحون عليه حتى يؤوب اليهم وطبه ملآن من الطِرّيخ (١)

ومن خصائصها أيضاً أن البغاث بها يستنسر ، والذباب مستصقر ، والناقة تستبعر والجحش يستمهر ، والهر يستنمر ، بشرط ان تكون هذه الحيوانات مجلوبة اليها من بلاد بعيدة .

ومن ذلك أن كثيرا من أهلها يرون ان كثرة الافكار في الرأس ، يكثر عنها الهموم والاكدار أو بالعكس ، وان العقل الطويل يتناول البعيد من الامور ، كما ان الرجل الطويل يتناول البعيد من الثمر وغيره ، وان تلك الكثرة سبب في الاقلال ، وهذا الطول موجب لقصر الآجال ، وأوردوا على ذلك براهين سديدة . قالوا : ان العقل في الرأس كالنور في الفتيلة ، فما دام النور موقدا فلا بد وان تفقد الفتيلة ، ولا يمكن إبقاؤها الا باطفاء النور . أو كالماء في الوادي ، فاذا دام الماء جاريا فلابد وان ينضب أو ينصب في البحر فمتى حقن بقي . أو كالفلوس في الكيس ، فما دام المفلس أي صاحب الفلوس يمد يده الى كيسه وينفق منه فنى ما عنده ، الا ان تربط يده عن الكيس أو يربط الكيس عن يده . أو كالتيس النازي ، فانه اذا دام نزوه نزفت

(١) الطريخ هو سمك صغار مملح ولعله المعروف عندهم « بالملوحة »

مادة حياته فهلك فلابد من تحفه (١). فمن ثم اصطلحوا على طريقة لتوقيف جريان العقل في ميدان الدماغ حيناً من الاحيان ليتوفر لهم في غيره، وذلك بشرب شيء من الحشيش أو بمضغه أو بالنظر اليه أو بذكر اسمه، فحين يتعاطونه تغيب عنهم الهموم ويحضر السرور، وتولى الاحزان، ويرقص المكان، فمن يرهم على هذه الحالة ودَّ لو يكتب في زمرتهم، ويدخل في دائرتهم وان يكن قاضي القضاة

***

قد كنت أظن أني اذا تركت الفارياق وأخذت في وصف مصر أستريح فاذا هي هو أو إياها، فينبغي لي الآن ان أمكث في ظل هذا الفصل الوجيز قليلا لأنفض عني غبار التعب ثم أقوم ان شاء الله تعالى

***

قد قمت حامداً لله شاكراً. فأين القلم والدواة حتى أصف هذه المدينة السعيدة الجديرة بالمدح من كل من رآها، لانها بلد الخير، ومعدن الفضل والكرم، أهلها ذووا لطف وأدب، واحسان الى الغريب، وفي كلامهم من الرقة ما يغني الحزين عن التطريب، اذا حيوك فقد أحيوك، واذا سلموا عليك فقد سلموك، وان زاروك زادوك شوقا الى رؤيتهم، وان زرتهم فسحوا لك صدورهم فضلا عن مجالسهم، أما علماؤها فان مدحهم قد انتشر في الآفاق، وفات فخر من سواهم وفاق، بهم من لين الجانب ورقة الطبع، وخفض الجناح وبشاشة الوجه، مالا يمكن المبالغة في اطرائه. ولكل نوع من الناس عندهم اكرام يليق به، سواء كان من النصارى أو من غيرهم، وربما خاطبوهم بقولهم «ياسيدى» ولا يستنكفون من زيارتهم ومخالطتهم ومعاشرتهم خلافا لعادة المسلمين في الديار الشامية، وبذلك لهم الفضل على غيرهم. وكأن هذه المزية

(١) منعه

وهى حسن الخلق، و رقة الطبع ، أمر مركوز فى جميع أهل مصر ، فان لعامتهم أيضاً مخالقة ومجاملة ، وكلهم فصيح اللهجة ، بيّن الكلام ، سريع الجواب ، حلو المفاكهة والمطارحة ، وأكثرهم يميل الى هذا النوع الذى يسمونه « الانقاط » وكأنه المجارزة ، وهى مفاكهة تشبه السباب ، وهو أشبه بالاحاجى ؛ فان من لم يكن قد تدرب فيه لا يمكنه أن يفهم منه شيئاً وان يكن شاعرا . وكلهم يحب السماع واللهو والخلاعة ، وغناؤهم أشجى ما يكون ، فلا يمكن لمن ألفه أن يطرب بغيره ، وكذلك آلاتهم فانها تكاد تنطق عن العازف بها ، وأعظمها عندهم هو العود وقلّ اعتناؤهم بالناى ، ولهم فى ضرب العود طرق وفنون تكاد تكون من المغيبات ، غير أنى أذم من غنائهم شيئاً واحداً ، وهو تكرير لفظة واحدة من بيت أو موّال مرارا متعددة حتى يفقد السامع لذة معنى الكلام ، ولكن أكثر ما يكون ذلك من المتطفلين على الفن ، و بعكس ذلك طريقة أهل تونس فان غناءهم أشبه بالترتيل ، وهم يزعمون انها كانت طريقة العرب فى الاندلس

ومما ينبغى أن يذكر هنا : ان النصارى المولودين فى بلاد الاسلام الناهجين منهج المسلمين فى العادات والاخلاق ، هم أبداً دونهم فى الفصاحة والادب والجمال والكياسة والظرافة والنظافة ، الا أنهم أنشط منهم على السفر والتجارة والصنائع ، وأكثر اقداما وجـلدا على تعاطى الاعمال الشاقة ، وذلك ان المسلمين أهل قناعة و زهد ، وفى النصارى شره عظيم الى اتخاذ الديار الرحيبة ، وقنية الخيل النجيبة ، والجواهر النفيسة ، والمتاع الفاخر ، لاحدلها ، فاذا دخلت دار نصرانى من المتمولين بمصر رأيت عنده عدة خوادم وخادمين ونحو عشرين قصبة للتبغ من أغلى ما يكون ، وقدر نصفها من الاراكيل الثمينه ، وثلاث غرفات مفروشات بأحسن ما يكون من القماش ، وآنية فضة للطعام والشراب والرائحة ، واسرة عالية وطيئة ، وثيابا فاخرة وغير ذلك ، ومع هذا

فلا تجد عنده كتابا . ولو ان مشتريا شاء أن يشتري شيئا من تاجر مسلم لوجد سعره أرخص من بضاعة النصراني بربع الثمن ، ولكن وجود هذه الشراهة انما هو في الغالب عند النصارى الغرباء ، فأما القبط فانهم أشبه بالمسلمين ، وقل من تعاطى المتجر منهم

أما دولة مصر اذ ذاك فانها كانت في الذروة العليا من الاُبَّهة والعز والفخر والكرم والجد ، فكان للمتسمين بخدمتها مراتب عظيم من المال والكُسى والشّحن مما لم يعهد في دولة غيرها ، وكان واليها يولي المراتب العليـة وسمات الشرف السنية لكل من المسلمين والنصارى ما عدا اليهود ، خلافا لدولة تونس فان شرفها عم الجميع ، ومع عظم ما كان يكسبه التجار وأصحاب الحرف وما يناله أهل الوظائف من الرزق العميم فكانت الاسعار بمصر رخيصة جدا ، فلهذا كنت ترى الناس قَضِّهم بقضيضهم وعمهم مقبلين على الشغل واللهو معا ، فالبساتين غاصة بأهل الخلاعـة والقصوف ، ومحال القهوة مجمـع للاحباب ، والاعراس مسموع فيها الغناء وآلات الطرب من كل طرف ، والرجال يخطرون بالخز والديباج ، والنساء ينوءون بما عليهن من الحلى ، والخيل والبغال والحمير مسرجة ومكسوة بالحرير المزركش . . .

التمـدن

لا يخفى ان لفظة التمدن مأخوذة من المدينة ، والمدينـة مشتقة من مدن بمعنى أقام على القول الاصح ، وان كان صاحب القاموس قد اضطرب فيها فجعلها مرة من دان ومرة من مدن ، وكيف كان فان مرادف التمدن في اللغات الافرنجية من معنى المدينـة وهو عندهم في الاظهر عبارة عن استجماع كل ما يلزم لاهل المدينة من اللوازم البدنية والعقلية فقولهم مثلا هذا رجل متمدن ينزل منزلة قولنا متأدب كيس خبير وما أشبه ذلك ، ومع بلوغ

هذه اللفظة عندهم الى أقصى مدى الشهرة وجرى بها على الالسنة والاقلام ، لم يزل عليها ظلام الالتباس والابهام ، فان كل صاحب صنعة يظن ان وجود صنعته بخصوصها هو المراد من التمدن ، فاذا كان أحد المصورين مثلا يذهب الى بلاد ولا يجد فيها من أهل حرفته، يحكم بأن تلك البلاد غير متمدنة، وكذا المغني والرقاص ونحوهما. وضد التمدن عندهم هو الحالة الهمجية ،وهي الخالية عن الترتيب والنظام، فالحالة الاولى عندهم هي التي اتصف بها أهل أوربا جميعا، والحالة الثانية هي التي يجودون بها على غيرهم، الا اني أتعجب كيف يكون اجبار الناس مثلا على نوع معلوم من اللباس أو الاكل من التمدن ؟ وكيف يكون منه أيضا قهرهم على أن يفعلوا ما لا تطاوعهم نيتهم عليه، فسيمر بك من غرائب هذه الجوائب ما كلف به المسلمون واليهود في الجزائر وما أجبر عليه أهل وارسو من اللباس، فالامر الاول ينكره كل من الفرنسيس والانكليز ويحكمون بانه خارج عن التمدن، والامر الثاني ينكره الانكليز ويجعلونه من قبيل الشطط المخالف للتمدن . وفي الجملة فانا نرى في وجه هـذا القرن الذي تزين بكثير من العلوم والاختراعات ما يشف عن الحالة الخلقية أعني الهمجية في تلك البـلاد المتمدنة ولاسيما ما يحـدث فيها من القتل والاغتيال والسلب والاختطاف والفتن والتغاوي . وأعجب من ذلك خلو هذه البلاد بحمده تعالى عن مثل هذه المعايب والمنكرات مع كونها محلاة عن مورد التمدن في زعمهم، فاما أن يقال ان التمدن صار سببا لهذه الشرور والتعدي ،أو أن هذه الشرور مغايرة للتمدن ،فمن القول الاول الذي يطلقونه علينا أعني عدم التمدن، ينتج انا خالون عن الشرور، ومن القول الثاني، ينتج انا متصفون بالتمدن، ومع ان علينا رقباء يتربصون بنا سوءا حتى يشيعوه عنا، ومع كون هذه المدينة المحروسة قد جمعت فأوعت من جميع أجيال الارض فليس يشيع عنا شيء يوجب اللوم ،على انه حدث من سوء التدبير أو التفريط في الامور ،ولا أدري كيف صح لكاتب جرنال الاخبار مع كونه جرنالا للدولة في

الجزائر أن يشيع ما أشاعه من اكراه اليهود على السجود مع ان ذلك مغاير للمحامد التى تحرص عليها الدولة ، فاذا كان مثل هـذا الامر يحدث فى أيام دولة الامبراطور فاظنك بغيرها

الهواء

قال بعض العلماء : لا يخفى ان للشمس والهواء تأثيرا فى كل المخلوقات من الانسان الى الفقع ، قال : وزعم العلامة فونتانل ان سكان البلاد الزائدة الحر والبرد لا يكونون أهلا للعلوم ، فان العلوم الى هذا الآن لم تتعد مصر وموريتانيا من البلاد الحارة ، وبلاد السويد من الاقاليم الباردة ولعل بقاها فى جبل الاطلس «فى أفريقية» وفى بحر البلطيق ليس عن مجرد عرض واتفاق ، ولا ندرى ان كانت هذه الجهات ليست حدودا لها أو انه يصح لنا أن نترجى انه ينبغ مؤلفون ماهرون من أهل ليلاند أو من بلاد السودان . وقال المؤلف شردان فيما وصف به بلاد الفرس : ان حرارة القطر توهن كلا من البدن والعقل وتخمد نار المخيلة التى لابد منها فى اختراع المعانى ، فأهل هذه البلاد لا يمكن لهم المداومة على الدرس والاجتهاد فى المطالعة مما هو لازم لتأليف الكتب العظيمة أو لانشاء الصناعات الجليلة . قال : فكأن هذا القائل لم يفكر فى ان الشيخ سعدى ولقمان كانا من الفرس ، أو ان ارشميديس كان من صقلية حيث الحر يزيد على حر بلاد الفرس بثلاثة ارباع ، وقد نسى أيضا ان فيثاغورس هو الذى علم البراهمة علم المساحة وقال بودان : ان تأثير الهواء أصل لكل من الدولة والديانة وكذا قال ديدوروس الصقلى من قبله . ولكن لنا ان نسال هؤلاء الذين يظنون ان تأثير الهواء هو أصل كل شىء ، ما بال القيصر يوليانوس كان يقول انما يعجبنى من أهل باريس رزانة اخلاقهم وشدة طباعهم؟ والحال انهم مع عدم تغير هوائهم بشىء صاروا كالاطفال اللاعبين فى كون

الدولة تر زأمنهم وتضحك اليهم فى وقت واحد، فيطفقون هم أيضاً بعدها يضحكون و يغنون متهكمين على ساداتهم ، ثم مابال المصريين الذين قيل فيهم انهم أشد رزانة من البار يسيين صار وا الان الى مانراه فيهم من التوانى والاحجام بعد ان تغلبوا على الدنيا تحت ملكهم سيزستريس على ما فى التواريخ؟ ولاى سبب لا نجد الآن فى أثينا مثل ارسطو وابا كر ينوس وغيرهما؟ وكيف طرأ على رومية بدل فلاسفتها نحو شيشرو وكاطو ولاوى ، ان صار أهلها يخافون من أن يفصحوا عما فى خواطرهم، وصارت سعادتهم انما هى التحديق فى زفاف الصور، وفى رخص سعر الزيت؟ و بعكس هذه الحال من الترقى الى التدلى حال الانكليز فان شيشرو والمشار اليه كان يتهكم عليهم وكثيرا ما كان يسأل أخاه كو ينستوس عن وجود فلاسفة بينهم، اذ كان يظن ذلك محالا ، فلم يكن يخطر بباله انه ينبغ من هذه البلاد مهندسون يفوت كلامهم فهمه؟ مع ان هواها لم يحل عن حالته، وجولندرة الان أدكن مما كان سابقا؟ نعم ان للهواء تأثيرا إلا ان تأثير الحكومة أشد، وأكثر من ذلك تأثير الحكومة والديانة معا ، وكل شيء يتغير مع تمادى الزمان، فلعل أهل أمير يكا يأتون حينا من الاحيان الى أور با ليعلموا الافرنج العلوم والصنائع .

مقامة فى سعادة المرء وشقائه

حدس الهارس بن هثام قال: أرقت فى ليلة خافية الكوكب، بادية الهيدب، طويلة الذنب ، ملأى من الكرب ، الى الكَرَب ، فجعلت أنام على ظهرى مرة ، وعلى جنبى أخرى ، وأتصور شخصاً ناعساً أمامى يتثاءب وآخر يخر نخرا ، وآخر يهوم سكرا ، فان التصور فيما قالوا يبعث على فعل ماترغب النفس فيه ، وينشط الى ماتصبو اليه وتشتهيه ، ومع ذلك فما اكتحلت غمضا ، ولا

فتح فمي بتثاؤب طولا ولا عرضا . وكان يخيل لي ان أهل الارض كلهم رقود وأنا وحدي من بينهم أرق، وان جميع جيراني في سكون وأنا دونهم قلق، فقمت الى الشراب فحسوت منه حسوة، فلم تكن الا غفوة، كأنما كانت هفوة، فأفقت في أسوأ حال، وشر بلبال، والهموم قد انثالت عليّ من كل جانب، والافكار متطايرة على كل مُقارب ومُجانب، فكان يخطر ببالي كل ممكن ومحال، ويعاودني ما كنت فكرت فيه من الاحوال، مرة منذ أحوال، فلما علمت ان النوم قد ندّ عني وان تناومت، وانه لا بد من ترقب الفجر إن أذعنت أو قاومت، مددت يدي الى كتاب أطالع فيه، وقلت ان لم يُنمني فينبهني ببعض معانيه. فتناولت أقرب ما وصلت اليه يدي، وأنا غير مؤثر أحد الكتب على غيره في خلَدي، واذا به كتاب موازنة الحالتين، ومرازنة الآلتين، للشيخ الامام العالم العامل، الفاضل الكامل، أبي رشد نُهية بن حزم، المشهور بالبلاغة في النثر والنظم، وهو كتاب لم يسبقه اليه أحد من المؤلفين، ولم يجاره فيه كاتب من المجلين، فقد وازن فيه بين حالتي بؤس المرء ونعيمه، ورَوحه وهمومه، ومنافعه ومضاره، وأحزانه ومساره، منذ كونه طفلا الى ان يصير كهلا، ثم شيخاً قحلا، وقد جعل ذلك في جدولين متقابلين، وأسلوبين متفاضلين، الا انه لما كان الشيخ قدس الله سره، ورفع في أعلى عليين مقامه وقدره، على ما يظهر لي ذا عيشة راضية، وسعادة وافية، وهمة ماضية، رجح طرف اللذات على غيرها واستقل شر الحياة بالنسبة الى خيرها، حتى انه زعم ان اللذة تكون عن الفعل والتصور معاً بخلاف الالم فان الفكر لا يقع منه موقعاً، وانه كان اذا امتثل خوْداً يداعبها او تداعبه، هزته نشوة طرب مال بها سريره ومركبه، وكاهله ومنكبه، بيد اني ارتبت في كلامه في هذا المحل، وقلت سبحان الله لا بد لكل مؤلف من هفوة وان جل، وذلك اني لما تصورت الشخص المتهوم، والناعس والمتثائب وأنا متناوم، لم يغنني التصور عن الفعل نقيرا، ولا وجدت فيه لذة لا قليلا ولا كثيرا، على اني أذهب الى ما ذهب اليه بعض المجانين، من ان لذة النوم لا تكون قبله ولا معه ولا بعده للنائمين، وهي عقدة للطبائعيين ،

لا يمكنهم حلها بلسانهم وأفكارهم، ولا بأسنانهم وأظفارهم، غير ان عبارة المصنف كانت من العلم والحكمة بحيث تخلب عقل الناقد الخبير، وتربك في تحرى أحد القولين كل نحرير فلما أطلت النظر فيهما وعاد الى كليلا، وأعملت حد النقد ورجع مفلولا، عزمت على ان استجلى هذا الاشكال، من بعض ذوى الدراية والجدال، فقلت في نفسى : كما ان يدى نالت أدنى الاسفار، كذلك يكون مراوحى عليه أدنى الجار، وكان يسكن بالقرب منى مطران يطرىء قدمه على حليته، ويعظمون فضله وأدبه على طول لحيته، فقصدته ضحوة النهار، بادى الاستبشار، فرأيته ذا بكلة تروق، وبزة تشوق، فعرضت عليه الجدولين، وقلت افتنى فى هذه القضية، ولك الاجر من رب البرية، فنظر فيهما ثم حرك رأسه، وجعل يرمش ثم يشكو نعاسه، وقال لى ماترجمته : اذ لم يكن ممن تسمو الى السجع همته، ما لحنت مغزاهما، ولا دريت فحواهما، ولوكانا بعبارة ركيكة، كان ذلك على أسهل من الجلوس على هذه الاريكة، فقلت : قد أخره فى العلم والثقف، تقدمه فى الصف، ونقص من عقله وفهمه، ما زاد فى لحيته وكمه، فلأستعلمن بعده أكثر الناس حمقا وهوجا، وما ذلك الا معلم الصبيان الهجا، وكان فى البلد من اتصف بهذه الصفة، وهو مع ذلك ذو كبر وعجرفة، فقصدت محله، والقيت عليه المسئلة، فاذا به قام يصفق بيديه، ويرأرىء بعينيه، ويقول لقد سقطت على الخبير، واهتديت برأى بصير، ان شئت ان تعرف أى القولين أرجح، وأصدق وأصح، فزن الجدولين دون جلد الكتاب فى ميزان، فما رجح منهما فهو الراجح ما اختلف فى ذا اثنان، فقمت من عنده غضبان نادما، ولعنت الارق الذى كان السبب فى ان أكون لمعلمى الصبيان مكالما بعد ان قرأت فى غير كتاب، وسمعت من ذوى الالباب، انهم استخف خلق الله عقلا، وأكثرهم جهلا، وأبعدهم عن الفهم، وأسفههم الى الوهم، فسرت فى ذلك اليوم، الى فقيه من جلة القوم،

قد كبر عمامته وكورها ، ووسم جبته وزورها . فقلت افتني أيها الفاضل الأحذق ، أي القولين عندك أحق وأصدق ؟ فقال : أما اذ جئتني مستفتيا ، ورمت ان تكون برأيي مستهديا ، وبطريقتي مقتديا ، فإني أقول لك بعد التروي في هذا المذهب المتحري : انا معشر الفقهاء من أهل الكلام ، القائمين بإحكام الاحكام ، وتبيين المتشابه بين الانام ، وان من دأبنا اظهارا للحق ان نسهب في التعليل ، ونكثر من قال وقيل ، اذ لا بد من انتشاء عرف الصواب من الاسهاب ، ومن الاهتداء الى بعض المذاهب ، بفرض المستحيل وجعل المعدوم كالموجود الواجب ، فعندي انه لا بد من عد الفاظ القولين ، واحصاء حروف الجدولين ، فما كان منهما أكثر حروفا ، فهو أرجح وأحسن تأليفا ، والله أعلم .

ففصلت من عند الفقيه ، كما فصلت من عند صاحبه السفيه ، وقلت انما اللوم على مستفتيه .

ثم قصدت شاعراً كنت أعهده يتاهوق ويتشدق ، ويتفصح ويتمدح ، ويتبجح ويترنح . وقلت له هاك ماتحرز عليه أجرا ، يكسبك بين الناس فخرا ، فأبن لي أي الأهلو بين أبدع ، وبالحق فاصدع . قال : أما أنا فما لي من خلاق في الدنيا ولا نصيب ، غير المدح والنسيب ، ففي الاول غصتي ، وفي الثاني لذتي ، فاصبر علي ريثما أطالع ديواني كله ، وأتصفحه جمله ، فان وجدت المدح فيه أكثر من الغزل ، كان الخير في الدنيا أقل . فألحقته بصاحبيه الفقيه والمعلم ، وقلت كم متكلم مكلم . ثم سرت الى كاتب الامير ، وكان مشهودا له بالتحري والتحرير ، فأثنيت عليه قبل السؤال مطريا ، وقلت لم يكن غيرك في ذا مجزيا ، فقال ان سعادتي في الكون هي ان أرضى عن أميري ويرضى عني ، وشقاوتي هي ان أغضب منه ويغضب مني ، وقد نسيت كل ما جرى علي من الغضب والرضى ، لكثرة المشادة والمقتضى ، فان صبرت علي في المستأنف شهرا ، لأقيد في دفتري ما القاه منه حلوا ومرا ، ونفعا وضرا ، أفدتك الجواب فاقبل عذرا ، فصيرته رابع الثلاثة ، وقلت لأستشيرن ذا حداثة ، فان أهل المراتب والمناصب قد ذهبت صدارتهم بألبابهم ، فلم يبق فيهم خير

لقارع بابهم، فجئت الفارياق وهو مكب على النسخ، وفى طاعته مبادىء المسخ . فقد رأيت عينيه غائرتين، ويديه ذاويتين، وعظم خديه ناتئاً ، وجلده كالظل زائاً ، حتى رثيت لحالته، وكدت أمسك عن الكلام اشفاقاً من بطالته، لكنه لما رآنى قام الىّ، ثم أقبل علىّ، وقال: هل من خدمة اقتضت سعيى، أو نجوى أوجبت دعيى ؟ فقلت: قد أقدمنى كذا وكذا، فاكفنى ذل السؤال كفيت الأذى . فأخذ رقعة من تحت أسمال، وكتب فيها فى الحال

أتيتنى مستفتيا فى أمر * يعلمه كل امرئ ذى حجر
الخير ان قابلته بالشر * فى العمر كان قطرة من بحر
ألا ترى الأجرب كيف تسرى * عدواه فى جميع أهل المصر؟
وليس من ذى صحة ويسر * عدوى لمن داناه طول العمر
والطفل ان يُشعركم من ضر * يَلقى ويُلقى عنده فى قبر
وعند إشعار ونبت ظفر * ليس له من لذة وسُر
وكل عضو لقبول الكسر * أقرب منه لقبول الجبر
وما فساده سريعا يزرى * كالدين لن تصلحه فى دهر
ونعى طفل لأبيه يَفرى * فؤاده وكل عظم يَبرى
وليس فى مولده من بشر * ند لحزن موته الأضر
وما تكون لذة عن فكر * اذا تحققت ولا عن ذكر
وانما ذا هوس قد يجرى * فى خاطر المغفل المغتر
فهل تصور الشفاء يُبرى * ذا مرض أمرض منذ شهر؟
وهل لمن يبرد وقت القرّ * دفء بتذكار أوان الحر؟
فليس دنيانا لأهل الخير * سوى بلاء دائم وخسر

يولد فيها العبد غير حر * وهكذا يموت رغما فادر

قال فلما أخذت الرقعة وتأملت فيها، وتحققت معانيها، علمت ان قوله هو الأسدّ، وان قول غيره هذيان وفَنَد. فقلت له بورك فى زمن جاد بمثلك، وهدى المستفيدين الى رشدك وفضلك، وقبح لاهل الثراء اذلم يحلوك ارفع الذرى. ثم انصرفت من عنده داعيا، ولما قاله واعيا

بديع الإعجاز

انى كثيراً ما فكرت فى فن البديع الذى هو من بعض الادلة على فضل اللغة العربية على سائر اللغات، فأحببت هذه المرة أن أنشىء مقالة برمتها من نوع الترصيع، ومثاله فى الكتاب العزيز «ان الينا ايابهم، ثم ان علينا حسابهم» فها أنا أدعو جميع من على وجه الارض من الافرنج لمعارضة هذه المقالة وهى :—

من الناس من تخلج فكره من فنون الاقتراح خوالج، وتلمج صدره من شجون الاجتراح لواعج، وتزعجه المآرب الى أقصى المرامى، وترعجه المطالب الى أعصى المرامى، وتستفزه وتستهويه، وتستبزه وتستغويه، لكن يفتح لها صبره، ويشرح صدره، ويجتنب منها بوارح الغصص، ويرتقب لها سوانح الفرص، ويحين انتجاعها، ويخبر مشروعها، ويسبر موضوعها، فلا يبغيها الاحذرا، ولا يأتيها الاظفرا، ويرى الانتظار أحسن معين على تحصيل الامل، والاصطبار أيمن قرين لتسهيل العمل، ورب عجل أهب الاجل، ولا يخلو ابتسار عن انهيار، ولا تخلو أوطار مع أخطار، ولا يعلو منار فى مغار، واذا دانت نيه، أو هانت ثنيه، أوحانت أمنيه، لمن غادر التبصر، وبادر التهور، فطال طلبا، ونال أربا، فانما يكون من قل النوادر، ولا يهون لكل مخاطر، فاللبيب الحازم من تانى فيما تمنى، والاديب العالم من لا يتمنى الا لما به يتقنى، اذ ليس الاستكثار مظنة للرفاهة،

ولا الاستهتار مثنة للنباهة ، ومن تبصر في العواقب ، وتدبر في النوائب ، أيقن أن الرزق قُدر على مقدار لا يتعداه ، والرفق حُصر في مضمار لن يتخطاه ، فلا وفور التردد يُكوّره ، ولا ندور التههد يحوّره ، ولا ملازمة الارق تعجله ، ولا مداومة الشفق تؤجله ، ولا شيء من الاشياء يفقده ، ولا حي من الاحياء يوجده ، جَيْرَ أن الرزق محدود ، كما أن الحق موجود ، والخلق ممدود ، الا أنه من الراتب المتبين أداؤه ، والواجب المتعين قضاؤه ، على من اتصف بالسداد ، واعتكف على الرشاد ، وكلف بالحلال ، وأنف من الحرام ، وعزف عن الجدال ، ووزف الى السلام ، وصان وجهه عن الابتذال ، وزان كنهه بالاعتمال ، أن يكدَّ قاصدا ، ويجد راشدا ، كي لا يكون كَلاًّ على غيره ، أو علا لميره ، فيقلى لقاؤه ، ويتلى هجاؤه ، وتشنأ لهجته ، وتبذأ بهجته ، وتبدو محاسنه مساوى ، وتغدو ميامنه مغاوى ، وحينئذ فما جاء من أثر عاد عليه وبالا ، وما شاء من وطر فاد لديه تبالا

ومنهم من اذا طلب بغية ، أو خطب منية ، أمهرها عِرضا مباحا ، وأصدرها عَرَضاً متاحا ، وأعدها اصدغا لا تعمل فيه المعاول ، وأجدها نزغا لا ترسل عليه المقاول ، بين إقبال وإدبار ، وإبطال واصرار ، فكرٌّ وهرٌّ ، وعرٌّ وغرٌّ ، وبربر وثرثر ، وحرحر وقرقر ، هُمزة لُمزة ، نُبزة نُغزه ، أُزمة نُشبه ، حُطَمة نُقبه ، مُلِحٌّ ماحف ، بجبج بجحف ، لا يصيبك به كلام ، ولا يحيك فيه ملام ، ولا تقمعه المقامع ، ولا تردعه الروادع ، وما من جابه يحمله على الهيبة ، ولا من ناجه ينقله الى الخيبة ، فلا يزال يغدو ويروح ، ويندو ويبوح ، ويشدو وينوح ، حتى يعتصر مأربه ، ويهتصر مطلبه ، فهذا في عصرنا يعرف بالحوّل الماهر ، ويوصف بالمزيّل الظافر ، بل الاول والآخر ، اذ العمدة في حوز ما قام بالنفس ، والعهدة في فوز ما حام على الحدس ، كيفما كان من وسائل الانتجاع ، وهان من وصائل الانتفاع ، ذلك دأب أولي الجشع ، وطَب ذوي

الطمع ، فلا يأنفون من سؤال ، ولا يصدفون عن مُحال ، ولا يعرفون من مِحال ، وما لهم بالعواقب من مبالاة ، ولا فى المناقب من مغالاة ، سواء جاروا عن الأمّ ، أو حاروا فى الذم ، أو لبسوا الفضائح ، أو قمسوا فى القبائح ، حتى اذا هنأهم الادام ، ومرأهم المدام ، سخروا ممن نولهم بطرا ، ونفروا عمن خولهم اشرا ، ونسبوا بَذْلَهُ الى الاضطرار ؛ وحسبوا فضله من الاغترار ، وهو كفران مبين ، وخسران مهين

ومنهم من يقر على الكسل ، ويفر من العمل ، ويقول ان الله جل سلطانه ، وهلّ احسانه ، خالق الاسباب ، ورازق النُّعَّاب ، فهو يرزقنى بغير حساب ، ويرمقنى من ضير الذهاب والاياب ، اذا لزمت مغانى فهو يغنينى ، وان أقمت أتانى لا يُعَنّينى ، فحدى أن أبتهل اليه داعيا ، وجدى أن أتكل عليه راجيا ، فلا أجرى ولا أسعى ، ولا أسرى ولا أشقى . وان كان قد تميز عن أمثاله برسم من العلم ، وتحيز عن أشكاله بوسم من الفهم ، راد فى سرفه ، وزاد فى صلفه ، فصادرهم بمؤونته ، وناظرهم على معونته ، اعتمادا على فضائله ، واستنادا الى شمائله ، وانه أكرم منهم وأفضل ، وأعلم وأمثل ، وأحلم وأكمل ، وهذه محنة أخرى ، ومهنة خسرى ، بل فتنة كبرى ، لا جرم ان الله هو الخلاق العليم ، والرزاق الكريم ، وانه قدر كل سبب فاحسن تقديره ، ويسر كل طلب فاتقن تيسيره ، وانه يلهم خلقه صنيع النعم ، ويعم رفقه على جميع الامم ، وان منهم الحاكم والمحكوم ، والخادم والمخدوم ، والقاصد والمقصود ، والحامد والمحمود ، والجادى والمستجدى ، والهادى والمستهدى ، الا ان الا اليق بمن صفت سجيته ، ووفت مروءته ، وزكا أصله ، وذكا نبله ، أن لا يكون وكلا عاجزا ، وفشلا عاشزا ، متناوما عن المعالى ، متشائما بالليالى ، متوددا الى المانح والمانع ، مترددا فى البارح والسانح ، أسير الوساوس ، حسير الهواجس ، أليف الظنون ، حليف الشجون ، قرين الاوهام ، خدين الاحلام ، فان ذلك من عوائق النجاح ، ومغالق الفلاح ، وان ذا الاحسان من هذا وعى ، ان ليس للانسان الا ما سعى

الذوق

الذوق في الكلام ، كالذوق في الطعام ، في ان كلا منهما منشأه الالفة والعادة ، فمن قلة الذوق المعنوي انه لم يوضع في لغة من اللغات لفظة خاصة به و بضده ، وانما يذكر أهل المعاني والبيان شيئاً من آثارهما فيقولون مثلا هذه استعارة حسنة ، وهذا تشبيه بديع ، أو هذه استعارة مستهجنة ، وهذا تشبيه بعيد ، ولا يقولون ان ذلك من الذوق وعدمه ، مع انه هو مدار ذلك وليس لغيره مدخل فيه ، لان الشاعر الذي يرتكب مايخل بالذوق ربما كان أعلم أهل زمانه باللغة و بكلام العرب ، فاتيانه والحالة هذه بما يروق النقاد ناشئ عن العلم والذوق ، واتيانه بغير ذلك من عدم الذوق لا من الجهل . فمن عدم الذوق في شعر شعراء العصر ان أحدهم يبتدئ قصيدته مثلا بالتشبيب في امرأة ثم يذكر أوقات الوصال ثم الهجر ثم عدوان الزمان ، وتقلب الايام والاحوال ، وحرمان اللبيب ، وفوز الجاهل ، ثم ينتقل الى الغزل بذكر فيصف محاسنه و يفضله على الشمس والقمر والنجوم ، ثم ينتقل الى وصف الخمرة ومجالس الانس والطرب ، واختلاس اللذات ، واغتنام فرص المسرات ، ثم ينتقل الى ذكر مفارقة الاحباب ، وتجرع غصص النوى ، وذكر الطلول والربوع والبرق والسحاب والصبا ، والتعلل بنفحاتها والترقب لاوقات الوصال ، وكل ذلك بكلام بليغ ، وتعبير فصيح ، من دون ضرورة ولا اخلال في شيء من قواعد اللغة العربية ، فالشاعر الذي مارس هذا الاسلوب لا يرى فيه عيبا بل ربما عاب مايخالفه من أساليب غيره ، وهكذا ترك أهل المعاني والبيان ممن يتعاطون الشعر يهيمون في كل واد ، وانما نشبوا في نقد بعض ألفاظ وأمسكوا بتلابيب قائلها ، وذلك كانتقادهم لفظة «مستشزرات» في قول امرئ القيس « غدائرها مستشزرات الى العلا » ولم يعيبوا عليه قوله « اذا مابكى من خلفها »

مع انه من السماجـة بمكان . ومهما يكن من السماجة فى كلام امرئ القيس فان الذوق سجية راسـخة فى العرب الاولين . انظر الى الشنفرى الذى عاشر الذئب العملس والارقط الذهلول والعرفاء الجيأل ، فانك لاتجد فى كلامه شيئا خارجا عن الذوق ، وكذا المعلقات وغيرها ، مع ان العرب كانوا خالين عن العلم وانما هى محض ملـكة فيهم . وانظر الى كتاب الافرنج الذين بلغوا فى هذا العصر من المعارف والتمدن ما بلغوا فلا تـكاد تجد أحـداً منهم ذا ذوق . هذا «التيمس» الذى هو عنـد الانـكليز بمنزلة «نوابغ الزمخشرى» و «مقامات الحريرى» تراه بينما هو يخوض فى أمور سياسية دقيقـة ، ومقاصد دولية أنيقـة ، اذا به يطبل بذكر القطن والانوال والمعامل ، ويزمر بذكر الفحم والجارف والمواقد والمناقل . وانظر الى كتاب الاخبار من الفرنسيس تجدهم يسفون ، ويدنقون ، ويسهبون ، ويخلون ، فياخذون فى معنى مبتذل ويكسونه الالفاظ الضخمة الطويلة الحوشية ، فتسمع منهم جعجعة ولا ترى طحنا ، فكل خمسة أسطر من كلامهم يغنى عنها فى العربية سطر واحد ، وماذلك الا لان الانـكليز ألفوا الـكلام على القطن والفحم والمعامل ، والفرنسيس ألفوا الاسفاف والاخلاء ، فلا نقول ان ذلك صادر من جهلهم بل من عدم ذوقهم . ولو قال أحد بالعربية مثلا : انى فى هذا الصباح الذى لاحت تباشيره ، وعم سروره ، وفاح عبيره ، وأشرقت شمسه وشمل أنسه ، وغرد طائر هنائه ، وخفقت بنود صفائه ، وحق له ان يذكر فى كل سفر بسطر ، وكل مجلد بحرر ، شربت مسهلا ، ولزمت بيتى معـتزلا . أفيكون ذلك كلاما ، وهل يغضى النظر عنه أحد ممن سلم ذوقه وصفا طبعه ؟ فينبغى ان تـكون الالفاظ ، مطابقة للمعانى ، فما كان من المعانى مبتـذلا خسيسا فلا يليق به ان يكسى الالفاظ الطنانة فانها تزيده هجنة . وهؤلاء الافرنج مع تبحرهم فى الفنون واتقانهم الصنائع لم يفطنوا الى هذه المناسبة ، فاعجب لقوم يقيسون الارض والسماء وليس لـكلامهم من قياس

فان اعترض أحد هنا بان العرب أيضاً قد ألفوا أسلوبا فى الشعر والانشاء لا يستحسنه غيرهم وهو فى نفس الامر معيب فانهم اذا مدحوا بليغا قالوا انه يفتض أبكار المعانى، واذا مدحوا أميرا ابتدأوا بذكر محاسن امرأة أو غلام وبالتشوق اليه اواليها ومثل ذلك خروج عن الذوق اذ ليس من مناسبة بين الامير والمرأة . قلنا فى الجواب أن قول بعض العرب يفتض أبكار المعانى ليس بطريقة عامة يستحسنها منا كل أديب ، فربما عده بعض أدبائنا حسنا ، وعده البعض الآخر خشنا ، وهذا هو الفرق بيننا وبين الافرنج فان الاخلاء والاسفاف والتكرير والمعاظلة عند الفرنسيس والانكليز طريقة عامة يستحسنها كل واحد منهم فان لغتهم مبنية على هذا الاصل . أما اصطلاح العرب على الابتداء بالنسيب قبل المدح وان يكن طريقة عامة الا أن له وجها ، وذلك أن أقوى الاسباب الباعثة على الشعر إنما هو فراق الاحباب « لا يعلم الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها » ولما كان هذا الامر كثير الوقوع عند العرب لان دأبهم الرحيل والتنقل من مكان الى مكان شحذوا بذكره أذهانهم فى مطالع قصائدهم ثم خلطوه بوصف محاسن المحبوب والتغزل به فمن هذا الوجه ساغ وحسن . ولو فرضنا أن العرب كانت تسكن المدن ولا تفارقها لما كان لذكر الطلول والاظعان معنى ، نعم إذا بالغ الشاعر فى وصف المرأة التى فارقته كأن يقول إنه يتمنى أن يكون بعيرا تحتها أو أنه يشفق على البعير من ثقل أردافها أو أنها تسقى الشرب جميعاً كؤوس ريقها عاد ذلك سمجا . لا جرم أن ذوق الانسان ليتغير بحسب ما يطرأ عليه من العوارض ويدور مع أحواله ، فالأحداث والشبان مثلا يرتاحون الى المبالغة والغلو والفحش ، والكهول والشيوخ يأنفون من ذلك ، فلا يستحسنون من الكلام الا ما كان خاليا من الشوائب . وعلى هذا نقول أنه لا يمكن وضع حد معلوم للذوق إذ هو مبنى على العادة والالفة وهما مختلفان ، وانما يمكن التقرب منه كما يمكن التقرب من معرفة حسن العادات من قبيحها بسلامة الطبع وصفاء السجية

مراتب الفضلاء

من الناس من يتصدر فى المجالس و يحادث كل مجالس ، و ينافس كل مؤانس ، فيطرب المسامع ، بما يورده من الفقر النواجع ، و يسلى النفوس بما يسرده من الحكايات ، والنوادر والابيات ، و يواصل الاخبار و يروى الاشعار ، و يصل قضية باخرى ، و يقول تلك حرية وهذه أحرى ، و يلتفت و يستطرد ، و يتمثل و يستشهد ، و يلمح الى وقائع وفنون ، و يفيض فى حديث ذى شجون ، حتى تقول أن صدره مستودع جميع الاخبار ، وفكره محور لكل الاسرار ، و إنه مورد المسائل ومصدرها ، وخبير الفضائل ومخبرها ، وأنه فضاض المشكلات ، ومستفاض البينات ، و بديع البيان ، وحسان الفصاحة والتبيان ، وأن له مصنفات كثيرة ابتدعها ، ومؤلفات وفيرة اخترعها ، حيث قالوا إن اللسان ترجمان الجنان ، والاخذ فى فنون الكلام منبأة عن العرفان ، فيعظم فى عينيك قدره ، و يثبت لديك فضله وفخره ، وتهابه مهابة التلميذ لاستاذه ، وتوقره توقير المضيم لمعاذه ، فاذا أخطأ فى شيء ، قلت ان الخطأ من فهمك لا منه ، وأنك محتاج الى الاخذ عنه . فاذا أخذ القلم وكتب أبان عن قصور فى علمه ، وفتور فى فهمه ، فقربت عنه تلك القريحة السيالة ، وخانته تلك الفكرة الوصالة ، فلم يجد لارتباط الكلام بابا ، فكانه لم يقرأ فى العلم كتابا ، ولا درى من فنون القول ايجازاً ولا اطنابا ، وكأن لسانه الذى كان يتكلم بما انما كان مستعارا ، وتلك الفصاحة كانت اضطراراً لا اختيارا ، مع أن من العادة أن الانفراد للتأليف والانشاء ، يظهر فضل المرء فى علمه أكثر من المجالس و يكون ادعى للايشاء ، فان فى الخلوة يصفو الذهن من كدر القيل والقال ، و ينشرح الصدر من عنت

الارتجال ، فيسهل فيها إيقاع الالفاظ مواضعها ، والتاليف بين المعانى فلا يختار منها الا بدائعها ، و إذا التبس شيء من الكلام ، فالكتب تكشف عنه اللثام ، فكيف تكون الخلوة باعثة على التقصير ، والزحام أدعى الى البيان فى التعبير ، وان كثيرا ممن يتفصحون و يتحذلقون ، والناس بهم محدِقون واليهم محدّقون ، ليتعمدون حفظ بعض القصص والحكايات لمجرد سردها على السامعين ، بينة على ما لهم من البيان والتبيين ، والاطلاع على سير الاولين ، والاضطلاع من علوم المتقدمين ، فترى أحدهم ينتهز الفرصة لبث ما حفظه و وعاه ، و يزاحم غيره فى الكلام لاظهار دعواه ، فاذا كان فى المجلس ثلاثة منهم أو أربعة ، سمعت لهم ضجّيجا ومعمعة ، حتى كأنك فى جيش لجب و بحر مضطرب

ومنهم من يحضر المجالس وهو صامت ، و يسمع ما يقال فيها وهو ناصت ، و إذا عنّ له أن يورد نادرة على سبيل المحاضرة ، تذكر أنها غير خافية على أحد من الحضور ، أو أنها ليست من القول المأثور ، فيضرب عن إيرادها ، و يقيس عليها غيرها من أندادها ، وهكذا ينفض المجلس وهو لم ينطق ببنت شفة ، ولا أظهر على السكون أسفه ، فيظن جليسه أنه ذو عى ، وغيره من المكثرين كان اللوذعى ، فان الناس يظنون غالباً أن الفخار فى الاكثار ، والقصور فى الاقتصار ، فاذا حضر المجلس مرة أخرى ، لم يرفع له أحد قدرا ، واتخذوه كلا ، وقالوا إن سكوته إنما كان جهلا ، وأن حضوره لمما يقلى ، فان من شهد محفلا ولم يتكلم فيه ، كان كأنه يتطلب عدم معايبه وحصر مساويه ، ولكن متى خلا الصامت بنفسه ، وأجرى جواد قلمه على طرسه ، أراك من فنون الكلام عجباً ، و اذاقك من حلاوة البيان ضرَبا ، وأنشاك من انشائه ، وسلب لبك بأساليبه وانحائه ، فتود لو كنت له تلميذا وخديما ، أو سميراً و كليما ، وقلت لا جرم أن من البيان لسحراً ، و إن من الصمت لسرا ، فليس كل من أورد النوادر كان عالما ، ولا

كل من تمثل بالابيات كان ناظما ، فما العلم الا مااستقر فى البال ، لا ماقرقر فى المقال ، وهذا الذى يفيد الطالبين ، و يؤدب المتادبين ، وقلما اجتمع لامرء فصاحة اللسان و براعة اليراع ، والناس فى تفضيلهما ليسوا على اجماع ، وعندى أن الثانى بالعلماء أليق ، والاول بالخطباء وذوى المراتب أليق ، فان هؤلاء محتاجون إلى اعجاب السامع ، بالقول الرائع ، و إن لم يتحروا فى قولهم التحقيق ، مما لا بد منه للعالم ذى التنويق ، و فى كلتا الملكتين مزية ، وفضيلة وقضية

فامامن خلا عنهما ، ولم يحر زسهما منهما ، فعادة الناس أن يرموه بالمعايب ، و يشنوا عليه المثالب ، ومايكادون يرونه جديرا بشىء من الاحسان ، لانهم حصروا الفضل فى فصاحة اللسان و براعة الجنان ، وهو عندى فى الجملة غير الصواب ، والقائل به إنما يقول مجازفة بدون حساب ، فان كثيرا ممن ليس لهم أحد هذين الشأنين ، يحسنون مباشرة الامور والتقلب فى الرياسة من دون شين ، فكم من أمى ساس العباد ، وعمر البلاد ، وليس له فى صناعتى الكلام والتأليف يدان ، حتى كأن لا أنامل له ولا لسان ، وانما هو نور يقذفه الله فى قلبه فيرى به سليم الامور وسقيمها ، ومنتجها وعقيمها ، والحرى منها بالاجراء ، والنافع منها عند الاستقراء ، فيشمر له عن ساعد الهمة ، و يوفقه الله الى اصلاح أمر الامة ، وانما يكون هذا فى أفراد الناس نادرا ، ولذلك قل ماترى له منهم ذاكرا ، وأحسن الملكات وأجل الغريزات ما نفع النات (١) ، ودفع عنهم الترهات ، وألفهم على المودة والاخاء ، وأزال من بينهم العداءة والبغضاء والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

(١) النات الناس أنشد الشاعر

يا قبح الله بنى السعلات * عمرو بن يربوع شرار النات * ليسوا اعفاء ولا أكيات

أراد أنهم من شرار الناس وأنهم غير أكياس

الموسيقى

قبل الدخول فى هذا الباب الحرج ينبغى ان استأذن أهل هـذا الفن فى التطفل على الكلام فيه وان كنت لا أعد منهم غير أنى عرفت منه ما يمكننى من معرفة المستقيم منه من غير المستقيم . فاعلم ان لفظة الموسيقى يونانية منسوبة الى موسى احدى الالهات التسع التى تنسب اليها الفنون الظريفة كالعروض والشعر والغناء والرسم والتصوير، ومرادفها فى العربية «ألتلحين» من اللحن وعرفه صاحب القاموس بانه من الاصوات المصوغة الموضوعة . وحقيقة معناه امالة الصوت على وجه الترجيع والتطريب وجميع مشتقات هذه المادة تدل على الميل ، ومنه اللحن فى الكلام وحاصله ميل عن جهة الصواب، وقد جاء هذا المعنى أيضاً من لفتَ وعَصَد وأصلهما اللىّ ومن لخ وأصله الميل فى الحفر ومن لغز وأصله الميل بالشىء عن جهته وكذلك اللحن الذى هو كالتعريض والكناية، قال الشاعر

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا ※ واللحن يعرفه ذووا الالباب

فكأن المراد به الميل عن جهة التصريح والايضاح، ثم قيل منه لحنت القول ، أى فهمته، ويرادفها أيضاً «الايقاع» وكان المراد به ايقاع الصوت على النغم ثم حذف المفعول قال بعض العلماء . ان فن الموسيقى فضلة من المنطق أخرجها العقل بالصوت لما لم يمكن اخراجها بالقياس . فعلى تاويل المنطق بالمعنى الاصطلاحى يكون المراد منه ان أركان هذا الفن ذهنية بناء على ان المتقدمين كانوا يتعاطونه بالسماع، ويتلقونه بالذوق، فيرسم السامع ما يسمعه من الاصوات فى مخيلته وذاكرته، دون مشاهدة علامات و رسوم تدل عليه، وهكذا ياخذه التلميذ عن معلمه و يتلقاه بالترسم عن ظهر القلب والاتباع ، مع الملكة التى ترسخ فى مخيلته تلك الترجيعات ، ولهذا كان المعول عليه فى تحصيل هذا الفن ملكة الذوق، اما الافرنج فقد جعلوا الان ترجيع الصوت وايقاعه داخلا تحت حس المشاهدة فدلوا عليه بنقوش و رسوم معلومة كما دلت الحروف على المعانى فلم يكن تحصيله متوقفا

على ذاكرة وعظيم معاناة كما فى السابق، وكاد يتساوى فيه الذكى والغبى ، فمن عرف منهم مخارج النغم ورأى تلك العلامات أمكن له أن يخرج عليها أى صوت كان ، واذا اجتمع منهم عشرون رجلا وكانت امامهم تلك النقوش رأيت منهم متابعة واحدة . ويرد على هذا التاويل انه لو كانت الموسيقى فضلة من المنطق لكانت واحدة الاستعمال كما ان المنطق واحد الضوابط والقواعد، على ان الناس متباينون فى هذه الفضلة مثل تباينهم فى لغاتهم وعباراتهم فان ألحان العرب لا تطرب غيرهم بل هؤلاء أيضاً يختلفون فان أهل مصر لا يطربون لالحان أهل الشام وغيرهم وألحان الافرنج لا تطرب أحدا منهم وعلى تأويل المنطق بالمعنى اللغوى وهو المراد هنا فقد جاء فى شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة : النغم فضل بقى من المنطق لم يقدر اللسان على اخراجه فاستخرجته الطبيعة بالالحان على الترجيع لا على التقطيع فلما ظهر عشقته النفس وحن اليه القلب . والمراد بقوله على الترجيع لا على التقطيع هو أن يكون الصوت ممتدا ينحى به ويمال لا متقطعاً كأصوات الهجاء . فاذا كان فن الموسيقى والحالة هذه فضلة عن المنطق لزم ان نقول ان لكل جيل محاسن فى غنائهم مقصورة عليهم فقط كما ان لكل لغة محاسن فى عباراتها لا توجد فى غيرها . والواقع بخلاف ذلك . فان لغتى الهند والصين مثلا تشتملان على كثير من المحسنات مما لا يوجد فى غيرهما مع ان انغامهم خالية عن ذلك أصلا . أما ألحان الافرنج فلا يطرب لها منا الا من الفها وهى على أربعة أنواع . الاول وهو أحسنها ما يتغنى به فى الملاهى مثل الموشحات عند نا مع مد الصوت ، وترجيعه وخفضه ، ورفعه ، وترقيقه ، وتفخيمه ، وترجيفه ، وفيه تدخل نبرات تدل على الحماسة والتحريض والتذمير . والثانى وهو قريب منه ما يرتل به فى الكنائس ولا يكاد يكون به ترجيف . والثالث ما يتغنى به فى البث والمحزنات . وفى هذا النوع يستعملون غناء رقيقاً رخيماً أشبه بالنجوى فمن يسمعه يلحن ما المراد به وان كان جاهلا باللغة ، كما اذا رأيت

شخصا مجهشاً للبكاء فانك تعلم اجهاشه بالبديهة وان لم تعرف سببه . والرابع ما يتغنى به في المضحكات والمحاورات وهذا يقل فيه الترجيع ويكثر فيه النبر وتطريبه انما هو من حيث انهم يوقعون عليه ألفاظا غريبة ويصلونه بحركات مضحكة ومحاكيات مختلفة فيضحكون فيه ويقهقهون ويبكون ويتثاءبون ويعطسون ويحاكون به قيق الدجاجة وزقزقة العصفور وغير ذلك . وفي كل من هذه الانواع يستعملون المساجلة وهي مطربة جدا وأكثرها في النوع الاخير . وكما ان لهم غناء مضحكا كذلك لهم رقص مضحك ينسي الثكلى حزنها . أما العرب فانهم يقولون ان الرصد يشجي والسيكاه يفرح والصبا والبيات يحزنان وهلم جرا والفرق بين الفريقين من عدة وجوه . أحدها ان الافرنج ليس لهم صوت مطلق الانشاد من دون تقييد بتلك النقوش ، فاذا اقترحت على أحدهم مثلا ان يغني بيتين كما يفعل عندنا في القصائد والواليات من دون نظر الى تلك العلامات لما جاء بشيء ، وهو غريب بالنسبة الى براعتهم في هذا الفن ، لان الانشاد على هذا النوع طبيعي . وقد كان عندهم من قبل تلك النقوش ، فياليت شعري كيف كان غناؤهم قبل ان نبغ غيدو راتز والطلياني الذي رسم العلامات وهو حديث العهد ؟ الثاني انه اذا اجتمع منهم عشرة مغنين مثلا وأرادوا اخراج موشح أخذ بعضهم في بعض أركانه من مقام ، وبعض في بعض آخر من مقام آخر ، وهكذا فاذا كانت الاغنية مثلا من الرصد ، غنى واحد جزءا من هذا المقام بصوت جهير ، وآخر جزءا من النوى بصوت بين ، وآخر جزءا من الجواب بصوت عال ، فيسمعه السامع من عدة مقامات ، ويقال له عندهم « هرموني » ومعناه التالف أي ان الاصوات تتالف على الغناء من مقامات شتى . وفي هذه الطريقة فوائد ومخاسر . أما الفوائد فلان السامع يسمع في وقت واحد نغمات مختلفة ، باصوات مؤتلفة ، فهو كمن يسمع قصيدة واحدة من جميع بحور العروض على روي واحد . وأما المخاسر فلان السمع لا يتمكن كل التمكن من ادراك جميع مخارج

الاصوات المتغايرة، وعندي ان هذه الطريقة على الالات أحسن منها على الاصوات . الثالث ان غناء الافرنج هو مثل قراءتهم في انه يخلو عن حماسة وتهييج فضلا عن التصبية والتشويق والترقيص، وغناء الحماسة والتهييج هو الذي به ذكر القتال، وأخذ الثار، والذب عن العرض، وحماية الحقيقة . فاذا سمعه الجبان ولا سيما من الآلات العسكرية هانت عليه روحه . أما غناء العرب فكله تشويق وتصبية وأجدر به ان يكون جامعا لمعني الطرب وهو خفة تصيب الانسان من فرح أو حزن . فاذا سمع أحد منا صوتا أو آلة شغف قلبه الغرام فبدت صبابته وحنت نفسه كما يحن الالف الى إلفه حتى يصير عنده آخر الفرح ترحا . ولا غرو ان يصعد منه الزفرات، ويحدر العبرات، فان السرور اذا تفاقم أمره، وطما بحره، وتكامل بدره، دب فيه محاق الشجن، واختلط به الحزن، حتى يستغرق صاحبه في بحر من الوجد، ويشتعل بنار من الهيام، وعلى ذلك جاء قولهم طرب به وشجاه من الاضداد . الرابع ان الافرنج لا قرار لاصواتهم الا على الرصد، نعم ان جميع الانغام لها مقامات في آلاتهم بل توجد أيضا انصافها وارباعها، الا مقامين منها الا انهم لا يقرون الا على المقام الاول وقد سمعت منهم الرهاوى والبوسليك والاصفهان، أما غير ذلك فلم أسمعه قط بل قد سمعت منهم بعض أغاني نقلوها عن أغانينا وأوقعوها على آلتهم فكانت كلها رصدا، مع ان العساكر السلطانية هنا يخرجون على آلتهم جميع الاصوات اخراجا متمحضا متخلصا لا يشوبه شيء، واذا أخرجوا من الالحان التركية شيئاً كان أيضا متمحضا عن غيره، فكيف هذا وقد والله طالما وقفت السمع على ان أسمع منهم أنغامنا فخبت حتى اعترتني الحيرة؟ فاني من جهة كنت أرى آلاتهم بديعة الصنعة على كثرتها وأفكر في ان العلوم انتهت اليهم والفنون قصرت عليهم وان عندهم في هذا الفن بخصوصه بدائع كثيرة قد فاتتنا على ما سبق، ومن جهة أخرى رأيت ان براعتهم كلها انما هي من مقام الرصد، نعم ان هذا المقام هو أول المقامات وانه يغني

منه في مصر وتونس أكثر مما يغني من غيره الا ان فضل غيره أيضاً لا ينكر، ثم أفكر في ان «نايا» الذي هو مجرد قصبة خالية في الظاهر عن بديع الصنعة الظاهرة في آلاتهم يخرج منه من النغم ما لا يخرج من آلاتهم الكثيرة المتنوعة ولا سيما هذه الآلة المسماة «بيانو» التي يبلغ ثمنها خمسين ليرة فاكثر، ثم أعود فاقول لا غرو ان يكون قد فاتهم في هذا الفن محاسن ودقائق كما فاتهم أيضاً في غيره، وذلك ككثرة بحور العروض عندنا، وكبعض محسنات الكلام، وكالسجع في الكلام المنثور، اذ ليس عندهم سوى المنظوم، وهو في الانشاء كالصوت المطلق في الغناء وكلاهما فاتهم، وكعجزهم أيضاً عن النطق بالاحرف الحلقية مع استطاعتهم على ان يطيروا في الجو، وقد سألت مرة احد أرباب هذا الفن منهم فقلت ان مقامات النغم موجودة عندكم وعندنا على السواء وكذا انصافها فبقي الخلاف في استعمالها فإنا لو استعملنا مثلا نصفا من الانصاف مع مقام وأنتم تستعملونه مع مقام آخر بحيث يظهر لنا انه خروج فمن أين تعلم الحقيقة؟ فما كان منه الا ان قال ان هذا الفن قد وضع عندنا على أصول هندسية لا يمكن مخالفتها فلا يصح ان يستعمل فرع الا مع أصل . على اني كثيرا ما سمعت منهم خروجا فاحشا على شغفي بفنهم . وقد شاقني يوما بعض المادحين الى سماع قينة بالغ من صيتها انها غنت في مجلس أمبراطور الروسية فلما سمعتها طربت لرخامة صوتها الانثوي وطول نفسها في الغناء الا اني أنكرت منها نبرات فاحشة وخروجا مكروها بحسب ما وصل اليه ادراكي . ولو تيقن ان الحان الروم التي يتغنون بها اليوم هي عين الحان الفلاسفة اليونانيين لكان ذلك دليلا آخر على قصور الحان الافرنج، فان الحان الروم مقاربة لالحان العرب . الخامس ان أصحاب الآلات من الافرنج لا يحسنون اخراج انصاف النغم وارباعها ما لم تكن مرسومة لهم في الآلة الا العازف « بالرباب » أو « الكنجة » أما « الناي » عندهم ففيه خروق شتى غير السبعة الاصول لكل اثنين منها سدادة تنطبق على واحد منها ، فاذا سد بها منخر، جاش منخر غير ان الصنعة في احكام

سدها واستعمالها تقارب صنعة نقل الاصابع عندنا ، وهذه الانصاف والارباع في النغم مثل الاشمام والروم في الحركات ، وفي الجملة فان للافرنج في هذا الفن حركات خارجة عن ذوقنا وأخرى لا يمكن محاكاتهم بها . ومن الغريب انه مع كثرة ما عندهم من الآلات لهذا الفن فقد فاتهم « العود » على محاسنه « والناى » من القصب ، فان نايهم هو كالزمر ليس له صوت رخيم ، على ان أكثر المؤرخين قرروا ان أصل الموسيقى مأخوذ عن صوت الريح في القصب . وكان اختراع الناى أو الزمر في سنة ٥٠٦ قبل الميلاد ونسب الى هيجنيس . وعندي ان أشجى آلة من آلات الافرنج هي المسماة « بالكنشرتينو » وهي نحو المنفخ تفتح وتطبق لها صوت يحاكي صوت أنثى ويقال انها من مخترعات ونسطون الانكليزي .

ومن المعلوم انه كلما رقت طباع الناس ولطفت اخلاقهم كانوا الى المحاضرة في مضمار الطرب اسبق ، وخواطرهم اليه ابسق ، فان المولع بغر المعاني واسرار الكلام لا يسمع الالحان الا و يتصور معها من الحسن ما يهيم به وجدا قبل ان يشعر الغبي بمجرد معرفة كونها غناء ولا سيما اذا كان الانشاد معربا والوقت معجبا . وقد جاء في شرح لامية العجم للعلامة الصفدي : من لم يحركه العود وأوتاره ، والربيع وازهاره ، فهو فاسد المزاج بعيد العلاج . ومن الغلط البين أن يقول الانسان انى لا أطرب لهذه الالحان لجهلي باللغة . فان الطرب انما يكون عن الصوت اصالة لا عن الالفاظ ، ومتى اجتمع الامران كان الحظ اوفر . والذي يظهر لي ان الانغام التي كان يتغنى بها في زمان الخلفاء كانت اشبه بغناء المغاربة الآن منها بغناء المشارقة ، والفرق بينهما ان غناء المشارقة فيه مد وتطويل ، وغناء المغاربة فيه درج ونبر ، واللازمة التي يستعملها هؤلاء هي « دي دي » كقول أهل مصر والشام « ياليل » وكقول الترك « أمان » وفي القاموس ما كان للناس حداء وضرب اعرابي غلامه وعض أصابعه فمشى وهو يقول

«دى دى دى» أراد يا يدى فسارت الابل على صوته . فقال له الزمه ، وخلع عليه ، فهذا أصل الحداء . وفيه دليل على أن البهائم تطرب للتلاحين . واسماء الانغام عند المغاربة مخالفة لاسمائها عندنا . وهم يدعون بانهم أخذوا هذا الفن عن أهل الاندلس . وأهل تونس أكثر ترسلا منهم ، فهم واسطة بين المغاربة والشارقة . أما المواليات فمن خصوص أهل مصر والشام وكذلك الناى «والقانون» . وكما ان غناء أهل مصر اطرب واعلى من غناء جميع العرب كذلك كان غناء الطليانيين أعلى من غناء سائر الافرنج وذلك لكثرة ما فى لغتهم من الحركات فهى مثل لغتنا صالحة للغناء والعروض ولكون أصواتهم أيضاً صادرة عن صدورهم . اما لغة الانكليز فلكثرة السواكن فيها لا تطاوع على الغناء الذى فيه مد وترجيع الا بتحويل الالفاظ عن وجهها . وانما هى لغة امر وزجر ، ولغة الفرنسيس وغناؤهم بين بين . وجميع الافرنج يقولون ان غناء العرب من خياشيمهم . وعلى فرض تسليم ذلك فما يكون منافيا للتطريب فان اللغة الفرنساوية لا يتكلم بها الا مع الغنة . وهى مع ذلك اشجى لغات الافرنج ، فربما طرب لها من سمعها أول مرة من عمره ، والظاهر ان العرب لا تأنف من الغنة فى الغناء وحسبك ان أصل تغنى تغنن نحو تظنى وتصدى وقد رأيت من الافرنج من كان يطرب للانغام المصرية ولكن غب طول مكث فيها وكان يقول أولا انها محزنة ولا يخفى ان للعادة تأثيرا فى جميع الاحوال وخصوصا فى المنطق والالحان وناهيك ان الاطفال عندنا وعند الافرنج ترقد على الغناء فتعتاد عليه وتألفه وقد قيل العادة طبيعة خامسة .

أخلاق العلماء

من الناس من يتعلم العلم وهو مجبول على صفات حميدة فيزداد هدى ورشدا وورعا ودماثة أخلاق، وحسن تصرف، واستقامة طبع، ونزاهة نفس، وصفاء عقيدة، واخلاص مودة، وسلامة نية، وعفة قلب ولسان، وانبساط يد. فمثله كمثل الجوهر الشفاف إذا قابله شعاع الشمس. أو كمثل إناء من زجاج نظيف صاف إذا وضع فيه الماء لم يغير من طعمه شيئاً، فتراه دائماً مقبلا على نفع الناس. ساعيا في إصلاح شؤونهم، وتسنية أحوالهم، باذلا أقصى جهده في تسكين خواطرهم، ولم شعثهم، وتأليف متفرقهم، وتسلية حزينهم، وإرشاد غاويهم، وتأييد ضعيفهم. وليس من همه التردد على أبواب الامراء، والخضوع لحجابهم، وملاينة خدمتهم، ولا استعطاف ذوى الثروة والعز، حتى ينال منهم وظيفة أو رزقا. ولا التشدق بالابيات والنوادر حتى يعجب السامعين، ويحملهم على اكرامه وتعظيمه. ولا التعرض لما لا يعنيه حتى يقال فيه أنه ذو همة وسعى، وانما همه كله في مراعاة ما يقتضيه العلم، وهو فعل الخير لوجه الله تعالى. فهذا هو العالم الذى يحمد حيا وميتا، ويبقى اسمه مذكورا بالخير في كل مكان وزمان، وهو الذى تتبرك الناس بنقل أقواله، كما يرتاحون لحمد أفعاله، وكلما ذكرت سجية حسنة، وخلة مستحسنة، ذكروه بها، ونسبوا اليه كثيرا من أمثالها، فان من طبع الناس ان ينسبوا الى من عرف بالمحامد والفضائل في عصره، كل حمد وفضل عُرفا لغيره

ومنهم من يتعلمه وهو مجبول على بعض صفات ذميمة فيتهذب به بعض التهذب ويتغير به بعض التغير، فشأنه أن يبقى فيه علمه وشره كالقرنين المتكافئين، فمرة يقوى

علمه على شره وذلك إذا تذكر ما مر به من قصص الصالحين ، وسيرة أهل السمت والخير فيؤثر الاقتداء بهم ، ومرة يقوى شره على علمه إذ يطمس الله على قلبه فينسى ما قرأه وسمعه و يتبع هواه ، فمثله كمثل الشمس فى شهر الغيم تبدو مرة وتختفى أخرى ، وهذه الحالة هى التى تحير الناس فى وصفه فترى بعضهم يمدحونه كل المدح ، و بعضهم يذمونه كل الذم ، وكل فى نفس الامر صادق ، إلا أن العادة أن خلة واحدة مستهجنة ، تمحو خلالا كثيرة مستحسنة ، فكأى من محسن مجبول على الاحسان زلت به قدمه مرة فصارت حسناته كلها فى أعين المتمنتين عليه سيئات .

ومنهم من يتعلمه وهو على الاخلاق الذميمة فلا يزداد به الا طيشاً وتترعا الى الشر ، واضطرابا فى الرأى ، وحدة فى الطبع ، وشراسة فى المعاملة ، وتطاولا على حقوق الناس ، وتهافتا على الطعن فيهم ، فمثله كمثل شمعة موقدة معرضة لعواصف الرياح فلا تزال الرياح تعبث بها يمنة و يسرة ، حتى يتمنى الناظر اليها إطفاءها بالمرة .

ثم إن كل علم نافع وكل نافع ممدوح ، الا أنه ينبغى النظر فى حقيقة معنى النافع فان من يقصد العلم لينفع به نفسه دون غيره لم يبق ذاك النفع الخاص مستوجبا للمدح العام ، وكيفية اقتصار الانسان على نفع نفسه هو أن يزدرى بغيره حتى يصير مرجع المسائل اليه ، وأن يستحل أموال الناس بما تسول اليه وساوس نفسه من أنهم لم يحرزوها على وجه الحق ، وأن يتهددهم باظهار عيوبهم فى الاماكن التى ينتابها حتى ينيلوه كلما يقترحه عليهم ، وان يغرى زيدا بعمرو ، و يغرى عمراً على زيد ، و يتربص بهما الرزايا والبلايا فيرزأ من كل منهما ، وأقبح من ذلك أن يتعرض لغيره إذا عرف أنه ينال رزقا فيسعى فى قطع رزقه و إن لم يعد عليه ذلك بعائدة ، فنفع نفسه هنا غير حقيقى و إنما هو باعتبار ضر غيره ، وهو مثل ابليس لا محاله ، لان ابليس لا نفع له من وقوع البشر فى المهالك الموبقات الا الشماتة بهم ، أو مثل الجعل الذى يرتاح لحمل الاقذار و يأنف من رائحة الطيب

ومن العيب كل العيب أن يظل العالم مترقبا زلة غيره ، ومتربصا لحلول الشر بهم ، ولا لذة له من ذلك ولا نفع سوى مجرد وقوع الضر بمن يكرهه . فاذا أردت أن تختبر جليسك لتعرف من أي صنف هو من هذه الاصناف الثلاثة فاذكر له نعمة انسان وفضله وعلمه فان رأيته قد فرح بذكرها ، وتمنى بقاءها عليه ، فهو من الصنف الاول ، وإن رأيته قد سكت أو نسب ذلك الى بطر الزمان ، وعوارض السعد ، فهو من الصنف الثاني . وان رأيته قد امتعض فهو من الثالث ، وهو الذي لا يحب خير أحد ، وهو الذي علمه فيه كالقرط في أذن السنور ، أو كالنعومة في بطن الثعبان ، وهو الذي يجب الاحتراز منه كما يحترز من الجاهل بل أكثر ، لان كلام الجاهل لا يؤثر في أحد وإنما التأثير لكلام العالم ، إلا أن الحق عصمة كل معتصم به ، وفعل الخير جُنة كل من تحصن به ، فاذا واظبت على حب الحق وفعل الخير فلا تخش شر أحد من الناس ، وما عليك إذا تجنى الناس عليك وأنت بريء عند الله ، فعليه وحده عول ، وبه اعتصم ، واليه التجيء

كيف تدرس

الادبيات العربية في كليات انجلترا

تصور مثلا أن قارئاً يقرأ على الشيخ قول أبي تمام

همة تنطح النجوم وجد * آلف للحضيض فهو حضيض

فيقول الشيخ بلغته : النطاح مختص بالحيوانات التي لها قرون كالثور والتيس والوعل ونحوهما ، وقد ذكر في التوراة مرات كثيرة ، ويمكن أيضا أن ينسب الى ما ليس له قرن . فقد روى ليناوس الذي قسم جنس الحيوان الى سبعة أقسام : أن الحيوانات الجماء تتناطح بجباهها . وقد أطلقت العرب اسم الكبش على آلة من آلات

الحرب لما أنها تنطح الجدار . والنجوم معروفة . وقد كانت العرب تهتدي بها في أسفارهم قبل أن عرفت خاصية إبرة المغنطيس . ولما كانوا مشتغلين بالعلوم الفلكية والطبية لم يكن في أوربا من يشم لها رائحة ، ثم لما فتحوا اسبانيا أو جزيرة الاندلس أخذ عنهم العلم بعض من الافرنج ومنهم سرى في سائر بلدان أوربا ، وكان انقراض الملك من قرطبة سنة ١٠٣١ بعد أن دامت العرب فيها أصحاب أمر ونهي وسيادة نحو ٢٧٥ سنة . أما الالف واللام التي في النجوم فهي أداة التعريف ، وهي في الطليانية والاسبانية « ال » للمذكر « ولا » للمؤنث ، واللغة اللاتينية ليس فيها أداة تعريف ، فأما اليونانية ففيها عدة أدوات ، ويوجد في لغتنا ألفاظ كثيرة مبدوءة بهذا الحرف منها ما هو عربي وذلك نحو الكنا « الحناء » والكحل والقائد والجبره « الجبر » والقرآن والقلي والقرثم أو الكرزيم ، ومنها ما هو من لغة أخرى . فأما اللغة الاسبانيولية ففيها من هذا النوع ألفاظ لا تعد . فاما عدم النطق باللام في النجوم فلكون النون من الحروف الشمسية . ثم ان أول من قرر طريقة سير النجوم حول الشمس وسير القمر حول الارض ونسبة بعضها الى بعض ، وعلة المد والجزر ، والنور والجاذبية ، والاعتيادية ، الفيلسوف نيوتن ولد في سنة ١٦٤٢ ومات سنة ١٧٢٧ وكان ذا جد ومثابرة على العلم لا تنظر . أما قوله جد آلف للحضيض فالحضيض هنا معناه الارض من تسمية الكل بالجزء ، وورود في التوراة كثير . وفحوى البيت أنه أي الممدوح ذو عناية بالارض أي بحرثها واحيائها وانشاء المدن فيها وتسوية الاحكام بين أهلها لان الارض كثيرا ما تذكر ويراد بها سكانها وذلك أيضا مستفيض في التوراة (*)

(*) روى الشيخ فرس في بعض كتبه فقال : ان عامة الانكليز يقرأون التوراة والانجيل بلغتهم ولكن قل منهم من يفهمها ، وقد جرى مرة ذكر ذلك بحضرة جماعة ادعوا بأنهم لا يفوتهم شيء من فهم الكتاب الاول وان سعادة بلادهم وغبطة أحوالها انما تسببت عن ذلك ، فقلت لهم : أما السعادة والغبطة فلست أباحثكم فيهما ولا أسلم لكم بأنكم أسعد من غيركم . وأما الفهم فما أخالكم تفهمون ما تقرأون في التوراة . قالوا : سلنا عن شيء منها ؟ فقلت : على شرط

وهكذا يمشي على انعكاس البيت بهذا القصد هو وتلامذته وبعد انقضاء ساعة ونصف على تاويل هذا البيت يقومون وهم سامدو الرءوس عجبا وفخرا ويظنون أن شيوخ الجامع الازهر والاموي والزيتونة هم دون هذا التحرير

مفاضلة

بين الرجل والمرأة

قال بعض الفحول من العلماء : ان المرأة أشرف من الرجل وأفخم ، وأنبل وأحلم ، وأفضل وأكرم . أما وجه كونها أشرف فلأن شاهدى تانيثها واقفان فى محل مرفوع بحيث يمكن لها ان تراهما أو ترمهما اذا شاءت من دون تطاطئ رأس وانحناء ، وفى ذلك من العز والشرف مالا يخفى ، ألا ترى ان بعض الادباء قال : ان من عز « لا » ان يقولها الانسان وهو رافع رأسه ، ومن ذل « نعم » ان يقولها وهو خافضه . اما شاهدا الرجل فهما منكوسان فى محل منخفض بحيث لا يقدر ان يراهما الا اذا تطأطأ وانحنى . وأما وجه كونها أفخم فلأن ساقيها اللتين هما عمودان لهيكل الجسم ، وبطنها الذى هو منبت لتكون النسمة ، وعجزها الذى هو مورد للاعجاز ، تكون أفخم من ساقى الرجل وبطنه وعجزه . واما وجه كونها أنبل فلأنها تنبل بما يلقى اليها مدة تسعة أشهر . وأما وجه كونها أحلم فلأن نسمة الحلم ترى فى شاهدى تانيثها . وأما وجه

أن لا يسوءكم . قالوا : لا تخش من الاساءة فان هذه البلاد بلاد الحرية . قلت : ما معنى « الغرلة » حين طلب شاؤل من داود أن يمهر ابنته مائة « غلفة » من أهل فلسطين فمضى داود وقتل منهم مائتين وجاء بغلفهم الى شاؤل ؟ فقالوا : لا ندرى . فقلت بل لا تدرون أيضاً كيف أن الرجل يمهر المرأة فان عادتكم بخلاف ذلك قالوا : بين لنا هذا . قلت : ههنا نساء وأخشى أن أفسر لكم معنى اللفظة فتنقبض النساء . قالوا : ان كان ذلك كلام الله فلا حرج . ففسرت لهم حينئذ معناها . فما كان من احدى النساء الا أن أخذت الكتاب ورمت به الارض وقالت : معاذ الله أن يكون هذا الكلام كلام الله

كونها أفضل فلأنها خلقت من الرجل وعقبه ، وهو خلق من تراب ، لكنها اذا ماتت — معاذ الله من ذلك — تستحيل الى تراب كالرجل، لا الى أصلها الذى أخذت منه أى لا تصير رجلا ولا ضلعاً . وأما وجه كونها أكرم فلأنها أرق فؤاداً، وأرحم قلباً، وألين طبعاً ، فاذا رأت أحداً محتاجاً الى شىء من عندها لم تضن به عليه ، وناهيك ما جاء عن مادح السيدة زبيدة اذ قال :

أزبيدة ابنة جعفر * طوبى لزائرك المثاب

تعطين من رجليك ما * تعطى الأكف من الرغاب

فلما أنكر الوصفاء عليه ذلك وهموا بضربه انتهرتهم وأحسنت اليه لعلمها انه لم يخطئ الوصف . وقال فحل آخر : ان المرأة تعمر فى الغالب أكثر من الرجل ، وسبب ذلك أنها لما كانت مفطورة على اللين والطفولة والنعومة ، كان لها ان تتلقى ما يستقبلها من الحوادث بالصبر والتأنى ، فتكون به ميلاء أى تارة تميل الى هذا الشق وتارة الى ذلك ، فمثلها كمثل الغصن الرطيب يميل مع الريح فلا ينقصف . فأما الرجل فانه لما كان مفطوراً على القسوحة واليبوسة ، فمتى دهمه أمر تصلب له واقسحر فلا يلبث ان يعطب به ، فمثله كمثل الشجرة اليابسة اذا قويت عليها الريح . ومن خواصها أيضاً ان الخمرة لا تبلغ منها قدر ما تبلغ من الرجل ، واختلفوا فى تعليل ذلك ، فذهب قوم الى ان فى دم المرأة قوة جاذبية تغلب على الخمر فتجذبه سفلا فلا يصعد الى دماغها . وزعم بعض ان فى المرأة نوعاً من الخمر يسمى رضاباً وهو فيها قوى جداً ، بحيث اذا خالطه الشراب أى شراب كان ذهب بقوته ، والقطرة من هذا النوع تباع أحياناً ببدرة، وأحياناً برأس انسان أو بعنقه

شكوى ونواح

قد تفلت الفاریاق من نادیکم ، وانملص من بين أيادیکم ، وعنجر فی وجوهکم جميعاً، وأصبح لا يخاف لكم وعيداً ، وبقى الآن ان أذكركم ما أشططتم به من الظلم والطغيان، والجور والعدوان، على أخى المرحوم أسعد. اذ أودعتموه السجن فى داركم الوزيرية بقنوبين نحو ست سنين . وبعد ان أذقتموه جميع ضروب الذل والهوان والبؤس والضنك فى صومعة صغيرة لزمها فلم يكن يخرج منها الى موضع يبصر فيه النور أو يستنشق الهواء الذين يمن بهما الخالق على الابرار والفجار من عباده . قضى نحبه وما كان سجنكم له الا لمخالفته لكم فى أشياء لا تقتضى عذابا ولا عتابا . وما كان لكم عليه من سلطان دينى ولا مدنى . أما الدينى فان المسيح ورسله لم يأمروا بسجن من كان يخالف كلامهم وانما كانوا يعتزلونهم فقط . ولو كان دين النصارى نشأ على هذه القساوة والوحشية التى اتصفتم بها الآن أنتم رعاة التائهين وهداة الضالين لما آمن به أحد . اذ لا أحد من الناس يصبو الا اذا كان يرى الدين الذى خرج اليه خيرا من الذى خرج منه . وكل انسان فى الدنيا يعلم ان السجن والتجويع والاذلال والتوعد والتأويق والتشنيع ليس من الخير فى شىء. وناهيك ان المسيح ورسله أقروا ذوى السيادة على سيادتهم وإمرتهم . ولم يكن دأبهم الا الحض على مكارم الاخلاق والامر بالبر والدعة والسلم والاناة والحلم . فانها هى المراد من كل دين عرف بين الناس . وأما المدنى فلأن أخى أسعد لم يأت منكرا ولا ارتكب خيانة فى حق جاره أو أميره أو فى حق الدولة . ولو فعل ذلك لوجب محاكمته لدى حاكم شرعى . فاساءة البطرك اليه انما هى اساءة الى ذات مولانا السلطان لانا جميعا عبيد له مستأمنون فى أمانه وحكمه . وكلنا فى الحقوق سواء . اذ البطرك ليس له حق فى ان يخطف من بيتى درهما واحدا الوشاء ، فأنى له ان يخطف الارواح . وهب ان أخى

جادل في الدين وناظر وقال انكم على ضلال فليس لكم ان تميتوه بسبب هذا . وانما كان يجب عليكم ان تنقضوا أدلته وتدحضوا حجته بالكلام أو الكتابة اذا أنزلتموه منزلة عالم تخشون تبعته . والا فكان الاولى لكم ان تنفوه من البلاد كما كان هو يطلب ذلك . بل أصررتم على عتوكم في تنكيله وزعمتم ان فراره من داركم مرة لنجاة نفسه كان زيادة في جنايته وجريرته فزدتم تجبرا عليه وظلما . وكانى بكم معاشر السفهاء تقولون ان اهلاك نفس واحدة لسلامة نفوس كثيرة محمدة يندب اليها . ولكن لو كان لكم بصيرة ورشد لعلمتم ان الاضطهاد والاجبار على شيء لا يزيد المضطهد وشيعته الا كلفا بما اضطهد عليه . ولا سيما اذا علم من نفسه انه على الحق وان خصمه القاهر له على ضلال ، أو انه متحلٍّ بالعلم والفضائل وقرينه عُطْل عنها . فقد فاتكم على هذا العلم الديني والسياسي وعرضتم عرضكم للقذف والتسويد ، وذكركم للمقت والتفنيد . ما دامت السماء سماء والارض أرضا . وان أخي رحمه الله وان يكن قد مات فذكره ان يموت وكلما ذكر ذاكر من أهل الرشد والبصيرة ذكر معه أيضا سوء فعلكم ، وافحاشكم ، وغلوكم ، وجهلكم ، وشناعتكم ، ولقد لعمري أخرج عنكم بموته من شيعتكم هذه المتوحمة على سفك الدم أكثر مما لو بقي حيا وحسبك بالخواجا ميخائيل مشاقه الاكرم وبغيره من ذوي الفضل والبراعة مثالا . ألم تأخذكم يا غلاظ الاعناق رأفة في شبابه وجماله . ألم تأثر قلوبكم التارزة لصفرة وجهه حين حجبتموه عن النور والهواء وحين ذوت غضاضة جسمه وبضاضته ، وحين لم يبق من ترارته غير الجلد والعظم وبخلتم عليه أيضا ان تطلقوه بهما . ألم تشفقوا عليه اذ رأيتم أنامله قد ضنيت لعوز ما كان يتمتع به حُمُر ديركم ، ولقد طالما والله أخذت القلم فخطت ما يعجب به الملوك . ولقد طالما والله صعد المنبر فخطب فيكم ارتجالا والعرق يتصبب من جبينه ذاك الصليت . ولشد ما أبكى سامعيه تذكيرا وتزهيدا ، وطالما ألف وعرب لكم كتبا ركيكة وعلم حمقى رهبانكم واخرجهم من ظلمات الجهل . ألم يخز

وجوهكم الصفيقة ما كان يترقرق في وجهه من ماء الحياء فكان أشد خفرا من مخدرة . وانه كان عزيزا في أهله مكرما عند الامراء محببا الى الخاصة والعامة . نزيه النفس ، كريم الخلق ، فصيح اللهجة ، أنيس المحضر ، أمثله يحبس ست سنين ويذل وينكل ويموت والله يعلم بأي شيء مات ؟ . أبال الكنائس الفرنساوية ، والنمساوية ، والانكليزية ، والمسكوبية ، والرومية الارثوذكسية ، والانصارية ، والرومية الملكية ، والقبطية ، واليعقوبية ، والنسطورية ، والدرزية ، والمتوالية ، واليهودية ، لا تفعل هذه الفظاعة والشناعة التي تفعلها الكنيسة المارونية ؟ أم هي وحدها على الحق والناس أجمعون على الباطل ؟ ألستم تزعمون ان ملك فرنسا هو مجير الدين وناصره . والناس من أهل مملكته الكاثوليكيين ما زالوا يطبعون كتبا يندددون فيها بعيوب رؤساء كنيستهم ، وقبائحهم ، وسفاهتهم ، وفحشهم ، وشراهتهم ، والحادهم ، بل إن كثيرا منهم قد ألفوا تواريخ خاصة عما كان عليه الباباوات من الفسق والفجور وسوء التصرف وبكفرهم بخلود النفس والوحي وبالهية المسيح

محاكاة الكاستاني

﴿ حكاية ﴾ رأيت قوما يتسابقون حشدا ، ويتزاحمون حفدا ، فمن بين ضاغط جاره ، ومهطع كأنه يشن الغارة ، فقلت تا الله ما اجتمعت هذه الجماعة إلا لامر عظيم ، ولا قصدت إلا مقصد خير عميم ، ثم قلت لنفسي بعد استصواب حدسي

انهض الى المكرمات مستبقا * ولا يصدنك عائق عنها

وان تجد عصبة سمت جهة * فاسع اليها ثم استفد منها

فجاريتهم وأنا أظن اني أكون أول الفائزين ، ومقدام البارزين ، فلما بلغت حلقة

الرجال ، وكانوا ما بين حُزُقّة وطويل وطوال ، خزقت صفهم ، وخرقت مصطفهم ، واذا فى وسطهم خطيب ، كنت أعرفه منذ عهد قريب ، فأول ماوقع عليه الطرف ، وآنست منه الظرف ، قلت له السلام عليك ياخطيب ياامام ، فاجابنى بديها وعليك السلام ،

﴿حكاية﴾ بينما كنت أطوف فى مدينة القاهرة ، وأنظر مافيها من المحاسن الباهرة ، وأحدق فى وجوه الشوافن ، فى الرواشن ، اذ لمحت فى روشن غادة فاقت النساء بالظرف والجمال ، والصباحة والدلال ، فقلت منشدا ، وأنا على غير هدى

بالله رقى لمغرم دنف * قد أسلمته الى البلى عينه

تصدقى بالوصال عليك أن * تشفى حشاه فقد دنا حينه

ثم غشى على من شدة اللوعة ، ثم أفقت طمعا ولم أبرح أسير الهوى وطوعه ، وناديتها بلسان مبين : ألا انى اليك من التائقين العاشقين الخاضعين . فقالت وانى لك لمن السافقين الصافقين الصافعين

﴿حكاية﴾ كنت أمشى فى أسواق الاسكندرية ، وعرضى لألسنة الناظرين الىّ كالدرية ، اذ كنت لابسا نعلا بالية وثوبا صفيقا ، وقد انحل حزامى فكان يكنس طريقا فطريقا ، فصادفت عجوزا تلحظنى فقلت علام القوم يضحكون ، وفيم ينهمكون ، فقالت وقد قهقهت وعن أنيابها المتهتمة جلقت ، من مكنستك هذه الحرير ، وطورك الذى لم يرله نظير ، فقلت

من أحب المعروف فليكرم الضيف بايناسه وابلاغ سوله .

ليس يبغى قرى ولا بذل مال * منتهى مايؤم فى تأهيله

فقالت أما ان شئت أن نقول لك أهلا وسهلا ، فانت لدينا مؤهل ومسهل والا فلا ثم هرولت عنى وعن عينى اختفت فاتبعتها اللعنة التى بها التحفت

﴿ حكاية ﴾ قصدت الرشيد ، لما فيها من الحظ العتيد ، والحدائق الناضرة ، والمسارح السارة ، فلما دخلتها لاح لعيني غلام كالقمر ، يخجل الحُور بالحوَر فتفاءلت بنضرته ، وعجبت من عدم شهرته ، فانشدت بمسمع منه

لبعض الناس فعل دون ما اسم * وبعضهم له اسم دون فعل

وأردت أن أفتتح معه الكلام ، فاستدللت منه على الحمام ، فقال لى بلهجة فصيحة ، وعبارة صحيحة ، أأنت جنب منذ خروجك من البيت أو فى الحال ؟ فقلت

ان كان يمكنك اصطناعي عاجلا * فافعل ولا تسأل عن الاسباب

فلربما أخرت معروفا وما * قدمت غير مساءة الاصحاب

فدلني عليه فاذا أبوه قيم فيه ، فنوه عندهبى ، وأثنى على أدبى ، فلما خرجت من ذلك النعيم ، كخروج آدم من الجنة وهو مليم ، بش بى الرجل ، وأدبنى تلك الليلة الى طعامه ، فلبيت دعوته وأجزلت له الشكر على انعامه ، وسرت اليه وفى أمعائى وقوب ، ولاضراسى رقوب ، فلما حظيت بأنسه ، وحصلت فى مجلسه ، وضع الخوان ، وهو يميد من الطعام بألوان ، فأكلنا وشربنا ، ولعبنا وطربنا ،

﴿ حكاية ﴾ مازلت مذ عرفت حلو الاستراط ، ومر السراط ، أتشوق الى رؤية دمياط ، لما بلغنى عنها من كثرة سمكها وأطيارها ، ورخص أسعارها ، وكان بى نهم الى أكل السمك شديد ، وقرم الى العصفور وما عليه من مزيد ، وقد قال فى الاول ، من أجاد القول جدا وهزل

ما ان ندمت على شراء الحوت فى * وقت وان أفرغت فيه الكيسا

ان كنت أنفق فيه فلسا واحدا * ألقاه فيه قد استحال فلوسا

فلم أكد أبلغ ساحلها ، حتى رأيت صيادا قد ألقى شبكته فى البحر ، وهو مبتئس ولها وفى طلعته سمة الضجر ، فتقدمت اليه ، وسلمت عليه ، فقلت أجذب الشبكة باسم

الله على نحتى ، وان كنت أعهده برداً دائماً من تحتى ، فان اشتملت على حيتان صغيرة ، أديت اليك قيمتها موفورة ، وان حوت الكبيرة ، كان لى أن أنال منها مجانا حصة وفيرة ، فرضى بذلك ، وقال حسبي الله الوالى المالك ، فلما أخرجها إذا بها استوعبت من كبار السمك مالم يكن عهد منذ درج وسلك ، فجاد علىّ منه بحصة ، وقد أجرضته من الشرط غصة ، فاوقدت جنبه نارا ، وبعثت الى السوق من اشترى لى خبزا وعقاراً ، وملحاً وأبزارا ، ومازلت اشوى وألتقم التقافا ، وأشرب استفافا ، حتى منيت بالهيضة والزحير ، واستحال على التقدم والتاخير ، فى المآب والمصير

﴿حكاية﴾ وجدت فى صدرى ضنكا من مجالسة الرجال ، ومطارحتهم الحديث والامثال ، وقد جبل الانسان على حب التبدل والتحول والتنقل ، فيسام النعيم إذا طال ، ويرى فى المثابرة الثبور والوبال ، وفى الادمان الدمن والوبال ، فتحريت مجالسة الصبيان والخوض معهم فى صار وكان ، فلم أكد أخرج من غرفتى حتى رأيت زمرة منهم يلعبون بالقثال والاوتاد ، ويضجون ضجيج الناس فى يوم الجراد ، فتوهمت أن فى صمما أولمما ، إذ لم أسمعهم على قربهم من الغرفة ، ولوأنى سمعتهم لمظم على لغطهم على هذه الصفة ، فدعوت أحدهم ، فحشد الى حفزا ، وكلمنى ركزا ، فسكن روعى عند سماع نغمته الرخيمة ، وأيقنت أن حاسة سمعى بقيت فى سليمة ، فحمدت الله تعالى على لطفه بى ، وزاد فى عشرة الاولاد أربى ،

نبذ من شعره

وصف باريس

حرفيا

أذى جنة فى الارض أم هى باريس
ملائكة سكانها أم فرنسيس
وهل حور عين فى منازهها ترى
والا فكل حين تخطر بلقيس
وهل ذى نجوم ترجم الهم فى الدجى
عن البال ان يخطر به أم نباريس
وهل زهرة الدنيا ترى فى هوادج
تمر كبرق خاطف أم طواويس
نعم انها خلد النعيم وشاهدى
رياض وحوض دافق وفراديس
وأعمدة تحبوا السحائب دونها
كأن لها فوق السماكين تأسيس
هنيئا لمن منها تبوأ منزلا
وطوبى لمن فيها له تاح تعريس
هى المنهل المورود من كل ظامىء

هرفيا

اذى عبقر فى الارض أم هى باريس
زبانية سكانها أم فرنسيس
وهل ذى نساء فى مواحلها ترى
والا فكل حين تخطر جاموس
وهل ذا شرار يجلب الهم فى الدجى
الى البال ان تبصر به أم نباريس
وهل زفرة الدنيا ترى فى هوادج
تمر كعير ظالع أم مطافيس
نعم انها مأوى الجحيم وشاهدى
شتيون فى ساحاتها ومناحيس
وأعمدة تلقى الشياطين عندها
كان لها فوق الخبائث تأسيس
شقاء لمن منها تبوأ منزلا
وتعسا لمن فيها له تاح تعريس
هى المنهل المسموم حتف لظامىء

وللزائر بها الخـير أجمع مجوس
هو العيش فاغنم طيبه فى ربوعها
فانك فيها ما أقمت لمـرغوس
اذا رث ثوب العمر منك فان من
قشيب حظاها لين العيش ملبوس
وفيها من الغر الـكرام أعزة
جحاجح ضرابون يوم الوغى شوس
لقد فطروا طبعا على الود والوفا
جميعاً فما يعروهما عوض تلبيس
لئن سُبقوا سبق الوجود فانه
ليسبق جسماظله وهو مدعوس
لهم فى سماء العلم شمس براعة
وفى الادب الطامى العباب قواميس
فـكم فيهم من عالم متقن له
لتطليس آثار المعارف تطريس
إذا أغطشت آفاق أمر فانما
يجليه لفظ موجز منه مهموس
وكم فيهم من فاضل ذى استقامة
تقيم قوام الدهر إذ هو منكوس
وتمسكه أن لايجور كأنما
تعدل فى كلتا يديه قساطيس
ورب خطيب لفظه فوق منـبر

وللزائر بها الشر أجمع مبجوس
هوالعيش فاغنم طيبه فى سوائها
فانك فيها ما أقمت لمنحوس
إذا كان ثوب العز عنك معلما
فمن نقص فى عيشها هو مطلوس
وفيها من القوم اللئام ثعالب
ولـكنهم ان يؤدبوا أسـد شوس
لقد فطروا طبعا على الغدر والجفا
جميعاً فلا يغررك فى ذاك تلبيس
لئن سُبقوا سـبق الوجود فانه
ليسبق جسما ظله وهو مدعوس
لهم فى بحور الشك خوض وطالما
تعشتهم منه ضـلالا قواميس
فـكم فيهم من مدع صلف له
لتطريس آثار المعارف تطليس
إذاما انجلت آفاق أمر فانه
ليخفيه لفظ موجز منه مهموس
وكم فيهم من فاضل من فضوله اع
تدال قوام الدهر أحدب منكوس
يحاول لؤما أن يميـل به فـلا
تعدل فى كلتا يديه قساطيس
ورب عيىّ لفظه فوق منـبر

يبين ولو بُلغته وهو معكوس
يشف خفى الغيب عما يقوله
فيبصره مَن طرفه بعد مطموس
وكم فائح منهم وما بارح الحمى
كتائبه أقلامه والقراطيس
وكم بينهم من ليث حرب إذا سطا
جرىء له فيها احتناك وتضريس
حمام اذا هيجو حياة إذا اتقوا
أسود اذا صالوا جبابرة هيس
إذا سمحوا لانوا و إن حمسوا قسوا
ويربون فضلا إن بغيرهم قيسوا
أولو همة دانت لهم همم الورى
ونخرهم فى ذاك كالدهر قدموس
لقد أكرموا هذا اللسان وأهله
فمازال يحظى عندهم وهومدروس
عفوت عن الايام سالف ذنبها
فقد شفعت فيها وفى الناس باريس

يسوء ولو بُلغته وهو معكوس
يشف خفى الغيب عما يقوله
فيبصره مَن طرفه بعد مطموس
وكم طامع فى الملك منهم سفاهة
كتائبه أقلامه والقراطيس
وكم من طفيلى لكل وليمة
جرىء له فيها احتناك وتضريس
حمام اذا زيروا حياة اذا اجتدوا
اسود اذا لاسوا جبابرة هيس
اذا سألوا لانوا و إن سئلوا قسوا
ويربون شحا إن بغيرهم قيسوا
أولوجشع من دونه جشع الورى
وصيتهم فى ذال كالدهر قدموس
لقد جهلوا هذا اللسان وأهله
فما زال يخزى عندهم وهو مدروس
وجدت على الايام عتبا بعيشها
فقد أخبثته والبرية باريس

الفارياق

هذا كتابى للظريف ظريفا * طلق اللسان وللسخيف سخيفا
أودعته كلما وألفاظا حلت * وحشوته نقطا زهت وحروفا
وبداهة وفكاهة ونزاهة * وخلاعة وقناعة وعزوفا
كالجسم فيه كل عضو تعشق ال * مستور منه وتحمد المكشوفا
فصلته لكن على عقلى فما * مقياس عقلك كان لى معروفا

غيرى من الوصاف فى ذا صنفوا * لكنهم لم يحسنوا التصنيفا
إذ كان ما قالوه مبتذلا ولم * يتقص منهم واصف موصوفا
لكن كتابى أو أنا بخلاف ذا * نكفى الحفىّ الحد والتعريفا
لا عيب فينا غير أنك لا ترى * صنوا لنا فى فننا وحريفا
فهو اليتيم المستحيل اخاؤه * وهو الفريد فكن عليه عطوفا
عهدى الى ولدىّ أن يتحديا * أسلوبه وبدفتيه يطيفا
إنى برىء منهما أن يعدلا * عنه ويتخذا عليه حليفا
لو كان يعشق جامد لجماله * لغدا الورى طرًّا به مشغوفا
وحياة رأسك ان رأسى عارف * أنى به لن أستفيد رغيفا
كلا ولا أقطاً ولا حشفا ولا * خزا على وتدى ولا كرسوفا
لكن يقرنى حكة هاجت على * انى أعالج مرة تأليفا *
من كان يؤجر كى يؤلف خطبة * فهو الخليق بان يعد عسيفا
ماراج من قولى نخذه وما تجد * من زائف فاتركه لى ملفوفا
لابد أن تجد الصيارف مرة * بين الدراهم درهما مزيوفا
ولرب دينار يجر إليك من * تهوى بلحيته وليس مشوفا
لا يعلقن بزجاج عقلك ما ترى * فيه من الصدإ القديم كثيفا
ماذا على مُهد الى إخوانه * شيئا ألذ من المدام طريفا
سهر الليالى محكما تفصيله * وهم رقود يحكمون جخيفا
أرأيت ذا كرم يرد هدية * ويسوم مهديها له تعنيفا
أوليس أن الدهر أصبح مازحا * يهذى ويأتى المضحكات جنوفا
فاشتق من خرف الجنى خرفا ومن * حصف تهى الاظفار منه حصيفا

دع عنك تعبيس الأسود وكن أخا * لأبي الحصين مراوغا يهفوفا
من أضحك السلطان صوت ردامه * فهو الذي في الناس عد عريفا

الحرب العثمانية الروسية

سنة ١٨٥٥

الحق يعلو والصلاح يعمر * والزور يمحق والفساد يدمر
والبغي مصرعه ذميم لم يزل * آتيه عرضة كل سوء يثبر
والوغد تبطره من النعم التي * يغني بها الحر الكريم ويشكر
طغت الطغاة الروس لما غرهم * في الارض كثر سوادهم وتجبروا
كادوا ويرجع كيدهم في نحرهم * فطلاهم دون القواضب تنحر
المعتدون ولا نهى تنهاهم * الظالمون القاسطون الفجر
نقضوا العهود وكان ذلك دأبهم * لؤما وللعدوان بغيا أضمروا
يا مسلمون تثبتوا ان جاءكم * نبأ من الروس العدا وتبصروا
لا يغررنكم كثير جموعهم * فالحق ليس يضيره المستكثر
يا مؤمنون هو الجهاد فبادروا * متطوعين اليه حتى تؤجروا
هذا جهاد الله يحمي عرضكم * فاسخوا عليه بكل علق يذخر
في لن تنالوا البر حتى تنفقوا * مما تحبون الدليل الاظهر
وتمسكوا بالعروة الوثقى من الصبر الجميل على القتال وذمروا
واغزوهم برا وبحرا واحشدوا * ركبا وفرسانا ونسرهم انسروا
لو لم يكن منكم سوى نفر لما * غلبوا فكيف بكم وأنتم أكثر

من كل فتاك اذا اعترضت له * يوما شعوب بل شعوب يدمر
أنتم عباد الله حقا فاعبدوا * للدين فهو بكم يعز ويجبر
واحموا حقيقتكم لحفظ ذماركم * فرض عليكم ليس عنه تأخر
غاروا على الاسلام حتى ترفعوا * أعلامه فلكم به ان تفخروا
غاروا على حرم مخدرة لكم * قد طالما أحصن عمن يعهر
أيقودهن اليوم علج فاجر * وسيوفكم بدمائهم لا تقطر
الصبر محمود ولكن حين تنتهك المحارم لا أرى أن تصبروا
لا خير فى عيش يقارف ذلة * حاشاكم أن تفشلوا أو تدبروا

رثاء حمار

راح الحمار وخلى القيد فى الوتد * وما أرى أثره فى الناس من أحد
فهل أنا راكب من بعده وتدا * أم مجزئى قيده لو كان من مسد
أم كيف أدخل دارا كان لى سكنا * فيها وانزل عندى منزل الولد
سرهدته بيدى كالطفل من شفق * كالطفل من شفق سرهدته بيدى
وجلته بشعير لا يخالطه * ماس ولا عسجد خوفا من الدرد
وكان يوقظنى منه النهاق اذا استثقلت نوما بصوت مطرب غرد
كم حاد بى عن مضيق حين أبصر من * حولى الجمال تبل الارض بالزبد
وسار بى فى طريق بل جانبها * أهل الجمال بماء الورد وهو ندى
وكم جرى فارها اذ لاح عن بعد * زفاف خود اليها بالغ الامد
واذ تبين نعشا للجنازة لم * يمرر به مع أليم الوخز فى الكتد

ماضل يوما عن استقراء معلفه * أكان فى روضة غناء أم جرد
قد رابنى حذقه حتى ظننت به * مسخية مثل بعض الخلق عن أحد
وما شكاقط من وخز ولا ضعفت * رجلاه عن جوب وعث طال أو جدد
شلت يدا من به ولى وغادرنى * أمشى وأنشب فى أوحال ذا البلد
أعالم أننى من بعده جزع * وأن فرقته نار على كبدى ؟
وان صوت المنادى اليوم يزعق أن * ألبس إكافك فى جنح الدجى وعد ؟
لا يغررنك رغد أنت تعلمه * مادام شهرا على طرف ولا عتد
يفديك كل حمار ند من بطر * أو ضج من لغب أو خار من جهد
أو حار من شبق قلاب جحفلة * كراف بول قديم جف كالقدد
مصنبع الرأس ممشوق القوائم لم * يحرن اذا سمته خسفا ولم يحد
أليه انه بالطرق أعرف من * مولاه ان لم يعقه القيد ذو العقد
ياليت لى خصلة من ذيله أثرا * أرنو اليها كما يرنى الى الخرد

الجمال وأهله

خلق الجمال لعين صب جنة * ولقلبه نارا تزيد تسعرا
ياليت يغنى المرء يوما واحدا * عنهن من شىء يباع ويشترى
ليت الجمال لهن مثل الملح فى * قدر الطعام مهوعا ان كثرا
بل ليتهن خلقن أقبح مايرى * كى لانهيم تحيرا وتخيرا
ليت العيون النزل ضيقة وما * فى الثغر من در نظيم سفرا
ياليت لم يصلت جبين فوقه * شعر كليل كل غر غررا

ياليت مافي الجيد من عنط بدا * وقصا لأعيننا وشيئا منكرا
والحسن ان القبح أحسن ملمحا * أن ليس يبكي العين مامنه يرى
فلاىّ داع كان شغل عقولنا * وقلوبنا بهوى الوثائر أكثرا
ولم اختصصن بكل علق مضنة * وبكل حلى فاخر دون الورى
مناخرجن وعقلنا يخرجن إذ * يدخلن أو يخرجن سفّه من مرى
ولاىّ شيء لم يكن قود على * من لحظها قلب المتيم قدفرى
ولاي شيء حل رشف الريق من * ثغر الرشوف وكان ذلك مسكرا
وعلام تهتز الشناط على شج * يمسى ويصبح بالغرام محسرا
أين المعالي والمكارم أين من * نخر الانام بعزة وتجبرا
يقتاده اسم الخود إن ذكرت له * طوعا وكرها وهو يهزم عسكرا
أملت عليّ حوادث الامم التي * غبرت فقلت مقال من قد حررا
يارب قد فتن النساء عقولنا * فامسخ محاسنهن قبحا يزدرى
أو فاجعلنّ غشاوة تغشى على * أبصارنا أولا فأعم المبصرا

دمعة على طفل

الدمع بعدك ماذكرتك جار * والذكر ماواراك ترب وار
ياراحلا عن مهجة غادرتها * تصلى من الحسرات كل أوار
خطأ وهمت فأين بعدك مهجتي * مافي حشايَ سوى لهيب النار
رمقا أقل الجسم مني فادحا * فكأنه وِقر من الاوقار
مابعد فقدك رائعي أوراتقي * شيء من الظلمات والانوار

أبنى مايجدى التصبر قولهم * حكم المنيـة فى البرية جار
كلا ولا بى قر بعدك من حمى * ماهـذه الدنيا بدار قرار
كم قد حملتك فوق راحى اذغدو * ت ورحت ثمت حرت خير محار
ولكم سهرت الليل من جزع فما * أغنى بكاى عليك أو اسهارى
ولكم جأرت لبرء دائك ضارعا * ولغير نفع كان طول جؤارى
واقد حضنتك فى الحنادس خوف أن * يطرأ عليك من الحوادث طارى
وجمال وجهك لى يخيل اننى * فى روضة أنف ضحاء نهار
ان لم يصورك المصور لى فقد * صورت بالمأثور من اشعارى
أو ان يكن واراك لحد ضيق * فالارض عندى اليوم أضيق دار
أو ان تكن عنى حجبت فانما * بقيت حلاك خوالد الافكار
لاأنسينك أو أحين فما أنى * حين علىّ خلا من استذكار
ولا رثينك مابقيت وان أمت * فليتلون رثاك بعدى القارى

بؤس الأديب

ليت شعرى ماذا يفيد البيان * مع خواء البطون والتبيان
وفنون البديع من غير أكل * تستشيط اللهى به واللسان
هاك أكف استعارة برغيف * وبخس تخس تفتازان
أيها المعربون هبوا فما من * ضرب زيد عمرا برص الخوان
أين أين الكباب والرز والبر * غل تصفو من فيضهن الجفان
أنا فى وحشة من الناس وحدى * لا ترانى فلانة وفلان
عيشة لو رأيتها فى منام * ماشجتنى من بعدها الالحان

لغة أهل مالطه

تبا لها لغة بغير قراءة * وكتابة عين بلا انسان
تتبلبل الالباب فى تركيبها * ويكل عنها حد كل لسان
أذنابها ورؤوسها عربية * فسدت وأوسطها من الطليانى

غادة مالطية

بدت فى الثياب السود والوجه زاهر * وماست بقد يخجل الغصن الغضا
لها منطق عذب على قبح لحنه * وفى حسن من سواد عن لحنه اغضا

أوباش انجلترا

رمتنى النوى فى كمبرج ملازما * ابيتى نهارا أن ترانى أوباش
فتعبث بى حتى اذا الليل جننى * خرجت على أمن كأنى خفاش

القلب والحزن

ورب حزن يصون القلب عن سفه * كما يصون اناءً واهيا صدأه
وما انقضى من لذاذات الهوى عجلا * سيان غايته عندى ومبتدأه

المرأة والحجاب

لا يحسب الغر البراقع للنسا * منعاً لهن عن التمادى فى الهوى
ان السفينة انما تجرى اذا * وضع الشراع لها على حكم الهوى

الاغانى

يا بدر مالك ثان في حسنك الفتان * فارحم فتى ولهان مبلبل البال
عذب بما ترضاه إلا الجفا أخشاه * قد طالما أصلاه وأنت لى سالى
يا يوسف الحسن حوشيت من سجن * هددت بالحزن أركان آمالى
من ذا الذى أغراك بصد من يهواك * الطرف منه باك وجسمه بالى
حتى م ذا الهجران والصد والحرمان * حسن بلا احسان كالرى بالآل
محبك الواجد منك الرضا فاقد * ياليتنى واجد اتهام عذالى
أضنانى السهد وعزنى الوجد * ماالقصد ماالقصد سواك يا غالى
يا فاتن العشاق باللحظ والاحداق * تبارك الخلاق لحسنك الكالى
أفديك بالمال والروح والآل * رضاك أشهى لى من طول آجالى

غيره

إلى هنا يا بدر لى أنت المنى * كل جنى منك الرضا الا أنا
يا فاتنى بالدل لما يخطر * وشاجنى إذ جزت شذرا تنظر
قد شاقنى منك المحيا الازهر * واستاقنى وجدى الى حد المنا
بى كلما ألقاك عنى معرضا * وجد نما لكن جسمى أمرضا
يا ذ اللمى حتام لا تبدى الرضا * صل مغرما ألبسته هذا الضنى
سبحان من أتاك ذا الحسن الفريد * كم قد فتن صبابه أمسى عميد
أنت الحسن والشوق فى قلبى يزيد * ان الشجن للعظم منى أوهنا
كلفت فى ذا العشق تبريح الجوى * حتى تنى لكن هيهات الوفا

هل منصف مما به يقضى الهوى * أو مسعفى خدن على نيل المنى
يا بدر لا تسمع مقال العاذل * وارع الولا ناهيك وجدى قاتلى
فقت الملا حسنا ففق بالنائل * جد بالطلا من فيك ياحلو الجنى

غيره

يافاتر الجفون ما بدا لك * حتى جفوت عاشقا جمالك
ويا قضيب البان ما أمالك * عن مغرم مؤمل وصالك
عذب بما ترضاه يا غزالى * الا الجفا شماتة العذال
أنعم بوصل منك يوما بالى * أم طول العمر ربى بالك
علام تجفونى ومالى ذنب * وما لقلبى عن هواك قلب
بحق من أولاك ما تحب * دعنى أقبل مرة أذيالك
لم يبق لى على الصدود طوق * وعال صبرى عنك هذا الشوق
وليس لى إلى سواك توق * وهل لعينى أن ترى أمثالك
أحرمت طرفى فى الليالى غمضا * وقلت أرضى عله أن يرضى
ياهل ترى صدك عنى فرضا * فمن بقتلى يارشا أفتى لك
ناشدتك الله أنلنى سولى * وكن رفيقا بى أيا مامولى
يكفى الذى تراه من نحولى * بعيذ رب العرش منه حالك

الامير عبد القادر الجزائرى



ترجمته

هو ناصر الدين الامير عبد القادر بن محيي الدين ينمى نسبه الشريف الى الامام الحسن سبط الرسول صلوات الله عليه

ولد فى يوم الجمعة ٢٣ رجب سنة (١٢٢٢ هـ ١٨٠٧ م) بقرية القيطنة من أعمال وهران بالقطر الجزائرى فى بيت مجد مؤثل وعلم وفضل فنشأ على حب المعارف وأخذ العلوم العربية والدينية عن مشيخة وهران ثم خرج به والده الى الاقطار الحجازية مجتازا فى طريقه بمصر فى عهد ساكن الجنان محمد على باشا فاكرم نزلهما ، ومنها ذهبا الى دمشق ومكثا بها مدة سمعا فيها صحيح البخارى على الشيخ عبد الرحمن الكريزى

من محدثى الجامع الاموى كما سمع المترجم له علوما شتى فى التوحيد والتصوف على الشيخ خالد النقشبندى السهروردى . وبعد ايابه من هذه السياحة عكف على الدرس والمطالعة . فقرأ كتب الفلسفة والجغرافية والتاريخ والفلك وغيرها من العلوم والآداب ، فبرع فيها براعة فائقة ظهرت آثارها فى مجالى أقلامه . ومازال عاكفا على دروسه وكتبه ، ملحوظا من أهل بلاده بعين الاجلال والاعظام ، معروفا عندهم فضلا عن علمه وفضله ، وغزارة ادبه ، بالفروسية ، والرماية ، وشدة الباس ، وقوة المراس ، والمهارة فى ركوب الخيل ، واللعب على ظهورها ، واقتناص الوحوش فى اخياسها ، الى ان شن الفرنسويون الغارة على الجزائر سنة (١٢٤٦ ﻫ ١٨٤٣ م) مريدين اكتساحها واخضاعها لملكهم ، فهب الجزائريون فى وجوههم للدفاع عن بلادهم ، والذود عن حياضهم ، وأجمعوا أمرهم على مبايعة الاميرعبدالقادر بن محيي الدين فقادهم وخاض بهم غمرات القتال وصمد لقراع الفرنسيس سبع عشرة سنة كانت الحرب فيها بينهم سجالا ، ولم تضع أوزارها الا بعماضدة الدولة المراكشية للفرنسويين على اخضاع الاميروثل عرشه ، اذ جرد سلطان المغرب الاقصى عبد الرحمن ابن هشام جيشا لجبا مؤلفا من خمسين ألف ونيف من مقاتلة المراكشيين بقيادة ولى عهده محمد ولم يكن قد بقى مع الامير عبد القادر من الجنود أكثر من خمسة آلاف فصادم بهذه الفئة القليلة تلك الجيوش الجرارة وصبر لها صبر الكرام الى ان علم ان المقاومة لا تجدى نفعا فاذعن للفرنسيس بالتسليم وتم التعاهد على ذلك فى ديسمبر سنة ١٨٤٧

وسافر الى فرنسا فى ثمانين من رجاله وحاشيته واستقبل يوم دخوله باريس بما لم يعهد من الحفاوة والتكريم على عهد الامبراطور نابليون الثالث . وكان مدة اقامته بها محل اكبار الفرنسويين من جميع الطبقات ورتبت له الحكومة الفرنسوية مبلغا من المال لينفق منه سنويا ، وبعد ان تقوت عرى الصداقة بينه وبين

الحكومة ورجالها ولاسيما الامبراطور نابليون تاقت نفسه الى سكنى بلاد الدولة العثمانية فوفد على الاستانة وحظي بلقاء السلطان عبد المجيد خان ونال منه كل رعاية واكرام ثم ذهب الى بروسه للاقامة بها فلم يطب له فيها المقام فأم دمشق واتخذها له عريسة وطابت له فيها السكنى . ولما حدثت فيها فتنة سنة ١٨٦٠ بين الاكراد والدروز وبعض المسلمين وبين المسيحيين كان الامير عليه الرحمة عصمة للمظلومين وكان فناؤه ملجأ للمنكوبين فاكتظت دوره على رحبها بالمحتمين بها وفيهم قناصل الدول ورؤساء الاديان على اختلاف نحلهم ومذاهبهم فكان ينفق عليهم عن سعة ويرد العوادي عنهم ، وظل يعمل دائباً على اطفاء جذوتها حتى هدأت ثوائر النفوس وأعيدت الى اغمادها المدى والسيوف وجاء رجال الدولة للتحقيق والاقتصاص من الظالمين فوجدان من كان فى حماه نحو الخمسة عشر الف منهم أربعة آلاف فى دوره والباقون فى قلعة الحكومة ملحوظين برعايته ، وبهذا العمل الجليل استحق الثناء الجميل من كافة بني الانسان وجاءته كتب الشكر ووسامات الفخار وآيات الاعتبار من جميع الدول والحكومات

وفى سنة ١٢٨٢ ه سافر الى الحجاز لاداء فريضة الحج . روى ولده الامير محمد انه فى اثناء اقامة والده بالاقطار الحجازية توفى ملك اليونان فانعقد مجلس النواب فى أثينا للنظر فيمن يولونه عليهم ملكا فكان اسم الامير فى ضمن المنتخبين لذلك ونادى كثير منهم باسمه ، وكذلك فعل الاسبانيول حينما وقعت الفتنة بينهم فشكر الامير للامتين حسن اعتقادهما فيه واعتبارهما له

وفى سنة (١٢٨٦ ه ١٨٦٩ م) دعاه الخديو اسماعيل فيمن دعا من أعيان العالم وملوكه وأمرائه لشهود الاحتفال بفتح قناة السويس واجلس فى الحفلة الخاصة بامبراطور النمسا وأمبراطورة فرنسا وولى عهد المانيا وايطاليا وكان فيهم موضع الاجلال والاعظام . وكان منذ استوطن دمشق الفيحاء يكاتب ملوك الدنيا وأمراءها والعلماء

والادباء والشعراء والكتاب ، ويختلس أوقات الفراغ للتاليف والانشاء والاجابة على الاسئلة الواردة عليه من انحاء العالم ، وبيته كعبة المحتاج وحصن الخائف وهو يعطي المعارف ويمنح العوارف الى ان دعاه ربه فلباه في ١٩ رجب سنة (١٣٠٠ هـ ١٨٨٣ م) فخفق نعيه في الآفاق وأسف عليه الملوك والامراء ورثاه الكتاب والشعراء ، وأبناء العلماء والادباء بحيث لو جمع ذلك لوقع في كتاب ضخم ، وقد فصل ولده الامير محمد تاريخ حياته في كتاب دعاه « تحفة الزائر في مآثر الامير عبد القادر واخبار الجزائر » وهو كتاب كريم يجدر بكل شرقي تلاوته وبكل غربي ترديد النظر فيه

مُمَيِّزَاتُهُ

اذا افتخر الاوربيون بنوابغهم وما يجنونه من ثمرات عقولهم ، فنحن نكاثرهم بنفوس أبطالنا التي تعنوا لعظمتها العقول ، وتقف عند ما اودعته من جليل الاسرار وقفة الحائر المبهوت ، ولا شك في ان ابن محي الدين كان من ذوي النفوس العظيمة التي يدل بها الشرق على الغرب ، ناهيك عن يقول فيه المارشال سوليت الفرنسوي سنة ١٨٤٠ : لا يوجد الآن احد في العالم يستحق ان يلقب بالاكبر الا ثلاث رجال كلهم مسلمون ، وهم الامير عبد القادر ، ومحمد علي باشا ، والشيخ شامل* رواه بالمر في تاريخه .

(*) هو الشيخ محمد شامل أو شمويل الداغستاني زعيم طائفة من القوقاس ومصلي الروس حرباً عوانا ما بين سنة ١٨٣٤ وسنة ١٨٥٩ قهر فيها جيوشهم في عدة مواقع وساجلهم الظفر في بعضها ومازال يخشي الجانب من حكومة القيصر قائماً بادارة حكومته في دراغو الى أن اغرت الدولة الروسية بعض قبائل القوقاس بالمال فشقوا عصا الطاعة عليه فكان ذلك سبباً لظفر الجيش الروسي به واخضاعه له فأسر وأخذ الى بطرسبرج ليراه القيصر نقولا فلما رآه أكبر منزلته وأكرمه غاية الاكرام وخصص له قصراً في مدينة كالجا وراتباً قدره ١٠ آلاف روبل وفي سنة ١٨٦٨ زار الحجاز قاصداً الحج ومنها ذهب الى مكة المكرمة وتوفي بالمدينة المنورة سنة ١٨٧١

فبطل الجزائر وان كان من ارباب السيف، فقد كان اخوا القلم، لا يغمد احدهما حتى يجرد صاحبه، فيبرى بالاول الرؤس والهام، و يبرىء بالثاني النفوس من سقام الاوهام. ومثله في ادباء الامراء كمثل سيف الدولة بن حمدان، غير انه كان اوفر ذماما، واوفى عهدا وميثاقا من ممدوح المتنبي. و يستشف من خلال خطبه وكتاباته، ومن بين قصائده ومقاطع ابياته، الطبع وفخامة التعبير، غيرانها كادت تخلو من رونق التجويد و بهاء التنميق، وأنّى لمن اذهب زهرة حياته في مقارعة الفرسان، ومثافنة الاقران، وخوض المعامع والحروب، وحمل الرزايا والكروب، دفاعا عن الاعراض، وذيادا عن الاوطان، ان ينظر في شعره اونثره نظر تحسين اوتجميل، ومن ذا يقول للامير: جوّد كتابك، ومع هذا فليس دون الطبقة الاولى من ادباء عصره

مُؤَلَّفَاتُهُ

وشاح الكتائب وزينة العسكر المحمدي الغالب — هو نظام سنه لجيشه جمعه بعض كتاب جنده في كتاب ودعاه بهذا الاسم. وهو يدل على ما كان للامير من بعد النظر وثاقب الرأى في امور الحرب ونظام الاجناد

المقراض الحاد — رسالة رد بها على الطاعنين في دين الاسلام ممن عموا عن فضائله وتشبثوا بما ليس منه في شيء من بدع المارقين واهل النفاق

الصافنات الجياد — كتاب وضعه في محاسن الخيل وصفاتها

ذكرى العاقل وتنبيه الغافل — رسالة ضمنها كثيرا من حقائق العلوم ومجالي العقول فيها بعث بها الى جمعية العلماء في باريس حينما ارسلت اليه بأنها قيدت اسمه عندها في

سجل علماء العالم، وقد ترجمت الى اللغة الفرنساوية وهي قليلة جدا

وله غير ذلك كتب ورسائل واجوبة ومسائل في التوحيد والتصوف وغيرها من العلوم والآداب

آثار أقلامه

نخب من نثره

رسالته الى الجنرال بيجو

الى الجنرال بيجو وسائر قواد العسكر الفرنساوي في الجزائر ، السلام على من اتبع الهوى واجتنب الردى

أما بعد فقد بلغني انكم جئتم من فرنسا الى الجزائر لقتالنا بما ينيف على الثمانين ألف جندي زيادة على عساكركم السابقة فيها . فاعلموا انني بعونه تعالى وقوته لا أخشى كثرتكم، ولا أعتبر قوتكم، لعلمي انكم لا تضرونني بشيء الا ان يضرني الله به، ولا يلحقني منكم الا ما قدره الله عليّ وقضاه ، وانني منذ أقامني الله في هذا الامر وجعلني ضداً لكم ما قاتلتكم بعسكر يكون عدده ثلث العساكر التي تكافحونني بها ، ومدة ملكي كما لا يخفى ثمان سنين ، ومدة ملككم تتعدى مئات من السنين ، وعساكركم كثيرة ، وآلاتكم الحربية قوية ، ومع هذا البون العظيم الذي بيني وبينكم فاني أعرض عليكم أموراً

فاختاروا واحدة منها وهى : إما أن تعطونى ما أحتاجه من أدوات الحرب بالشراء ثم أنظم عسكراً يكون نصف عسكركم الذى تحاربوننى به وحينئذ نتحارب . واما ان تبقوا فى مواضعكم التى تغلبتم عليها وأبقى أنا فى بلادى التى تحت حكمى، ثم لا يقرب أحد نا من الآخر مدة اثنتى عشرة سنة فيبلغ عمر ملكى عشرين سنة وحينئذ أقاتلكم فان غلبتكم فلا عار عليكم اذ يقال غلبكم رجل له قوة عشرين سنة ، وان غلبتم أنتم فتكونوا قد غلبتم رجلا له قوة فيحصل لكم الفخر عند الملوك ، وأما اليوم فانتصارى عليكم يعد فضيحة لكم عند الدول ، وانتصاركم على لا يعد فخراً حيث انكم غلبتم رجلا عمر ملكه ثمان سنين ولا قوة عنده يقاتلكم بها . ومن الامور التى اقترحها عليكم انكم تبعثون من قبلكم من يعد عسكرى ثم اخرجوا من عندكم فى مقابلة كل واحد رجلين من عسكركم وأعطيكم العهد انى لا أزيد عسكرياً واحداً على ما تعدون وحينئذ الغالب يملك الوطن . ومنها ان يخرج المارشال للبراز ويخرج له واحد من خلفائى فان غلب صاحبكم فلا أنازعكم فى طريقكم من الجزائر الى قسنطينة ، ومن أراد من المسلمين أهل تلك النواحى البقاء تحت حكمكم فلا نتعرض له ، وان أراد الخروج منها ويلحق ببلادى فانتم لا تتعرضون له . ومنها ان ابن الملك يبارزنى فان غلبته فانكم ترجعون بعساكركم الى بلادكم وتتركون سائر المدن التى فى يدكم الآن بما فيها من الذخائر والمهمات ، وان غلبنى فانكم تستريحون منى ويبقى لكم الوطن من غير منازع . فان اخترتم واحدة من هذه الامور فلا بد أن يحضروا قناصل الدول ليشهدوا عليكم بقبولكم ذلك ، وأما نحن فلا نخالف كلمتنا ، وان استضعفتمونا ولم تبالوا بما قلناه اعتمادا على قوتكم فنحن قوتنا بالله القادر على كل شىء هو ولينا وناصرنا

خطبة اليأس والتسليم

لما ضاقت الدنيا فى عين الامير من صنيع سلطان المغرب الاقصى ومالأته الفرنسيس عليه جمع اليه أهل شوراه وقام فيهم خطيبا وقال :

ياقوم ان الاحوال كما ترون ، والاخبار على ما تسمعون ، فما الرأى وما الحيلة ؟ فقالوا: الرأى لسيدنا فالذى يراه نحن معه فيه . فقال : لا أرى الا التسليم لقضاء الله تعالى والرضى به ، ولقد أجهدت نفسى فى الذب عن الدين والبلاد ، و بذلت وسعى فى طلب راحة الحاضر منها والباد ، وذلك من حين اهتز غصن شبابى ، وافتر عن شباة الهندى نابى ، وأقمت على ذلك ما ينيف على سبع عشرة سنة أقتحم المهالك ، واملأ بالجيوش الجرارة الفجاج والمسالك ، استحقر العدو على كثرته ، واستسهل استصعابه ، وأتوغل غير خائف أوديته وشعابه ، وأرتب له فى طريقه الرصائد ، وأنصب له فيها المكائد والمصائد ، تارة انقض عليه انقضاض الجارح ، وأخرى أنصبُّ اليه انصباب الطير الى المسارح ، وكثيرا ما كنت أبيته فافنيه ، وأصبحه فاردغليلى منه وأشفيه ، ولازلت فى أيامى كلها أرى المنية ولا الدنية ، وأشمر عن أقوى ساعد وبنان ، وأقضى حق الجهاد بالهندى والسنان ، الى أن فقدت المعاضد والمساعد ، وفنى الطارف من أموالى والتالد ، ودبت الىَّ من بنى دينى الافاعى ، واشتملت على منهم المساعى ، والآن بلغ السيل الزبى ، والحزام الطبيين ، فسبحان من لا يكيده كائد ، ولا يبيد ملكه وكل شىء بائد

ان يسلب القوم العدا * ملكى وتسلمنى الجموع(*)
فالقلب بين ضلوعه * لم تسلم القلب الضلوع

(*) الشعر للمعتمد بن عباد وامل الامير قاله متمثلا

أجلى تاخر لم يكن * بهواى ذلى والخضوع
ماسرت قط الى القتا * ل وكان من أملى الرجوع
شيم الاولى أنا منهم * والاصل تتبعه الفروع

محاسن الاخلاق ومحامد الآداب

في الشريعة الاسلامية

إن شريعة محمد عليه الصلاة السلام مشتملة على محاسن الاخلاق ومحامد الآداب وكل ما يكون به الوفق والائتلاف والاتفاق ، والخلوص بين العباد ، وتصلح به المعيشة الدنيوية ، وتعمر به البلاد سواء فى ذلك أهلها أو غيرهم . فدين الاسلام يحتوى على كل شيء مستحسن لم ينكر منه عدو ذو عقل سليم شيئا ، بل كل جاحد له وكافر به إذا سمع مايدعوا اليه صوبه واستحسنه دون طلب برهان عليه لوضوحه ، فهو دين جامع لكل ما تفرق فى الاديان والشرائع السالفة كما قال المسيح عليه السلام ماجئت لا بطل التوراة ولكن جئت لا كمله ، فكذلك محمد عليه السلام ماجاء ليبطل التوراة والانجيل بل جاء ليكملهما ، فالتوراة جاء بالقصاص ، النفس بالنفس ، والانجيل جاء بالعفو ، إذا لطمك أخوك على خدك الايسر ضع له خدك الايمن . والقرآن جاء بالقصاص فى قوله : « كتب عليكم القصاص فى القتلى » الآية ، وبالعفو فى قوله : « فمن عفا وأصلح فاجره على الله » . الى غير ذلك مما يطول تتبعه ، والى هذا أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق ، تعريفا بان الانبياء قبله بعثوا بمكارم الاخلاق وبقيت عليهم بقية فبعث بما كان معهم وبتمامها قاله الحكيم الترمذى ، فما من خلق حسن ولا صفة حسنة سواء يدرك العقل حسنها أولا مما يحصل به طيب الحياة الدنيا الا جاء الشرع بمدحها والامر بها والوعد عليها بالجنة ،

ومامن صفة ذميمة أو خصلة لئيمة مما يحصل به التنافر بين العباد الا جاء الشرع بذمها والنهى عنها ، والتوعد عليها بالنار ، و بيان ذلك فى مثل الصدق والوفاء والاحسان وآلايثار والاقتصاد فى الامور ، والاشتغال بعيب النفس عن عيوب الناس ، والانصاف من نفسك ، وانفاق المال لصيانة العرض ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واصلاح ذات البين ، واماطة الاذى عن الناس ، والاستشارة والادب والاحترام ، والاجلال لافاضل الناس ، وادخال السرور على الناس ، والارشاد لهم بالتعليم والتربية ، و إفشاء السلام ، واكرام الجار ، واجابة السائل ، والاعطاء قبل السؤال ، واستكثار قليل الخير من الغير ، واحتقاره من نفسك ، و بذل الجاه ، و بذل البشاشة والبشر فى وجوه الناس ، والتواضع ، والتعاون على الخير ، والتأنى ، والتوادد ، وتنزيل الناس منازلهم ، والصبر والتغافل عن زلال الناس ، وتحمل الاذى ، وترك الاذى ، وترك الكبر ، وتجنب العجب ، وترك معاداة الرجال ، والجدال ، والتكلف ، وتجنب مواضع التهم ، وتجنب الظلم ، الى غير ذلك كالثبات فى الامور وجلب المصالح للعباد ودفع المفاسد عنهم والحلم والحياء وحفظ الامانة والعهد وحماية العرض والصمت عما لا يعنى والتعقل فى المقال والتأمل فيه وحسن الظن وطيب المعاشرة وطلب المعيشة و رحمة الضعفاء ، والصغار والرضى بالدون من المجالس والرقة وخدمة الضعيف والاصحاب والفقراء والرفق فى المعيشة والرأفة والزهد فى الدنيا والسخاء والسماحة والصفح عن الذنب والصداقة وصلة الرحم وطهارة الباطن والعفة والعدل والعفو وعلو الهمة والقيام بحق الحق تعالى والخلق وقبول الحق وقول الحق وقضاء الحوائج للناس وكظم الغيظ والمداراة والمخاطبة بنية الكلام والمعاشرة بالمعروف ومعرفة الحق لاهله ولمن عرفه لك والمكافأة وهضم النفس وترك الحقد والحسد وحب المال وتجنب العداوة والبغضاء وترك التذلل للاغنياء وترك الشح والبخل وتجنب الغل

والكذب والغدر والغش والايذاء وتجنب الظلم والجفاء والجور والطيش وترك العجلة والبغي وتجنب الحدة وجحد الحق وانكاره وترك اثارة الفتن وتجنب ضيق الصدور وترك سوء الظن وتجنب قلة الرحمة وقلة الحياء وتجنب الحرص والحمق وترك حب الرآسة وتجنب كفران النعمة وترك طلب العلو على الناس وترك الطمع وتجنب الجهل وترك المكر والخيانة والمخادعة وغير ذلك فان الاخلاق المحمودة والمذمومة غير محصورة فهاذ كرناه «الى أن قال» وباقى الامم وان كانت تفى بالعهد وتستقبح الغدر والكذب فالامة العربية أكثر وأشد من جميع الامم فى ذلك فانهم فى جاهليتهم كانت لهم نفوس زكية وأخلاق مرضية وأفعال كريمة وهمم عظيمة وعقول راجحة وآراء ناجحة وشرف صميم وأنفة من كل خلق ذميم طبعوا على خصال الفضل والمروءة قبل أن تكون بينهم النبوة . روى عن شبيب ابن أبى شيبة قال : كنا فى مجلس اجتمع فيه كثير من الاشراف فورد علينا ابن المقفع وكان من اشراف الفرس وحكمائها وعلمائها فقال لنا : من أفضل الامم ؟ فنظر بعضنا الى بعض وقلنا لعله يميل الى أصله فقلنا فارس فقال ليسوا هناك ملكوا كثيرا من الارض وحووا عظيما من الملك ولبثوا فى ذلك دهرا فما استنبطوا بعقولهم شيئا . فقلنا الروم . فقال أصحاب صنعة . فقلنا الصين . فقال أصحاب طرفة . فقلنا الهند قال أصحاب فلسفة . فقلنا السودان قال شر خلق الله . فقلنا الخزر قال نعم سائمة . فقلنا فمن ؟ قال العرب . فضحكنا فقال ما أردت موافقتكم ولكن إذا فاتنى حظى من النسب فلا يفوتنى حظى من المعرفة والادب . وذكر المؤرخون أن يزدجرد بن سابور ذى الاكتاف لما ولد له ابنه بهرام جور أخبره منجموه عن مولده وسعادته وجده ومصير الملك اليه بعد شدة ومحنة وانه ينشأ بين أمة نائية ذات همم عالية وحلوم زاكية ونفوس أبية ففكر يزدجرد فى خصائص الامم ومزاياها فرأى أن العرب أولى الامم بتلك الاخلاق التى وصفها له المنجمون ووقع اختياره عليهم فكتب الى النعمان الاكبر بن

امرىء القيس فاستحضره مع جماعة وافرة من رؤساء العرب وساداتها فوصلهم وبرهم وسلم اليهم ابنه بهرام جور وأمرهم بكفالته فسترضعوا له نسوة الى أن كبر وكان من أمره مايطول ذكره . . وإذا كان طبعهم ماذكر فى زمن الجاهلية فكيف بعد ماهذب طبعهم الوحى والآيات القرآنية ولذا تراهم فى الجاهلية والاسلام أكثر مدحهم بالصدق والوفاء وأشد ذمهم بالغدر والكذب ولهم أسجاع وأشعار تخرج عن حد الاحصاء « فنها » انه قيل لبعضهم ماقيمة الصدق قال طول العمر فى الدنيا . قيل له فما قيمة الكذب قال موت عاجل . وقيل لبعضهم : ماأفضل المروءة قال : رغبة الرجل فى الوفاء بوعده وعهده . وقال بعضهم من وفا بالعهد ، فاز بالحمد ، ومن عرف بالصدق ، قبل كذبه ، ومن عرف بالكذب لم يقبل صدقه ، وقال بعضهم أربعة من علامات اللؤم استعمال الغدر وافشاء السر واساءة الجوار وتجنب الاخيار

من رسالة له الى وزير الايالة التونسية

ان مابيننا من الودمتين عرى الحقائق ، فلا يحوله عن مركز ثبوته عائق ، وقد ارتبطت فى الله معاقده ، وأسست على المحبة لاجله قواعده ، ولقد أوليتم فاخلصتم ، وعرفتم حقوق الاخوة فايدتموها وبأعبائها قمتم ، ثم تكرمتم بمايدل على ذلك دلالة الروض على الزهر ، والشاطىء على النهر ، وهو النيشان العالى الشان الذى تفضلت به الحضرة الصادقية أيدها الله على ولدى الاكبر السيد محمد ولكونه من الرتبة الاولى ، صار شكركم عندى من كل شكر أحق وأولى ، نساله تعالى أن يبقى تلك الذات السنية ، سامية الركاب ، عالية القباب ، بمنه تعالى وكرمه

*

نبذمن شعره

مقصورة فى الفخر

توسد بمهد الأمن قد مرت النوى * و زال لغوب السير من مشهد الثوى
وعر جيادا جاد بالنفس كرها * وقد أشرفت مما دعاها الى النوى
وكم قد جرت طلقا بنا فى غياهب * وخاضت بحار الآل من شدة الجوى
وكم من مفازات يضل بها القطا * قطعت بها والذئب من هولها عوى
لذا قد غدت مثل القسى ضوامرا * وتلك سهام للعدا وقعها شوى
الى آن بدت نيران أعلامنا لها * وما ضوء نيران الكرام له انزوا
ولاسيما أهل السيادة مثلنا * بنو الشرف المحض المصون عن الهوى
فقالت أيا ابن الراشدى لك الهنا * كفى فاترك التسيار واحمد وجى النوى
ألا ياابن خلاد تطاولت للعلى * و باينت مأواك الكريم وماحوى
فمن أجل ذا قد شد فى ربعنا لها * عقالا وناديها لك العز قد ثوى
وحل بكهف لا يرام جنابه * فمن حل فيه مثل من حل فى طوى
فانا أكاليل الهداية والعلى * ومن نشر علياهم ذوى المجد قد طوى
ونحن لنا دين ودنيا تجمعا * ولا فخر إلا مالنا يرفع اللوا
مناقب مختارية قادرية * تسامت وعباسية مجدها احتوى
فان شئت علما تلقنى خير عالم
وفى الروع أخبارى غدت توهن القوى

لنا سفن بحر الحديث بها جرت * وخاضت قطاب الورد ممن به ارتوى
وان رمت فقه الاصبحى فعج على * مجالسنا تشهد لداء العنا دوا
وان شئت نحوا فنحنا تلق ماله * غدا يذعن البصرى زهدا بما روى
وإنا سقينا البيض فى كل معرك * دماء العدا والسمر أسمرت الجوى
ألم تر فى «خنق النطاح» نطاحنا * غداة التقينا كم شجاع لها لوى *
وكم هامة ذاك النهار قددتها * بحد حسامى والقنا طعنه شوى
وأشقر تحتى كلمته رماحهم * مراراً ولم يشكوا الجوى بل وما التوى
بيوم قضى نحبا أخى فارتقى الى * جنان له فيها نبى الرضى اوى
فما ارتد من وقع السهام عنانه * الى أن أتاه الفوز برغم من عوى
ومن بينهم حملته حين قد قضى * وكم رمية كالنجم من أفقه هوى
ويوم قضى تحتى جواد برمية * وبى أحدقوا لولا أولوا البأس والقوى
وأسيافنا قد جردت من جفونها * ووردت اليها بعد ورد لقد روى
ولما بدا قرنى بيمناه حربة * وكفى بها نار بها الكبش يشتوى
فايقن أنى قابض الروح فانكفا * يولى فوافاه حسامى مذ هوى
شددت عليهم شدة هاشمية * وقد وردوا ورد المنايا على النوى
نزلت «ببرج العين» نزلة ضيغم * فزادوا بها حزنا وعمهم الجوى
ومازلت أرميهم بكل مهند * وكل جواد همه الكر لا الشوى
وذاد أبنا فيه الحياة لدينا * وروح جهاد بعد ماغصنه ذوى
جزى الله عنا كل شهم غدت به * غريس لها فضل أتانا وما انزوى
فكم أضرموا نار الوغى بالظبى معى * وصالوا وجالوا والقلوب لها اشتوى

* خنق النطاح اسم مكان جرت فيه واقعة بين الامير وبين الفرنسو بين حلف فيها بطل الجزائر

وانا بنو الحرب العوان بها لنا * سرور إذا قامت وشانئنا عوى
لذاك عروس الملك كانت خطيبتى * كنجاة موسى بالنبوة فى طوى
وقد علمتنى خير كفء لوصلها * وكم رد عنها خاطب بالهوى هوى
فواصلتها بكرا لدىَّ تبرجت * ولى أذعنت والمعتدى بالنوى نوى
وقد سرت فيهم سيرة عمرية * وأسقيت ظاميها الهداية فارتوى
وإنى لارجو أن أكون أنا الذى * ينير الدياجى بالسنا بعد ما لوى

البادية والحاضرة

ياعاذراً لامرئ قد هام فى الحضر * وعاذلا لمحب البدو والقفر
لا تذممن بيوتا خف محملها * وتمدحن بيوت الطين والحجر
لو كنت تعلم ما فى البدو تعذرنى * لكن جهلت وكم فى الجهل من ضرر
أوكنت أصبحت فى الصحراء مرتقيا * بساط رمل بها الحصباء كالدرر
أوجلت فى روضة قد راق فى منظرها * بكل لون جميل شيق عطر
تستنشقن نسيما طاب مُنْتَشَقاً * يزيد فى الروح لم يمرر على قذر
أوكنت فى صبح ليل هاج هاتنه * علوت فى مرقب أوجلت بالنظر
رأيت فى كل وجه من بسائطها * سربا من الوحش يرعى أطيب الشجر
فيالها وقفة لم تبق من حزن * فى قلب مضنى ولا ضنكالدى ضجر
نباكر الصيد أحيانا فنبغته * فالصيد منا مدى الاوقات فى زعر
فكم ظلمنا ظليما مع نعامته * وان يكن طائرا فى الجو كالصقر
يوم الرحيل إذا شدت هوادجنا * شقائق عمها مزن من المطر
فيها العذارى وفيها قد جعلن كوى * مرقعات باحداق من الحور

تمشي الحداة لها من خلفها زجل * أشهى من الناى والسنطير والوتر
ونحن فوق جياد الخيل نركضها * شليلها زينة الاكفال والخصر
نطارد الوحش والغزلان نلحقها * على البعاد وماتنجو من الضمر
نروح للحى ليلا بعد ما نزلوا * منازلا ما بها لطخ من الوضر
ترابها المسك بل أنقى وجاد بها * صوب الغمائم بالآصال والبكر
نلقى الخيام وقد صفت بها فغدت * مثل السماء زهت بالانجم الزهر
قال الاولى قدمضوا قولا يصدقه * نقل وعقل وما للحق من غير
الحسن يظهر فى بيتين رونقه * بيت من الشعر أو بيت من الشَعَر
أنعامنا ان أتت عند العشى تخل * أصواتها كدوى الرعد بالسحر
سفائن البر والانجى لراكبها * سفائن البحر كم فيها من الخطر
لنا المهارى وما للريم سرعتها * بها وبالخيل نلنا كل مفتخر
فخيلنا دائما للحرب مسرجة * من استغاث بنا بشره بالظفر
نحن الملوك فلا تعدل بنا أحداً * وأى عيش لمن قد بات فى خفر
لانحمل الضيم ممن جار نتركه * وأرضه وجميع العز فى السفر
فان أساء علينا الجار عشرته * نبين عنه بلا ضر ولا ضرر
تبيت نار القرى تبدو لطارقنا * فيها المداواةمن جوع ومن خطر
عدونا ماله ملجا ولا وزر * وعندنا عاديات السبق والظفر
شرابها من حليب ما يخالطه * ماء وليس حليب النوق كالبقر
أموال أعدائنا فى كل آونة * نقضى بقسمتها بالعدل والقدر
مافى البداوة من عيب تذم به * الا المروءة والاحسان بالبِدَر
وصحة الجسم فيها غير خافية * والعيب والداءمقصور على الحضر

من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى * فنحن أطول خلق الله فى العمر

مدينة تلمسان

الى الصون مدن تلمسان يداها * ولبت فهذا حسن صوت نداها
وقد رفعت عنها الازار فابج به * وبرد فؤادا من زلال نداها
رذا روض خديها تفتق نوره * فلا ترض من زاهى الرياض عداها
وياطالما صانت نقاب جمالها * عداة وهم بين الانام عداها
وكم رائم رام الجمال الذى ترى * فارداه منها لحظها ومداها
وحاول لثم الخال من ورد خدها * فضنت بما يبغى وشط مداها
وكم خاطب لم يدع كفأ لها ولم * يلثم طرفا من وشى ذيل رداها
وآخر لم يعقد عليها بعصمة * ومامسها مسا أبان رضاها
ولم تسمح العذرا اليه بعطفة * ولم يتمكن من جميل سناها
وشدت نطاق الصد صونا لحسنها * فلم يتمتع من لذيذ لماها
وأبدت له مكرا وصدا وجفوة * وسدت عليه مانوى بنواها
وخابت ظنون المفسدين بسعيهم * ولم تنل الاعدا هناك مناها
قد انفصمت من تلمسان حبالها * وبانت وآلت لايحل عراها
سوى صاحب الاقدام فى الرأى والوغى * وذى الغيرة الحامى حماة حماها
ولما علمت الصدق منها بانها * أنالتنى الكرسى وحزت علاها
ولم أعلمن فى القطر غيرى كافلا * ولا عارفا فى حقها وبهاها
فبادرت حزما وانتصارا بهمتى * وامهرتها حبا شفاء دراها
فكنت لها بعلا وكانت حليلتى * وعرسى وملكى ناشرا للواها

وو شحتها ثوبا من العز رافلا * فقامت باعجاب تجر رداها
ونادت أعبد القادر المنقذ الذى * اغثت أناسا من بحار هواها
لانك أعطيت المفاتيح عنوة * فزدنى أياعز الجزائر جاها
ووهران والمرساة كلا بحاحوت * غدت حائزات من حماك مناها

من رسالة الى ولده

أحباب قلبى كم بينى و بينكم * من أبحر وصفها قد صين عن حد
تحار فيها القطا والعى يدركها * حتى الجهات بها تخفى عن القصد
ما كنت أدرى بان الدهر يبعدكم * عنى و يتركنى من بعدكم وحدى
قد خاننى الصبر ما أجدى بمنفعة * سوى الدامع قد سالت على خدى
والطيف مثل لى أوصافكم فبدا * بشرى ومذ قمت غير الحزن ما عندى
هل الغزال الذى أهواه يسعفنى * بالوصل يوما كما قد كان فى العهد
هل النفور الذى أهواه يسعدنى * بالقرب من بعد ما أبدى من الصد
ياذا النفور الذى فى القلب مرتعه * أرتع به لا ترع فالصب فى بعد
انى و إن كنت منى نافرا فلقد * أرضى بطيف خيال منك لا يجدى

من رسالة الى ابنة عمه

أقول لمحبوب تخلف من بعدى * عليلا باوجاع الفراق و بالبعد
أما أنت حقا لو رأيت صبابتى * لهان عليك الامر من شدة الوجد
وقلت أرى المسكين عذبه النوى * وأنحله حقا الى منتهى القصد
وساءك ما قد نالت من شدة الجوى * وقلت فما للشوق أرماك بالجد

فانى وحق الله دائم لوعـة * ونارالجوى بين الجوانح فى وقـد
غريق أسيرالسقم مكلوم الحشا * حريق بنارالهجر والوجد والصد
غريق حريق هل سمعتم بمثل ذا * ففى القلب نار والمياه على الخـد
حنينى أنينى زفرتى ومضرتى * دموعى خضوعى قدابانواالماعندى
ومن عجب صبرى لـكل كريهة * وحملى لاثقال تجـل عن العـد
ولست أهاب البيض كلا ولا القنا * بيوم نصـيرالهام للبيض كالغمد
ولا هالنى زحف الصفوف وصوتها * بيوم يشيب الطفل فيـه مع المرد
وأرجاؤه أضحت ظلاما و برقه * سيوف وأصوات المدافع كالرعد
وقدهالنى بل قدأفاض مدامعى * وأضنى فؤادى بل تعدى عن الحد
فراق الذى أهواه كهلا و يافعا * وقلبى خـلى من سعادومن هنـد
فحلت محـلا لم يكن حـل قبلها * وهيهات أن يحلل به الغيرأو يجدى
وقدعرفتنى الشوق من قبل والهوى * كذ اوالبكايا صاح بالقصر والمـد
وقد كلفتنى الليل أرعى نجومـه * إذانامـه المرتاع بالبعد والصـد
فلوحملت رضوى من الشوق بعض ما * حملت لذاب الصخر من شدة الوجد
الاهل لهذا البين من آخر فقـد * تطاول حتى خلت هذا الى الحـد
الاهل يجود الدهر بعـد فراقنا * فيجمعنا والدهر يجرى الى الضد
وأشكوك ماقد نلت من ألم وما * تحمله ضعفى وعالجـه جهـدى
لـكى تعلمى أم البنـين بانه * فراقك نار واقـترابك من خـلد

وصف قصره بدمر

عج بى فديتك فى أباطح دُمَّرِ * ذات الرياض الزاهرات النُّضر
ذات المياه الجاريات على الصفا * فكأنها من ماء نهر الكوثر
ذات الجداول كالاراقم جريها * سبحانه من خالق ومصور
ذات النسيم الطيب العطر الذى * يغنيك عن زبد وسك أذفر
والطير فى أدواحها مترنم * برخيم صوت فاق نغمة مزمر
مغنى به النساك يزهو حالها * ما بين أذكار و بين تفكر
ماشئت أن تلقى بها من ناسك * أو فاتك فى فتكه متطور
أين الرصافة والسدير وشعب بو * وان اذا أنصفتها من دُمَّر

ألم الفراق

ألا ان قلبي يوم بنتم وسرتموا * غدا حائما خلف الظعون يسير
يقاسى مرار الموت من ألم الجوى * فما لى الا أنة و زفير
رحلتم ولو تدروا رحمتم فبينكم * لخطبي يوم للبلاء عسير
وكنت ليوم البين أعددت عدة * و فى الظن ما أعددته لكبير
فخان الذى أعددته لفراقكم * وولت جيوش الصبر وهي غرور

ابراهيم مرزوق بك

ترجمته

ولد سنة (١٢٣٣ هـ ١٨١٧ م) ونشأ محبا للادب فأخذ العلوم عن أدباء عصره وشيوخه فبرع فى الكتابة وأجاد الشعر وكان من قوة الحافظة بحيث كان يستظهر من مختار الشعر على ماقيل عشرين ألف بيت سوى المتون العلمية وغيرها من الانباء والآثار . رحل الى السودان وقام بمظاهرة الحكمدار مظهر باشا على تأديب الثوار فى كسله واطفاء فتنتهم واصلاح حال البلاد فى عصر الخديو اسماعيل وله فيه وفى آبائه الغر الكرام مدائح سنية . توفى بالخرطوم سنة (١٢٨٣ هـ ١٨٦٦ م) وقد عنى بجمع شعره فى كتاب الاديب محمد بك سعيد بن المرحوم جعفر باشا مظهر و وسمه « بالدر البهى المنسوق بديوان الاديب ابراهيم بك مرزوق » وطبعه سنة ١٢٩٧

مميزاته

قليل من أدباء هذا العصر من يعرف ابراهيم مرزوق بك ، وأقل منهم الذين يعرفون له قدره و يحلونه منزلته اللائقة به من الفضل والادب . مع أنه كان من خيرة شعراء وقته ومحسنى كتابه على طريقة السجع المعهودة فى أقلامهم فى ذلك العهد . فله الفصول

الرائقة ، والقصائد الفائقة . ومارأيت فيما قرأت لشعراء عصره من كان يبلغ مكانه، أو يدانيه في اجادة التشطير، و إحكام التخميس، فقد جمع فيهما الى حسن المطالع، فخامة الصدور، وجمال الاعجاز، مع لطيف التوليد، و بديع الاختراع . فكم النادرة، طريف البادرة، منسجم الخمريات ، رقيق الغزليات ، وصافا لمجالي السرور وحلبات الانس والحبور . ولولا ما أصابه من الزمن ومحنه ، والدهر واحنه ، لبز فحول زمنه ، على ان هذا ليس بمانعه من أن يعد الى أولى طبقاتهم في الأدب ، بدا لي تعلق منها بسبب

مُؤَلَّفَاتُهُ

رحلة السلامة ونحلة الكرامة — رسالة وصف فيها حالة السودان ومارآه فيه من الاحداث وهي على الطريقة السجعية طبعت في وقتها ولا توجد الآن . ولا أظن ان له سواها من التصانيف بعد قصائده ورسائله

آثار أقلامه

نخب من نثره

مدينة الخرطوم

اقتحمنا غوارب الاقتاد ، وجبنا الصخور والاوتاد ، مسئدين فى المهامه والقفار ، مستندين الى أعواد الاكوار ، مصطحبين ما يفت فى عضد الاصطبار ، و يقلب قلب القرار على النار ، من شعث الطريق ، وحزن نث الضيق ، الى أن وصلنا بالمقدر المحتوم ، الى بندر الخرطوم ، فكانت المحفوفة بالقذى ، المحروسة بالاذى ، لانها القرية الظالم أهلها ، المستحيل مثلها ، بسبب هوائها الوخيم ، ووبائها المستديم ، فكنت تراها أقذر من بيت الدجاج ، وأهون من تبالة على الحجاج ، لما بها من الحشرات ، المجهولة الاسماء والصفات ، التى ليس منها خلاص ، ولا للجروح قصاص ، لتواردها من الست الجهات ، الى شن الغارات ، ويكاد المقيم بها وقت القيظ ، يتميز من الغيظ ، ويستغيث من السعير ، فى أوقات الزمهرير ، فهى بين رياح متخالفة ، وزعازع متوالفة ، وظلل من الضباب ، كأنه يوم الحساب

بلاد لا سمين من رعاها ❊ ولا حسن بأهيلها اليسار
اذا لبس الدروع ليوم بؤس ❊ فأحسن ما لبست لها الفرار

فلو مكثت غير بعيد ، وأجلبت بخيل المعتصم والوليد ، واستعديت بذي القرنين ، واستنجدت من وراء الصدفين ، ونشرت أبا مسلم الخرساني ، وخرجت فى رايات

السفيانى ، و بعثت بالرياح السوافى ، و رميت بثالثة الاثافى ، و رصدت الكواكب ، وميزت بين المغلوب والغالب ، و زحفت فى جنود صفّين ، وقاتلت الى يوم الدين ، لما كنت ظفرت على حشراتها بالفتوح ، ولو عمرت عمر نوح ، فانا كنا فى مصادمة الامطار ، ومزاحمة الاقدار ، لولا أن منّ الله بحضور سعادة جعفر مظهر باشا الحكمدار ، فانه قد شمر عن ساعد الاجتهاد ، و بث الطلائع والرواد ، واستدرك مافات ، فى دفع الآفات ، و بذل جهده فى تنقية هذا البلد ، و والد وماولد ، وأكب بهمته عليها ، ونظر بعين العناية اليها ، ومامول أنها بهمته ان لم تكن كإرم ذات العماد ، فلابد أن تعد فى متمدن البلاد ، و ينال أهلها الرفاهية ، و يتمتعون بثمرات الامنية ، و يزاحمون فى التمدن باقى الدول ، و يقاومون بالعمارية أكبر الملل ، فى ظل السماحة الداورية ، وحسن توجهاتها السنية ، أعان الله تعالى الحكمدار على ذلك ، و وفقه لما هنالك

وأما أهلها الآن ، فهم على حال مَن غبر من الزمان ، زاعمين انهم أرداف أفيال ، وأبناء أقيال ، فترى منهم الملحف للحاجات ، من طريق العادات ، ومنهم من يلمزك فى الصدقات ، فان أعطوا منها رضوا ، والا أعرضوا ، وعليك اعترضوا ، و يمشى الناهى ، وهو لاهى

وكم ترى كلما أمعنت فى رجل * مثل النعامة لا طير ولا جمل

يمر كالثور والاطواد تنشده * انا محيوك فاسلم أيها الطلل

وأدخل من هذا القبيل ، فى العريض والطويل ، الى مالا يزهو فى العين ، ولا ينفق بدرهمين

ان تزره تجده أخلق من شيب الغوانى ومن تعفى الطلول

ومتى أضربت عن هذه الخبائث ، وعززتها بثالث ، رجعت الى العساكر السودانية ،

والسلالة الشيطانية، فالقول بيان ، وليس الخبر كالعيان ، ضروب من الانعام ، لا يميزون بين الحلال والحرام ، قد كان استدرجهم الامهال ، وتوسع لهم المجال ، حتى طغوا في البلاد ، وأكثروا فيها الفساد ، فتوطنوا حجور المظالم ، وارتضعوا اخلاف المآثم ، حتى صاروا بعدبرية التاكة « كسله » أظلم من جند السفينة ،وأجرأ من اليزيد على حرم المدينه ،ولكن سطوة القوة العسكرية بنفوذ الصحة الخديوية ، قد أوقعت بهم الحين ، في أقل من طرفة عين ، حتى صاروا كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ، كلا قد خلت منهم البلاد ، واستراحت العباد ، والذين اعتصموا بالنوبة والتزموا بالاوبة ، صار جلاؤهم عن مدرج أوكارهم ، وأخرجوا من ديارهم ، وبدد شملهم ، وفارقوا أماكنهم ، فاصبحوا لا ترى الامساكنهم ، وتلك عاقبة المفسدين ، والحمد لله رب العالمين

من رسالة الى شريف باشا

الكريم يصون وجه الحر عن الابتذال ، ويقيه بعز كرمه ذل السؤال ، والعبد منتظر اشراق طارق السعد ، لوثوقه بنجاز سالف الوعد ،وقد عيل الاصطبار ، وطال الانتظار ، والمأمول في سيدي أن لا يخيب قاصده ، وبحر كرمه لا يظمأ وارده ، وقد أشاع القاصي والداني ، انى بلغت بهمته الاماني ، حتى وفدت على مراسلة التهاني ، من أصدقائي وخلاني ، وحاشا كرمه الجم ،واحسانه الذي عم ، ان يرضى بعودي صفر اليدين ، ورجوعي الى أهلي بخُفّي حُنين ، سيما وقد علم الجميع ، اني التجأت الى ركن مجد منيف ، وتمسكت من حسن التفاته بوعد كريم شريف

نبذ من شعره

تخميس نفيس
على سينية ابن خطيب داريا

بحق عهد بيننا مانسي * وفرط تعذيبك للانفس
وشربك الياقوت بالاكؤس * «هات اسقني الصهباء يامؤنسي
على بساط الزهر والنرجس»

واهزم بها عني صروف الجوى * وخل من باللوم فيها غوى
واسق كايم القلب فهي الدواء * «فالوقت قد راق ورق الهوى
وجاد بالوصل الزمان المسي»

ان الصبا في حسن تسياره * قد جعد الماء بتياره
وحرك النفس بمزماره * «والروض قد وافى بأزهاره
يتيه في زاه من الملبس»

أما ترى تاج الربيع انعقد * وألبس النهر دروع الزرد
وخلق الارض بثوب الجسد * «كانما الاغصان غيد وقد
لبسن أثوابا من الاطلس»

كانما عصفورها شارب * يهزأ بي كأنني تائب
والروض خود والحيا خاطب * «كانما شحرورها راهب
يردد الانجيل في بُرنُس»

والنرجس الغض لنا رامق * وبالتصابى لحظه ناطق
والدوح منه لونها رائق * «كانما مصفرها عاشق
صب بأثواب الضنى قد كسى»

كانما الازهار لما زكت * من شوكة الورد جميعاً شكت
والبلبل الصائح خوفا سكت * «كانما الخيلان نار ذكت
لكن بغير الطرف لم تقبس»

كان طرف الدهر عنا قذى * وقد رقينا برقى العائذ
طائر قلبى فرَّ من منقذى * «كان غصن البان قد الذى
أهواه فى ملبسه السندسى»

لو خفت مثلى طرفه الادعجا * أو لو رأيت فرقه الابلجا
والشعر لو أبصرت لما سجا * «كان بدر التم تحت الدجى
جبينه الباهر فى الحندس»

فيا نديما لى بمخلوجة * مصباحها ضاء بديجوجة
نفسى لا ترضى بمشجوجة * «فعاطنيها غير ممزوجة
عذراء تجلو صدأ الانفس»

بحق ارشادك فى نهجها * ورشفها كالشمس فى برجها
لا تمن الماء على شجها * «فان يكن لابد من مزجها
فمن رضاب الشادن الالعس»

فلو سقيت المعدم المعسرا * كأسا دهاقا ذهبا أحمرا
لصار فى الحال مليك الورى * «فاشرب وناولنى الى أن ترى
طلق لسانى عاد كالاخرس»

واشرب وشم نجم الهنا طالعا * واسق فتى فى نفسها طامعا
وكلما قلت أمل كن طائعا * « ولا تكن منى بذا قانعا
حتى ترانى ضحكة المجلس »

وخل أهل الفقه تهذى به * ومل الى الشعر وتهذيبه
فى حلية الكاس وتذهيبه * « هذا هو العيش ومن لى به
فى دير مار الياس أو بطرس »

والدقها عنك أذى حمقهم * والروم قض العمر فى عشقهم
وفيهم فارع وفى حقهم * « رهبان دير طيب أخلاقهم
أصفى من الراح لمستأنس »

أما تراها للصفا منهجا * فلا تطع فى شربها من هجا
واشرب وامهر بكرها بالحجا * « مع فتية شبه بدور الدجا
اذا بدوا فى اسود الملبس »

فبع نفيس الكتب واشر الطلا * واهجر شيوخ الفقه هجر القلى
واصحب ظباء ثغرهم قد حلا * « أكثر ألفاظهم اشرب فلا
تسمع فيها أفت أو درّس »

فالعمر عند الفطن النابه * مستودع لابد من نهبه
فصرفه فى الراح أولى به * « مالى وللفقه وأصحابه
يا نفس منهم آن أن تياسى »

قلبى فى سخط الهوى قد قضى * ياليته حق التصابى قضى
فى ذمة اللهو زمان الرضا * « وفى سبيل الله عمر مضى
فى نجس الماء ولم ينجس »

عمر مضى لو بالصفا نلته * مر سريعا ما تأملته
بالنحو والمنطق أشغلته * «يا ويح قلبي ما الذي قلته
فضول اسم لو بنا فقعس»

وشمل درس العلم قد شتتا * وليس يستعوض ما فوتا
فهاتها من كف ذاك الفتى * «الى م ذا النحو وحتى متى
أدرسه ياليت لم أدرس»

كم رحت أسعى لابسا «مقلتي» * فقال لى المولع بالشيرة(١)
مستهزئا بى رد لى زوجتى * «بعدا لبيقارى وفرجيتى
ومشيتى كالخائف المبلس»

والظبي جرجى بين اترابه * كالشمس أو كالبدر مع شهبه
يسخر من مكثى على بابه * «وكمى المهدول مما به
من كتب محفوظها قد نسى»

ويضحك الناس بتأنيبه * على جوى قلبي وتعذيبه
وعارضى الزائد فى شيبه * «وطيلسانى حين أمشى به
شبيه درجانس أوجرجس»

أرى المجوس جهلوا قدرها * لو انصفوها عبدوا نارها
كم كست الندمان أنوارها * «لو علم المسكين مقدارها
ماراح فى حاناتها مكتسى»

فالكاس أضحى للصفا كافلا * وسد بابا للاسى مقفلا
فلا تراع مجلسا حافلا * «قم ياندمى واسقنيها فلا
وفقت ان حييت ذا المجلس»

(١) يريد بالمقلة العمامة الكبيرة على التعريف العامى والشيرة «الحشيشة» وحسن الهيئة

واشرب وأرو الارض فى صبها * وانف بها الاتراح عن صبها
وخلق البيت سرورا بها * «وعدّ عمن لام فى شربها
فليس يدرى لذة الاكؤس»
وهاتها ولا تطع من نها * وان تجد نفس شكت أينها
فاصبب على الكاس أودنها * «وان يكن قد نجسوا عينها
فعاطنيها ويك واستنجس»
مضناك يامولى الملاح اسقه * راحا تروض الصعب من خلقه
والله تواب على خلقه * «فقل لمن قدراح من حمقه
من رحمة الله بها ميئس»
العبد ان تاب فما مثله * قد أخبرت عن ربنا رسله
فياجهولا ساءه جهله * «ان الذى آنسنى فضله
من شانه العفو الى من يسى»

صفو ليلة

يا ليلة هى كانت ليلة العمر * بقصر شبرا ونهر النيل والقمر
والجو طلق المحيا والصبا جمعت * لطف الاصيل لنا مع رقة السحر
حيث السماء بها الافلاك سائرة * كالفلك دائرة فى لجة النهر
والبدر مكتمل فيها وقد نظمت * من حوله نيرات الانجم الزهر
كغادة من بنات الروم حلتها * من لازورد عليها انفس الدرر
والنهر يجرى لجينا من سباه ومن * يد النسيم عليها أبدع الصور
والموج يبدى فنون الرقص فى مرج * يجلو صدا النفس والافكار والبصر
والماء صب باغصان الربا كلف * للثم أقدامها يجرى على قدر

وكلما خر للشكوى تجود له * أ كمامها من نثار النَّور بالبـدر
مثل العرائس يجلو حسن بهجتها * مرُّ الصبا فى بديع الوشى والحبر
تكاد تسلب لولا ان بلبلها * راق يعوذها من آفـة الحور
فالشهب ساطعة والقضب راكعة * والطير ساجعة تشدوا على الشجر
وللنسيم على الاغصان ولولة * كانما هو يتلو العشق فى سور
فصوته وهزار الروض حين شدا * قد وافقا نغمة الشادى على الوتر
فكان بالعود مع ذا كله طربى * طورا وطورا بها يحلو من السمر
ومن أحب على لهوى يساعدنى * والدهر عبدى فلا أخشى من الغير
وراحـه ولماه كلما اجتمعا * بحار لبى بين السُّكر والسَّكر
وكيف أصحو ولى من شهد ريقته * خمر تألف بين الطيب والخصر
عجبت للثغر يروينى بكوثره * والخد يرمى لظاه القلب بالشرر
ومن جنى خده وردى وفاكهتى * مما يحـيي به من يانـع الثمـر
يقول قم واقترح ماشئت تلق كما * تهوى بلا ملل مـنى ولا ضجر
فيالها كلمات كلها تحف * بحسن رقتها قد حيرت فـكرى
اشهى من البرء بعد السقم عندى بل * بعد العنا والاسى أحلى من الظفر
بها خلعت عذارى بل لبست بها * ثوب الخلاعة لم أركن الى الحذر
وبت أعثر فى ذيل المجون كما * يهوى شبابى وبعت النسك للكبر
فالشمس راحى وبدر التم حاملها * واللثم نقلى ومنديلى من الزهر
وكلما جد من أهوى لسفك دمى * جديت بالكاس فى سفك الدم الهدر
مازال يشربها صرفا وأشربها * ممزوجة باللمى والغنج والحور
فيالها ليـلة ما كان أطيبها * عندي وما كان احلى لذة السهر

غلالة الجمال

سل عن عناقي بنده وفراشه * هل حدثتني همتي بحرام
لوكنت بل لا كنت تبصره وقد * نضى الغلائل عنه في الحمام
وعليه من عرق دروع افرغت * وسطا وصال بصعدة وحسام
لرأيت قامة فضة من لؤلؤ * حملت شباكا في أتم نظام
ماذاك الاوالحيا متراكم * والجو مشتمل ببدر تمام
عجبا لخفة ذاته ولعقده * جبلي حنين في نحيل قوام
مازال سكري من سلاف حديثه * ولحاظه لامن عتيق مدام
ابدا يقابل در دمعي كلما * أشكو بلؤلؤ ثغره البسام
كيف التخلص من هوى رشأ غدا * سلطان حسن نافذ الاحكام
رشأ حوى ظرفا وحسن شمائل * أما الجمال فأوفر الأقسام

جنة مصر

عبدين نزهة مصر أضحت جنة * تزهو بابهج حلية وجمال
بالمنهل العذب الشهي بهابدت * بالحسن والاحسان شمس نوال
شخصت لها الابصار لما أصبحت * في حسنها الزاهي بدون مثال
شرفت بساكنها المفدى من غدا * بحر النوال ومنية الآمال
لازال محفوظ الجناب ممتعاً * بالعز والاسعاد والاقبال
أجرى من الاحسان فيها كوثرا * عذبا هنيئا طيب السلسال

شرف النفوس

ان الفضيلة فى الانام غدت على * شرف النفوس الشم أقوى حجة
فاذا أدعيت بان أصلك يافتى * من سادة الابطال أهل الهمة
أوضح لنا نور الشهامة مثلهم * وعلى رفيع المجد أحسن غيرة
ودع المظالم فى البرية واحترم * تلك الشريعة وانف كل رذيلة
واذا أدت الفخر فاسهد دائما * لطلابه واهجر لذيذ الهجعة
فتكون ذا شرف فتلك دلائل * دلت على شرف وكل فضيلة

منشية الاسكندرية

بسكندرية للصفا منشية * غراء واضحة البها غناء
سطعت شموس الحسن فى ارجائها * وبدوره فلها سنى وسناء
ولمائها الصافى اذا لعبت به * شمس الاصيل مع الضيا لألاء
حيث التفت رأيت ازهى روضة * سال النضار بها وقام الماء

فعل الهوى

خلعت عذارى فى الهوى متهتكا * ونزهت وجدى بالملاح عن الكتم
وطاب الىّ اللوم فيه ولذلى * وقوع جهول بالمحبة فى ذمى
فيا صبوتى زيدى ويارشد خلنى * وسفه عذولى فى الصبابة ياحلمى

عينا الحب

لم أنس تقسيم عينيه فواحدة * الى الرقيب وأخرى بالوصال تعد
لحزبه حوله واللحظ يسعفنا * بما نشاء وكل بالمرام سعد

فلكية

انظر الى الشمس لما البدر قابلها * وكان قصدهما ان يظهرا الشغفا
ما استحكم الأمر حتى حال بينهما * وجه الرقيب الكثيف الجرم فانكسفا

تجاهل العارف

رأتني ومن تخشى يساجلني الاسى * فقالت شفاه الله من ذا المتيم؟
فقال فلان صاحبي فتنهدت * وقالت ايا روحى تعيش وتسلم

التغافل

أخلو به ليلى ولى ما أشتهى * ويمر بى فى الصبح لا يتكلم
واذا التقينا والرقيب فلفظه * هجر واما لحظه فمسلم

عفو القادر

اذا الله أولانى اقتدارا على امرىء * اساء جعلت العفو شكرا لما أولى
لانى لم أفضله ان جئت مثله * وبالحر ما أحرى الكمال وما أولى

المعلم بطرس البستاني



ترجمته

هو بطرس بن بولس البستانى من أعيان مسيحيي سوريا ورأس هذه الاسرة البستانية الكريمة ولد سنة (١٢٣٥ ﻫ ١٨١٩ م) فى قرية الدبية من قرى لبنان

وأخذ مبادىء القراءة والكتابة عن الخورى ميخائيل البستانى ، ثم التحق بمدرسة عين ورقة ، فدرس بها قواعد العربية وشدا شيئاً من السريانية واللاتينية والايطالية والعبرانية والانكليزية وغير ذلك من الفنون والآداب . ثم صحب المرسلين الاميركان وعلم فى مدارسهم ، وأظهر من البراعة والاجتهاد ما جعله موضع اعجابهم ، ومن ثم أبرمت أسباب الصداقة بينه و بين الدكتور فانديك الشهير وظاهر كل منهما صاحبه على مشاريعه العلمية والادبية من تأسيس المدارس وأنشأ الكتب والصحائف وسواها . ثم عين مترجما لقنصلية أميركا فى بيروت ولم يشغله ذلك عن وضع الكتب لتلاميذ المدارس وتعريب ما يرى فيه النفع للمتأدبين . ثم صبت نفسه الى التوسع فى تأليف الكتب ونشر الاداب والمعارف فاكب على التصنيف ونشر الصحف يتلو بعضها بعضا بهمة لا تعرف الملل كما ترى ذلك مفصلا فى باب « مؤلفاته » ومازال يعمل و يكد فى خدمة البلاد بنشر الآداب بين طبقات أهلها الى ان وافاه أجله فتوفى سنة (١٨٨٣) وما انتشر نعيه فى الآفاق حتى أبنه الادباء ورثاه الشعراء

مُمَيِّزَاتُهُ

لو شاء الكاتب ان يصف ما امتاز به البستانى الكبير وصفا يصافح الحقيقة ، و يلبسه من خصائصه الادبية ثوبا نسجته يد الاصابة ، لتأبى عليه القلم ان ينظمه فى سلك المجيدين من الكتاب ولو كانوا أبناء عصره وأتراب زمانه ، وذلك لان من يسرح طرفه فيما ترك من المؤلفات ، و ينعم نظره فيما له من الآثار والمنشئات ، يرى انه لم يكن يعمل على ان يحسب فيما كتب من البلغاء ، أو يعد فيما أنشأ من الكتاب الابيناء ، ولا يسع الكاتب

الا ان يلحقه بأولئك الذين ينعتونهم بقادة الافكار ومحركى النهضات العلميـة والذين تظهرهم طبائع الاحوال فى كل جيل ، وقد خمـدت الاذهان ، وجمـدت الخواطر ، وسبحت العـقول فى بحار ما ألفت ، ووقفت حركات النفوس عند حـد ما عرفت ، فيحملون من عرفانهم منارا ، ويمهدون للافكار طرائق قددا ، ثم لا يلبثون ان تذهب بهم الايام ولا يبقى لهم مما يذكرون به من الآثار الا ما يكون شاهدا على نفوسهم ، مشيرا الى ذكرهم بالخلود والبقاء ، أو التلاشى والفناء ، على انه مع هذا كان من جبابرة الناهضين

مُؤَلَّفَاتُهُ

محيط المحيط — قاموس عربى جليل أفرغ فيه قاموس الفيروزابادى غير أنه رتبه ترتيبا حسنا على نمط الاساس والمصباح وأضاف اليـه طائفة من الالفاظ العاميـة والكلمات الاعجمية الدائرة على الالسنة ورفعه الى السلطان عبد العزيز فاثابه عليه بالوسام المجيـدى الثالث وجائزة من المـال . شاع هـذا الكتاب شيوعا عظيما حتى أصبح الآن نادر الوجود . وقـد بلغنى ان المعـلم عبد الله البستانى الشهير فى سوريا بالفضـل والادب قد أمضى زمنا وهو ينظر فى هذا الكتاب نظر تهذيب واصلاح ويرد كثيرا من الالفاظ الى أصولها وقد عزم بعد النهاية من تصحيحه وتنقيحه ان يقدمه للطبع لعل الله يوفقه لاتمام هذه الخدمة التى تذكر فتشكر

قطر المحيط — اختصره من سابقه وجعله قاموسا مدرسيا وهو معروف متداول

دائرة المعارف — سفر جليل من أجل الاسفار وأحفلها . فـكر فى وضعه بعـد انتهائه من قاموسه المحيط ثم كتب نموزجا عنه ورفعه الى محـدن مصر الخـديو اسماعيل

والتمس من لدنه الاعانة فصدرت ارادته رحمه الله بامداده بما يكفل ظهور هذا الكتاب في حيز الوجود فاشتركت الحكومة المصرية بألف نسخة وأمدته بمكتبة عظيمة حوت أجل الكتب وأنفعها للاستعانة بها على تحريرالدائرة ولم تقف هذه الاعانة عند هذا الحد بل اقتدى رجال الحكومة بمولاهم وسراة الامة المصرية بعزيزهم وفاضت أيديهم بالمساعدات المالية فأخذ البستانى فى تحريرها بمعاونة نفر من التلاميذ وطائفة من خريجى مدرسته الوطنية فى بيروت وكان غب سرادقها ان وقفت به حياته دون اتمام الجزء السابع منها فأتمه وأصدر الثامن ولده سليم ولحق به ثم اتحد ولداه الآخران نجيب ونسيب مع ابن عمهما العلامة سليمان افندى معرب الالياذة على السير على نهج منشئها لاصدار باقى أجزائها فأصدروا التاسع ثم جاؤا مصر وأصدروا العاشر والحادى عشر ثم وقف بهم الجد عند هذا الحد واشتغل كل منهم بشؤون حياته . ولعل باقيها لن يصدر أبداً على ان ما ظهر منها الى الآن لا يزيد على النصف بشىء يذكر وبهذا فقد دل ما صدر منها على علو همة منشئها وقصور خلفائه

جرائد — نفير سوريا . هى على ما يقال أول نشرة عربية ظهرت فى سوريا اذ أنشئت سنة ١٨٦٠ م — الجنان . مجلة علمية أدبية سياسية أنشأها سنة ١٨٧٠ وعهد بادارتها الى ولده سليم — الجنة . صحيفة سياسية أنشأها بعد الجنان ببضعة أشهر — الجنينة . جريدة أنشأها بعد الجنة بزمن قليل وولى زمامها العلامة سليمان افندى البستانى . وقد بطلت هذه الصحف منذ عهد بعيد

روبنسن كروزى — قصة ترجمها بعبارة لا ترتفع عن العامية بشىء وهى فى موضوعها وغايتها أشبه بقصة السندباد الواردة فى كتاب الف ليلة وليلة ولا فرق بينهما الاان عبارة السندباد أسلم من عبارتها وأرق . وهى مطبوعة منتشرة

وله غير ذلك كتب ورسائل وخطب ومترجمات مدرسية وغيرها أكثرها معروف لدى الطلاب

آثار أقلامه

نخب من نثره

أداب العرب فى عهد الرشيد

كان هرون الرشيد شهرة عظيمة فى الرغبة والهمة والنشاط فى احياء العلوم والآداب ونشرها فى مملكته المتسعة ، وكان هو نفسه ماهراً فى الشعر والموسيقى ، ومغرما بهذين الفنين المستظرفين ، وقد كتبت فى أيامه تصانيف كثيرة فى علوم المملكة الاسلامية ، وقد جمع فى بلاطه جماغفيراً من أكابر وفحول العلماء ، فكان أقرب الناس منه وأحبهم اليه العلماء ، فكان يحسن مثواهم ، و يجزل عطاءهم ، و يرفع منزلتهم ، فاضحت العرب مديونين كثيراً له فى أمر تقدمهم السريع فى الآداب لانه سن شريعة انه حينما بنى جامع فى مملكته يبنى بجانبه مدرسة الآداب . وكان كلما سافر الى مكان أو قصد الحج يستصحب معه مائة من علماء زمانه ، وكان يعتبر العلم أينما وجد ، والعلماء مهما كان مذهبهم ، فلم يكن يزدرى بمعرفة من يخالفه فى أمر المذهب فان رئيس مدارسه وأول مدير للعلوم فى المدارس العالية فى مملكته كان رجلا نصرانيا نسطوريا دمشقيا اسمه يوحنا بن ماسويه وقد اقتدى بمثاله هذا الذى يدل على جودة عقله وكرم أخلاقه خلفاؤه ، وهكذا لم يمض الا قليل حتى امتدت الآداب التى كانت تعلم فى العاصمة منتشرة الى اقصاء الخلافة

ولكن اوغسطوس الآداب العربية هو الخليفة عبدالله المأمون بن هرون الرشيد فانه لما أفضت الخلافة اليه تمم ما بدأ به جده المنصور فأقبل على طلب العلم فى مواضعه وكان منذ نعومة أظفاره مولعا بالمطالعة والدرس وقد اتخذ فى حياة والده صحابة له من مشاهير علماء اليونان والعجم والكلدان ، ولما تبوأ تخت السلطنة لم تلهه مهماتها وعظمتها عن الاعتناء بالعلوم والقيام بحقها وحق أربابها ، فكانت الشعراء والفلاسفة والمهندسون تتوارد اليه الى بغداد من كل بلاد ومملة ، وقد أمر سفراءه ونوابه فى ارمينية وسوريا ومصر أن يجمعوا ما يمكن وجوده فيها من الكتب الأكثر اعتباراً ويبعثوا بها اليه ، فكانت ذخائر آداب الأقاليم التى تغلب عليها تجمع بكل اعتناء وتوضع أمام عرشه كاعظم جزية وأفخر التحف والهدايا عنده ، فكنت ترى مئات من الجمال داخلة بغداد حاملة كتبا من آداب اليونانيين والعبرانيين والعجم . وقد داخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا اليه منها ما حضرهم فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلفهم احكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما أمكن ثم حرض الناس على قراءتها ورغبهم فى تعليمها وهكذا كان بلاطه ببغداد مؤلفا من المعلمين والشراح والمترجمين ، فكانت بغداد مدرسة علمية كما كانت عاصمة مملكة . وكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم علما منه بان أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده ، وقد صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة وزهدوا فى ما رغب فيه أهل الصين والترك ومن نزع منزعهم من التنافس فى دقة الصنائع العملية والتباهى بأخلاق النفس الغضبية والتناظر بالقوى الشهوانية اذ علموا ان البهائم تشاركهم فيها وتفضلهم فى كثير منها ، ولهذا السبب كان أهل العلم مصابيح الدجى وسادة البشر توحش الدنيا لفقدهم . قيل ان المامون اذ كان يعلم بوجود خزائن متسعة من التصانيف العلمية فى مكتبة القسطنطينية فلما عقد الصلح مع ميخائيل الثالث ملك الروم جعل أحد شروط الصلح

والمعاهدة ان الملك ميخائيل يبعث اليه مجموعا من التصانيف المعتبرة النادرة الوجود الموجودة فى المكتبة المذكورة وما صدق ان وصل ذلك اليه حتى أمر أحذق علماء بلاطة بترجمته الى لغته العربية المشرفة ، قيل وبعد تميم ترجمة تلك المكتبة المعتبرة فبغيرة مفرطة على شرف لغته أمر باحراق النسخ الأصلية ، وفى أيام المأمون أنشئت مدارس كثيرة كلية فى بغداد والبصرة وأماكن أخرى وجمعت مكاتب شتى فى مواضع مختلفة ، قيل ان المأمون عرض مبلغا وافرا على ملك الروم ووعده بالصلح الدائم والمصادقة اذا بعث اليه بليو الفيلسوف اليونانى الشهير .

ومن الخلفاء الذين حاموا عن العلم والعلماء وصرفوا الهمة فى اكتساب الآداب واتقانها الواثق وكان ماهرا فى فنى الشعر والموسيقى وكان له ميل زائد الى التنجيم ، قيل انه لما اشتد مرضه أحضر المنجمين فنظروا فى مولده فقدروا له انه يعيش خمسين سنة مستأنفة من ذلك اليوم الا انه لم يعش بعد قولهم الا عشرة أيام وأخر خليفة التى آخر نورعلى أبناء بلاده هو المستنصر فانه زين بغداد بمدرسة عظيمة سماها المستنصرية ، قيل ولم يكن فى الممالك الاسلامية نظير لتلك المدرسة فى صورتها ولانها واتساعها وزخرفها وكثرة فقهائها وأوقافها وقد رتب فيها جماغفيرا من المدرسين والفقهاء وبنى لهم داخل المدرسة حماما خاصا ورتب للفقهاء طبيبا خاصا يفتقدهم كل يوم وأقام لهم من المشاهرات والخبز والطعام ما يكفيهم ويفضل عنهم

هذا وان كثيرا من الوزراء والنواب حذوا حذو ملوكهم فى تقوية العلوم وامتدادها فى الأماكن البعيدة عن العاصمة ، فان مصر مثلا بقيت أجيالا كثيرة مزينة بالعلم والعلماء حتى كنت ترى فيها مدارس للعلوم فى كل مدينة وبلدة وقرية ، قيل ان أحمد بن طولون نائب مصر كان يوزع كل شهر على مشايخ بلاده الف دينار وكان يرسل الى بغداد لاجل التوزيع على علمائها وفقرائها نحو ٢٢٠٠٠٠ دينار وكانت فوائد التعليم فى هذه

المدينة تمتد فى أوقات مختلفة الى ستة آلاف تلميذ من كل رتبـة من ابن الشريف الى ابن الصـناعى ، وحسن مدارسها يظهر فى كثرة عدد الشـعراء والمؤرخين والاطباء والمنجمين الذين خرجوا منها ، فقد كانت تنشأ مدارس صـغيرة وكبيرة ومكاتب فى كل بلدة . والبصرة والكوفة كادتا تساويان العاصمة نفسها فى الشهرة نظرا الى عدد المعلمين المشـهورين الذين خرجوا منها وكثرة التصانيف المعتـبرة التى ألفها علماؤها . وكذلك دمشق وحلب وبلخ وأصـفهان وسمرقند كان بها كثير من المدارس والمكاتب المعتبرة وقـد خرج منها جمع غفـير من فحول العلماء المدققين الذين لا يسعنا الوقت لذكرهم . ولا ينبغى ان نغفل عن ذكر القيروان وفاس ومراكش من أعمال المغرب التى كانت مزينـة بمدارس سامية ومكاتب معتبرة لأجل تعليم المغاربة الذين كانوا اقدمين ولا يزالوا الى الآن فى أعلى طبقة من الحذق والنباهة وبواسطة مدارس المغاربة ومكاتبهم المشهورة قد حفظ للغيرة الافرنجية فى القرون المتأخرة ذخائر ثمينة وكنوز فاخرة من العلوم والفنون

غير ان البلاد التى تلألأت فيها الاداب العربية بأكثر لمعان وإشراق ، وبقيت فيها مدة طويلة بعد أن درست فى البلاد المشرقية هى بلاد أسبانيا ، فان « كردوفا » و « سيفيلى » و « غرناطه » كانت تفاخر احـداها الاخرى فى عظمة مدارسها ومكاتبها ، وقد كان فى مدينة كردوفا وحدها نحو مائة وسبعين رجلا من فحول العلماء من أهاليها ، وكان فيها مكتبة عظيمة تحتوى على نحو أربعمائة الف كتاب ، وكان فى حوزة المتوكل الذى تسـلم زمام الحكومة فى الجيـل الثانى عشر مكتبة معتـبرة تحتوى على كتب نفيسة كان منها مائة وعشرون مؤلفا فى الالهيات والتاريخ والفلسفة ولم تزل نسخ منها محفوظة الى الآن فى مكاتب أوربا المعتبرة ، وكان فى مملكة الاندلس وحـدها سبعون مكتبة وسبع عشر مدرسة كلية

فمما تقدم بيانه يتضح لنا شـدة حرص العرب فى تلك الايام على اكتساب العلوم

والآداب واجتهادهم فی نموها وانتشارها ، واذا حققنا النظر فيما وصل الينا من فضلات علومهم ، وآثار جهادهم ، نرى انهم وان كانوا قد أخذوا علوما وفنونا كثيرة من اليونان والعجم والكلدان بواسطة الترجمة والاقتباس لا يمكن ان نسلم بأنهم إنما كانوا متقلدين لا مخترعين كما يزعم بعضهم ، لأننا نرى ان نفس العلوم التي سبقت الاشارة الى انهم ترجموها من لغات أجنبية قد اخترعوا فيها وزادوا عليها أمورا كثيرة جدا ، فان فن الطب مثلا الذي وجد قبل انتباه العرب الى العلوم باجيال كثيرة و ينسب اختراعه الى «ابقراط» اليوناني وتوسيعه الى «جالينوس» كان لم يزل ناقصا حتى كمله «ابن سينا» بعد ان كان «الرازی» قد جمع أبوابه المتفرقة فی كتاب سماه بالحاوی

وصناعة الكيميا فانها كانت قبل العرب فنا قد سرت اليه الاوهام الفاسدة وداخلته الشعبذات الكاسدة ، فأخذته العرب واخترعت فيه أمورا كثيرة حقيقية وأدخلته في علم الطب مع انه كان قبل أيامهم من أبواب السحر يستخدم لأجل تحويل المعادن الى ذهب بواسطة حجر الفلاسفة الذي كان الاقدمون يظنون انه ذو خاصية لسحر الارواح الخبيثة ، وشفاء الامراض ، واطالة الحياة الى ماشاء الله ، وهكذا القول في أكثر العلوم الاخر التي أخذتها العرب عن الاجانب

وأما العلوم التي لا يشك في كونها من اختراعات العرب فهي كثيرة يحتاج الى وقت مستطيل لتعداد مفرداتها وتصانيفها . فاننا اذا أمعنا النظر في العلوم المتعلقة باللغة العربية التي كانت قبل الاسلام لغة عديمة الضوابط والقوانين ومتفرقة على ألسنة قوم لم يكن لهم التفات الى العلوم والفنون ولا حظ في صناعة الحروف والتأليف نرى ان العرب قد صرفوا الهمة في ايجادها ، فوضعوا لهذه اللغة العجمية ضوابط وقوانين لاجل صيانتها من الفساد ورتبوا لها كتب لغة مشهورة قد جمعوها عن ألسنة العرب لاجل حفظها ، وجعلوا لها فنونا كثيرة مستظرفة كالمعاني والبيان والبديع والعروض وهلم جرّا الاجل

تهذيبها وتحسينها ، وكذلك الاشعار التى وجد عند العرب منها أكثر مما وجد عند باقى شعوب العالم جميعا لم تكن الا من نتائج اجتهادهم وجودة قريحتهم . ومن الغريب انه مع وجود اشعار « هوميروس » و « ورجليوس » وغيرهما من شعراء اليونان واللاتينيين المشهورين لا يوجد فى اشعار العرب شيء مقتبس منها . وقد ألفوا كتبا شتى فى علم الفلك والتاريخ ورسم الارض والفلسفة والالهيات والطبيعيات والحساب والجبر والمساحة والخط والزراعة والنباتات والموسيقى والفقه وبين ذلك فنون قد تعللوا بها كالكهانة والعرافة وضرب الرمل ورجز الطير وقيافة الاثر والسحر والطوالع ونحو ذلك وقد كثرت فى جميع ذلك تصانيفهم ومحاوراتهم كما يتضح لمن وقف على فهرست التآليف العربية التى بقيت مع مرور الايام وتقلب الازمان محفوظة لتكون دستورا ومنخسا للمتأخرين .
قيل انه يوجد فى مكتبة باريس الملكية أكثر من مائتى مؤلف فى صناعة النحو وحده

وممن كان فرد زمانه فى فنه أبو بكر الصديق فى النسب وأبن أبى طالب فى القضاء وابن كعب فى القراءة وابن ثابت فى الفرائض وابن عباس فى التفسير ووهب فى القصص وابن سيرين فى التعبير وأبو حنيفة فى الفقه ومقاتل فى التأويل والخليل فى العروض والمتنبي فى الشعر والاشعرى فى الكلام والحريرى فى المقامات والرازى فى الطب وابن حنبل فى السنة وأبو معشر فى النجوم وابن نباته فى الخطب والقاضى الفاضل فى الانشاء والاصمعى فى النوادر وابن سينا فى الفلسفة وابن جابر فى الكيميا وأبو الفدا فى التاريخ والفارابى فى التطبيقات والادريسى فى الجغرافيا والغزالى فى الالهيات وغيرهم فى غيرها .
هذا ومع ان الافرنج قد أخذوا تلالا بل جبالا من الكتب العربية مما لم يبق له عين ولا أثر عند العرب نرى ان التصانيف التى أبقتها الناصروف الايام هى وحدها كافية لان تبرهن لمن وقف عليها الامور الآتية وهى :—

أولا جودة العقل العربى وحسن استعداده لتحصيل العلوم ولاسيما ثلاثة أنواع

منها وهى العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية والعلوم اللغوية حتى انه لا يوجد فى العالم قوم يقدرون أن يفوقوا العرب حتى لا نقول أن يدركوا طبقاتهم فيها

ثانياً ثبات العرب وتجلدهم فى مقاساة المشقات والمصاعب المقترنة طبعا بتحصيل العلوم وذلك لدى وجود الاسباب المحركة اليها ، ويزيد ذلك وضوحا اذا اعتبرنا قلة الوسائط وضعفها فى تلك الايام ، فان البخار والسيال الكهربائى كانا حينئذ غير خاضعين للانسان وكانت المطبعة التى تحسب من أكبر قوات العالم والنظارة التى قلبت كثيرا من مبادىء الاولين من أساساتها لم تزل مستورة تحت ظل الغوامض وكانوا مع فقد صناعة الطبع يلتزمون ان يوجدوا كل ما أوجدوه من هذا القبيل بواسطة رأس قناة صغيرة الجرم ضعيفة العزم ، وكذلك قوة الانثى التى هى أكبر قوة فى الدنيا كانت فى تلك الاعصار محصورة فى لجج بحار الجهل العميق والغباوة الشديدة وكثيرا ما كانت هذه القوة تستخدم لاجل الضرب على رأس العلم فى نعومة أظفاره ، وعدم تحزب هذه القوة للعلم والعلماء كان من أكبر الاسباب لفقد العرب العلوم بهذا المقدار من السرعة

ثالثا فضل العرب على العالم فى هذا الامر وذلك من أوجه عديدة . منها انه فيما كانت العلوم والآداب فى خطر الفقد والتلاشى بسبب الحروب والمنازعات والفتن الاهلية فى العالم الغربى وجدت لنفسها فى مدارس العرب ملجأ تأوى أليه فحافظ العرب على الحلقة المتوسطة من سلسلة العلوم التى تربط العلوم القديمة بالعلوم الجديدة ولولا وجود هذه الحلقة لكنت ترى خلاء متسعا بين العلوم القديمة والحديثة لم يكن سبيل الى ملئه ، ومنها انه فيما كانت أوربا غائصة فى لجج الجهل والغباوة فى أجيالها المظلمة فتح العرب مدارسهم لقبول شبان الافرنج عندما استفاقوا من غفلتهم ووصلت العلوم تحت ظل وحماية العلم الاسلامى الى حدود بلادهم ، وهناك ناولتهم الاسلام باليد اليسرى أضعاف ما كانوا قد تناولوه منهم منذ نحو خمسمائة سنة باليد اليمنى ، وهكذا اشربت شبان فرنسا

وايطاليا وجرمانيا وانجلترا فى مدارس أسبانيا من ينابيع آداب العرب المتدفقة ، وفى سالرنو ومنتبلر وقفت تلاميذ النصارى المتواردة الى هناك من جميع أقسام أوربا لاجل تعلم الطب على تصانيف أبقراط وجالينوس حتى ان اليهود واليونان لم يأنفوا من تعلم صناعة الشفاء من العرب ، ومن ذلك ان العرب هم الذين بواسطة قدرتهم وحسن صنائعهم نبهوا الافرنج فى أجيالهم المظلمة من سُباتهم الثقيل الى طلب العلوم والصنائع وذلك يسلم به الافرنج أنفسهم ولا ينكرونه

رابعاً فضل اللغة العربية وطواعيتها فى قبول العلوم من دون احتياج الى استخدام لغات أجنبية الا فيما ندر ، وبما ان اللغة هى من أقوى الوسائط لوجود الآداب وانتشارها بين أهلها لا بأس اذا توسعنا قليلا فى الكلام على اللغة العربية وما يتعلق بها على وجه الاستطراد فنقول

لا سبيل الى الشك بان اللغة العربية هى من أقدم لغات العالم وأكملها وأشرفها ولولا الخوف من أن تطلب منى البينة لكنت أدعى لها بانها هى اللغة التى أنزلت على قلب أبينا آدم فى الفردوس الارضى ، وأقل ما أرغب أن أدعى لها به هو انها مع أختيها اللغة السريانية واللغة العبرانية أعضاء متفرعة أو فضلات باقية من تلك اللغة الآدمية المنزلة ، والباين من تاريخ هذه اللغة ان الله قد حفظها بنوع عجيب لغايات لا تدرك من تقلبات الايام وصروف الدهر ، ومع ان أصحاب هذه اللغة وصلوا الى أحط درجة من الجهل والبربرية بقيت اللغة محفوظة عندهم بواسطة التقليب والنقل مصونة من الفساد والتشعب الى لغات شتى بخلاف لغات أوربا ، وبعد ان خضعت لسلطان القلم الاسلامى صار بذل العناية وصرف الهمة باختراع وسائط قوية لحفظها سالمة صحيحة ، واتساع قاموسها وغناها فى الالفاظ والمعانى يجعلانها فى الرتبة الاولى بين اللغات حية كانت أو ميتة ، وكثرة عدد المتكلمين بهذه اللغة وكون الاراضى والاقاليم والبلدان التى هى منتشرة فيها

من أوسع وأحسن ما يوجد لاى لغة كانت يجعلان مستقبلها أهم وأعظم من باقى اللغات فى العالم ، واعتبار أهلها لها واحترامهم لقدميتها وفضلها صيراها غير قابلة للتغيير كعادات أهلها ، ومع ما نراه من شدة ميل أبناء العرب ولا سيما فى هذه الايام الى اللغات الاجنبية وعدم التفاتهم الى لغتهم الشريفة لا نخشى عليها من حوادث الدهر ، لان ذلك وقتى ناتج عن أسباب توجب زهدا فى اللغة العربية ورغبة فى اللغات الافرنجية ، وهذه الاسباب سابية كانت أو ايجابية لا بد من زوالها وبذلك يزول ما تسبب عنها . ومادام القرآن من الجهة الواحدة والكتب العربية فى فنون مختلفة من الجهة الاخرى مظللة على هذه اللغة يغلب الظن بانها تثبت غير منحصرة فى دائرتها الحالية وهى الهند وجزيرة العرب وشمال أفريقية بل ستمتد شرقا وغربا وجنوبا وشمالا بين أقوام آخرين ممن يقرون لها بالفضل وان كانوا لا يستطيعون التكلم بها ، ومع اننا نرى العجم والتتر والافرنج من الجهة الواحدة آخذين فى توسيع دائرة لغاتهم وادخالها بين العرب ، والمتفرنجين من الجهة الاخرى آخذين فى افساد و إماتة لغة أمهم بواسطة ابدالهم كلماتها المأنوسة بكلمات أجنبية نافرة لا تليق للغة العربية كما أن ملبوس أهلها لا يليق للعرب لا بد من قيام أناس من أبناء العرب الغيورين على لغتهم يسقون مقدارا كافيا من الافيون « للكومسيون » و « السيكورتاه » و « سكوزى » و « افندم » وما ضاهاها فيغمى عليها بحيث لا يبقى أمل فى صحوها و يضعون قنينة من روح النوشادر أمام أنف « العمالة » و « الضمانة » و « لا تؤاخذنى » و « سيدى » وهلم جرا من الكلمات العربية التى تدل على المعانى المدلول عليها بالالفاظ المذكورة فتستفيق من سباتها ، و بهذه الوسيلة يزول الفساد الطارئ على اللغة العربية والذوق العربى من هذا القبيل ، على أنه كما أن الناس تحتاج الى الناس كذلك اللغات تحتاج الى غيرها ولكن يجب الاقتصار على ما لا وجود له فى أصل تلك اللغة مما يزيدها قوة وحسنا لا تنافرا وثقلا

هذا ولا ينبغى أن نغفل عن تلك الكلمات النافرة الميتة الموجودة فى قواميس اللغة العربية مما لا فائدة منه للعرب الا التثقيل على الذهن العربى والقلم الشرقى، فهذه الكلمات يجب الحاقها بالكلمات الاجنبية المارذ كرها أو استخدامها لمعان أو مواد جديدة لم يصل اليها العقل العربى ولا الصناعة العربية أو ابدالها بكلمات من اللغة الدارجة مما جعل له الاستعمال قوة لا يمكن تحصيلها بغيره

ومما لا يشك به أن منبع الكلمات المترادفة الكثيرة الوجود فى اللغة العربية المكتتبة هو اختلاف القبائل التى تكلمت بهذه اللغة ، ولا يصدق أن بنى قريش أصحاب اللغة الفصحى كان عندهم خمسمائة اسم للاسد ، والظاهر أن الذين جمعوا متفرقات هذه اللغة عن السنة العرب فلاجل شدة اهتمامهم وحرصهم على حفظها كاملة من دون أن يفقد منها شيء جمعوا كل ما وجدوه من موادها بين العرب الذين كان لكل قبيلة منهم لغة خاصة واصطلاحات جارية عندها دون غيرها ، والبعض يحسبون أن كثرة المترادفات فى العربية غنى لها . والحال أن ذلك لا يجب أن يحسب غنى لانه لا يفيد زيادة فى المعانى التى هى المقصد الاصلى من اللغات ، واللغة التى يوجد فيها ألفاظ كثيرة لمعنى واحد مع أنه يوجد معان كثيرة لا يوجد لها فيها ألفاظ للتعبير بها عنها هى فى الحقيقة فقيرة لا غنية وأهلها فقراء لا أغنياء ، و ينتج مقصود نا فيما تقدم مما يأتى

قيل مر ذات يوم أبو علقمة ببعض طرق البصرة فهاجت به دابته مرة فوقع الى الارض فوثب عليه قوم يعصرون ابهامه و يؤذنون فى أذنه فافلت منهم وقال « مالكم تكأكأتم علىّ كتكأكئكم على ذى جُنة أفرنقعوا عنى » أى « مالكم اجتمعتم على اجتماعكم على مجنون اعتزلوا عنى » فقال بعضهم دعوه فان جنيته تتكلم بالهندية . وقيل ان اعرابيا اصطاد ذات يوم سنورا ولم يعلم ماهو فلقيه رجل فقال ماهذا السنور؟ ثم لقيه أخر فقال ماهذا الضيون؟ ثم لقيه آخر فقال ماهذا

الخيدع ؟ ثم لقية آخر فقال ماهذا الخيطل ؟ ثم لقيه آخر فقال ماهذا الدم ؟ ولو لقيه آخر في هذه الايام اقال ماهـذا البسين ؟ فقال الاعرابي في نفسه أحمله الى السوق وأبيعه فسيجعل الله لي فيه مالا كثيرا فلما أتى السوق قيل له بكم هذا ؟ قال بمائتي دينار فقيل له إنما يساوي نصف درهم فاحتمى الاعرابي غضبا ورمى به الى الارض وقال تباله ماأكثر اسماءه وأقل ثمنه

وبما أن العرب كانوا يكرمون الابل ويعظمونها لانهم كانوا يكتسون بوبرها ويتغذون بلحومها ولبنها وكانت هي تقوم بكامل خدمتهم الارتحالية بمنزلة عربات برية أومراكب بحرية ترى لغتهم مشحونة من الالفاظ المتعلقة بهذا الحيوان الهائل الجسم العظيم القدر فلا يوجد عضو للناقة الا وله اسم خاص ولا توجد لها حالة أومعنى الا وقد أوجدوا لها كلمة تدل عليها حتى صرنا اذا راجعنا قاموس العربية نجد فيه ألوفا من الكلمات التي تنبعث منها رائحة النوق والجمال ويمكننا أن نقول على سبيل المبالغة أنه يوجد في اللغة العربية عبارات للناقة تكاد تساوي وبرها عددا ، فما هي الفائدة للحضر من هذه العبارات مع استغنائهم بالعربات عن خدمة الابل وبقرقعة دواليب المراكب النارية عن عجيجها وبرائحة الفحم الحجري عن رائحتها ، فهنا محل واسع للاصلاح ونقل ما يمكن نقله من تلك العبارات البدوية الى موضوعات حضرية يضطر الى وسائط التعبير عنها كل من ألقاه الدهر في وسط جماعة متمدنة

هذا وان حالة العلوم المتعلقة باللغة العربية كالصرف والنحو مثلا ليست بأقل احتياجا من اللغة نفسها الى الاصلاح من هـذا القبيل فانها في حالتها الحاضرة لا توافق الذين يقصدون العلوم طلبا لنوال ما يترتب عليها من أمر المعيشة وذلك لان كامل حياتهم بالكد يكفي لتحصيلها على حقها ، وهذا من جملة الاسباب التي تحمل أهلها يهملونها بالكلية أو يتخذون لغة أو لغات أجنبية ضرائر لها ، وهل يليق بالانسان الذي انما

جعلت له اللغة واسطة و بابا للعلوم أن يجعلها غاية و يصرف حياته كلها واقفا أمام ذلك الباب على نقشه و زخرفه الخارجي مع إيقانه بأنه يوجد وراءه تحف قديمة وحديثة تسلب القلب وتخلب الالباب ، وصاحب العقل السليم لا يسعه الجهل بان منهج الاقدمين في وضع قواعد هذه اللغة ونظامها وادخالهم بين تلك القواعد أبوابا من كل العلوم والفنون وتعليلاتهم المستطيلة التي يحسبها البعض منزلة مع أنها ليست الا مناسبات حصلت بعد الوقوع تلهي أبناء هذا الزمان عن الالتفات الى الامور الحقيقية وتشغل وقتهم عن الوصول الى الفنون المفيدة ولا شك أن ذلك هو من جملة الاسباب التي أوجبت فقد العلوم من بين العرب . ومما لا ريب فيه أنه يجب وضع قاموس اللغة العربية والعلوم المختصة بها بالذات في قالب يجعل تحصيلها في ظرف سنة ميسوراً لاهلها الذين نباهتهم في اكتساب اللغات الغربية في المدة المذكورة يشهد بانه لا يجب أن يصرفوا أكثرها في تعلم أصول لغة رضعوها مع اللبن ، ولكن اذا وجد قوم من أصحاب الغنى والخطر يلذ لهم الفحص عن الامور القديمة والتفتيش عن المواد السالفة و يقصدون ذلك بالذات فلنترك لهم الحرية التامة في هذا الامر و نكلفهم بالمحافظة على اللغة القديمة ولندع تكأكؤ الاعرابي وأساجيع الحريري وفيروزابادیات الفير وزبادي موضوعات لتأملاتهم الدائمة ، ودرسهم الابدي . والظاهر ان هذا الاصلاح محفوظ للاجيال المستقبلة

وهو مستغن عن البيان ان اللغة من شأنها ان تنمو بنمو معارف أهلها وفنونهم وصنائعهم ومتاجرهم واختراعاتهم ومن ثم كان وضع حد للالفاظ والمعاني في لغة قوم مما لا تجوز محاولته ولا يمكن اجراؤه ، لانه اذا وضع حد معلوم لالفاظ لغة ما كما هو الحال في اللغة العربية التي منذ أجيال كثيرة قد دخل فيها ما دخل ولم يبق باب لدخول غيره يلتزم أصحاب تلك اللغة عن امتداد المعارف والصنائع عندهم لاجل التمكن من استخدام الفاظ للتعبير عما هو في أنفسهم ولقضاء مصالحهم ان يلتجئوا الى لغة أجنبية أو يخترعوا كلمات جديدة حوشية ، وهكذا تولدت عند العرب لغة دارجة بينهم تختلف كثيرا

عن لغة الكتب ، وهذه اللغة الدارجة نراها تتهدد دائما اللغة الاصلية ، واذا طال الحال عليها هكذا تميت كثيرا من ألفاظها فوق ما أماتته فيلتزم العرب فى آخر الامر ان يهملوا باللغة العربية كما فعل اليونان والارمن بلغاتهم الاصلية ويعطوا اللغة الدارجة محل اللغة الاصلية ، فتصير اللغة الاصلية لغة العلماء وأصحاب التفتيش فقط كالغة اللاتينية عند الافرنج ، ولا يمكن أن يتصور حصول خسارة للعرب أعظم من هذه ، ولكن ازدياد عدد المدارس والمكاتب والمطابع فى هذه الايام وأملنا بالزيادة على زيادتها فيما يأتى يجعلان لنا شيئا من الطمأنينة من هذا القبيل

ومازالت العرب كذلك حتى سقطت رغبة الملوك والاكابر فى العلم فانقطعت أسباب الطلب ، وتعطل السعى فى تحصيله ، ودرست مصنفاته حتى فقد كثير منها فلم يبق لها عين ولا أثر ، وكسدت بضاعة العلم ، وأفنى الدهر أهله ، واستولى الجهل بسطوة عظيمة على الناس حتى صاروا يظنون ان تحصيل العلوم أمر فاسد ، وسعى باطل ، فلما رأت العلوم كساد بضاعتها ، وعدم رواج سوقها بين العرب ، اكتست ثياب الحداد وسارت كاسفة البال قاصدة بلاد أوربا عن طريق المغرب واسبانيا تلتجئ هناك تحت الالوية الغربية ، واذ كان الافرنج قد زاروا البلدان المشرقية واختلطوا بالعرب مدة مستطيلة وهناك استفادوا وذوقا جديدا ، و رغبة جديدة فى المعارف والعلوم واطلعوا على فوائد التمدن فتحوا لها أبوابهم وقلوبهم مرحبين بذلك الصديق القديم الذى كان قد فارقهم منذ اجيال كثيرة لعدم قيامهم بحقه ، ففعل كرلوس الكبير ملك فرنسا بالعلوم العربية كما فعل المامون بالعلوم اليونانية ، فأمر بترجمة اطايب تصانيف العرب الى اللغة اللاتينية محافظا على نسختها الاصلية خلافا لما روى عن المامون . وهكذا العلوم التى انتقلت من الغرب الى الشرق من جهة القطبة الشمالية رجعت بارباحها الوافرة من الشرق الى الغرب من جهة القطبة الجنوبية وأخذت تنتشر فى البلدان الغربية حتى وصلت الى أقصى أطرافها ، وهكذا أخذ نورها يتناقص فى الشرق ويتزايد فى الغرب منذ الجيل الثانى عشر حتى وصل الى ما وصل اليه الآن عند العرب والافرنج

الشيخ عبد الهادى نجا الابيارى

ترجمة

هو عبد الهادى بن السيد رضوان نجا ولد فى قرية ابيار من قرى اقليم الغربية بمصر سنة (١٢٣٦ هـ ١٨٢١ م) وكان والده من أهل العلم والفضل فلقنه مبادئ القراءة والكتابة وأذاقه حلاوة الآداب وألوان الفنون والاعراب ثم ألحقه بالازهر فجاور به مدة طويلة حصل فيها على سائر العلوم الازهرية من دينية ولسانية وما لبث أن ذاع صيته وبعد ذكره . ولما نما فضله الى الخديو اسماعيل باشا دعاه الى حضرته وعهد اليه فى تأديب أنجاله وتلقينهم الآداب العربية فقام بما عهد اليه خير قيام مع مواظبته على التدريس فى الجامع الازهر ومراسلة أدباء عصره وشعراء زمانه وتخرج عليه رجال اشتهروا بالعلم والفضل نخص بالذكر من بينهم العلامة الشيخ حسن الطويل . ويؤخذ مما كتبه المترجم فى بعض رسائله أن وشائج الالفة بينه وبين اسماعيل صديق باشا الشهير بالمفتش لم تكن على مايرام فأوغر عليه صدر الخديو اسماعيل فأوعز الخديو الى بعض خاصته أن يكتب الى المترجم له بترك القاهرة واختيار بلد آخر لسكناه . فأم ابيار ومكث بها الى أن نُكب اسماعيل صديق فاستدعاه الخديو اسماعيل اليه وقربه وأدناه وأفاض عليه من سجال فضله وغزير عطاياه . ومازال ملحوظاً بعنايته الى أن تولى

الخديو توفيق باشا فاسند اليه أمامة معيته وافتاءها فظل بها الى أن توفى سنة (١٣٠١ هـ ١٨٨٨ م) رحمه الله

مُمَيِّزَاتُهُ

للشيخ عبدالهادى أياد غر وأقلام حداد فى فنون الادب العربى تذكر له بالشكر وتؤثر بالثناء، غير أنه كان مولعا بالسجع، مفرطا فى تجشم أهواله، وتحمل أثقاله، متهالكا على نكات البديع، مكثرا من إراقتها على بساط طروسه، ولعله كان يظن أن الكتابة انما تنقاد الى الحريص على تطلبها وليست فيض النفوس، وغيث الارواح، ووحى الملكات، وما كانت اللغة وفنونها إلا مثاراً لكوامن الاذهان، ومبعثا لمطايا الفكر. ولقد يتراوح فى ظنى أنه كان من المتهافتين على أدب أهل التكلف والصناعة من كتاب الاندلس وشعرائه، المفرطين فى احتذائهم وتتبع آثارهم فى طباقات البديع وجناساته مما هو مخالف للطبع السليم، مباين للملكة الذوق الحسن. وقلما رأينا أحدا من الناس تأدب بأدب الاندلسيين، ووقف نفسه على ما هو مدون لهم من منظوم ومنثور، ثم كان غب سراه أن صار بين أهل الادب من فضلاء الشرقيين محمود الاثر فى أدبه، موفور الفضل فى تحبيرانه وخطبه. وما كان المبرز من فحول الادباء فى الاندلس الا من تلمذ لاعيان أهل الفضل من الشرقيين. ولولا ما سام به نفسه من التكلف فى نثره، وحملها عليه من التعمل فى نظمه، لعد من الكرام الكاتبين، وحسب من الشعراء المجلين، وإذا فاتته هذه فلا يخطئه أنه كان من أكابر أدباء زمانه الذين أنجبهم الازهر من بين علمائه على ندرة نجبائه منهم فى ذلك العهد

مؤلفاته

سعود المطالع — كان الابياري قد وضع رسالة صناعية ضمنها لغزاً في اسم الخديو اسماعيل عليه الرحمة ثم شرح هذه الرسالة وحل هذا اللغز في كتاب دعاه بهذا الاسم واستخرج من هذا اللغز خمسة وأربعين فنا وهو كتاب جليل واقع في مجلدين كبيرين ومطبوع في مطبعة بولاق

النجم الثاقب — كتاب وضعه في المحاكمة بين جريدة البرجيس التي كان يحررها بالعربية في باريس سليمان الحريري التونسي وبين جريدة الجوائب لمنشئها بالاستانة الشيخ احمد فارس في مآخذ لغوية، وانتقادات في فنون انشائية، حكم فيها بتبريز منشىء الجوائب على محرر البرجيس . وقد طبع هذا الكتاب على الحجر سنة ١٢٧٩ هـ وهو نادر الوجود

الوسائل الادبية — كتاب حوى الكثير من مراسلاته نثراً ونظما الى بعض أدباء عصره لا سيما الشيخ الاحدب والسيد الحلواني . طبع في مطبعة الوطن سنة ١٣٠١ هـ وهو مشهور متداول

وله نفح الاكمام في مثلثات الكلام . والكواكب الدرية في نظم الضوابط العلمية : ونيل الاماني في توضيح مقدمة القسطلاني . والباب المفتوح لمعرفة أحوال الروح في التصوف . والقصر المبني على حواشي المغني . والدورق في الاضداد اللغوية . وصحيح المعاني . والفواكه في الادب . وترويح النفوس على حواشي القاموس . وغير ذلك رسائل وتقاريظ كثيرة أكثرها مطبوع

آثار أقلامه

نخب من نثره

من رسالة الى الاحدب

السيد حفظه الله شيخ الادب وفارسه الذى من خطامه فى حلبته فقد أخطأ وأساء الادب ، كيف لا وهو الذى بنى قصوره وشيدها ، و بين معالمه بعد الاندراس وحددها ، ورفع فى سبيل البيان مناره ، ونصب أعلامه ابتداء ورفع أخباره ، وجلى عرائسه للخطاب من الخطباء ، وأبرز خرائده من الخدور أترابا عربا ، وتجمل بتفصيل ما أجمل من جمله ، وتفضل بتبيين ما تشابه منه توضيحا السبله ، واستخرج من معادنه إبريزه فصفاه ، واستنتج ما ترشحت به الفضلاء عن نتائج قضاياه ، اذ تمكن من تصريف رياح المعانى فهى تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، وتميز من بين سادة العصر بان أتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، فتى فاه فاح عرف الحكم ، ورأيت لسان الحال له بالتفرد فى لسان العرب قد حكم ، وحيث جال فى رهان كبا جواده كل جواد من الكتاب ، ومهما قال حاضرا ، وخير الفقه ما حاضرت به قال الذى عنده علم من الكتاب ، لكن الذى جال فى القريحة القريحه ، وسال من أودية الفكرة التى هى بأسنة الخطوب جريحه ، ان تقديم النسيب على المديح انما هو كما جرت به عادة العرب فمن بعدهم فى نحو

القصائد التى لم تتضمن سواهما ، وذلك لا ينافى تقديم غير النسيب عليه فى نحو الكتب والرسائل مما يشملهما وغيرهما ، ومتى اجتمعا مع غيرهما وكان الغير أهم كان هو الاولى بالتقديم ، كما يرشد اليه الكتاب والسنة وسنة الادباء من قديم ، والسلام أهم فى ذلك المقام ، فيكون أحق بامامتهما فى محراب الكلام ، وأجدر بان يكون هو المصلى ، والنسيب المجلى ، ثم المديح كذا كان ظهر لى ، وظننت انه نظر صحيح ، ولما احتج السيد بأن النفل قبل الواجب مشروع بالاجماع ، كان من ذلك شد الازرى وسداداً لنظرى اذا ابتداء السلام نفل بلا نزاع ، وأما مقابلة المدح بثلة الذى النسيب وسيلة له فمن مقابلة النعمة بالشكر ، وهو واجب بل عبر عن تركه فى كثير من الآيات كما لا يخفى على السيد بالكفر ، وربما كان هجس لى ان الغرض الذى كان عرض للسيد لولا الاغضاء عن النظر فى معانى تلك القضية بما يطول لا طول به يد الالزام لاسيما وفى الحديث الشريف من بدأكم بالكلام قبل السلام فلا تردوا عليه السلام ، ثاب الى عقلى ، وأدركت ان مدارك السيد لا يحوم حول حماها مثلى ، والعرب أنطق ببيانها والخيل أعرف بفرسانها « وبعد » فما هذه الرسالة البديعة المثال ، البديعة المنوال ، البعيدة المنال ، ألآلئ فى نحور حور ، أم كواكب مشرقة فى ديجور ، وحدائق أزهار ، أم رقائق أشعار ، ومغانى كواعب أتراب ، أم معانى فرائد آداب ، وثغور باسمة عن جمان ، أم زهور بديع فى رياض بيان ، وغانية تطوست ، أم غالية تنفست ، وطوس أسفر ، أم طرس بالفضائل أزهر ، رسالة زينت سماء البراعة بمصابيح البداعة ، وزيفت رسائل اخوان الصفاء بما تفردت به من حسن الصناعة ، ما تركت فصل خطاب الا فصلته ، ولا فصل خطابة الا وبجواهر بدائع البداية فصلته ، وما أدراك ماهيه ، بقية كل نفس زاكية ، وأذن واعية ، ظرف ملئ ظرفا ، وجام جامل الادبا بسلاف طابت عرفا ، بل جنان تتورد منها الوجنات ، وتحدق لها الاحداق فتحدق

بها المسرات ، لكل نفس نفيسه منها أنيس لا ينام ، وجليس يغنيك حديثه وأخلاقه عن الندامى والمدام ، ن والقلم وما يسطرون ، انه لكتاب كريم يذعن لفضله المسيطرون ، ما فيه حرف الا وجاء من أسرار البلاغة لمعنى ، ولا لفظ الا ولو صور لكان عقدا حسنا لجيد كل حسنا ، وما فيه من معنى ، الا وهو لجسد الادب روح ، ولا فصل الا وهو فى سماء الكتابة يوح ، فهو كشاف دياجر الادب ، وترجمان لسان العرب ، ومفتاح أبواب البيان ، ومصباح أبناء العرفان ، وحلية فرسان الكلام ، وحلية أرباب الالباب والاحلام ، وروضة مصاقع الادباء ، وبهجة أحداق النبلاء والنبهاء ، وسلافة العصر ، وقهوة انشاء النظم والنثر ، والضحى والليل اذا سجى ، انه لدواء لكل داء وشفاء لكل شجى ، وانه لمهجة الادب ولسانه ، وساعد البيان وبنانه ، علمنا كيف يكون الترسل ، وبم يكون الى نهج البلاغة حسن التوصل ، وأرانا كيف يكون سحر البيان ، وكيف ينطق بحكمة الاشعار اللسان ، غردت أطيار فصاحته على أفنان بلاغته ، فأطربت الحى وأحيت الطرب ، وبسمت قراطسه عن حدائق نفائسه فرأينا فيها حدائق غلباء وفاكهة وأبّا ، ولعمرى لقد فتح أبواب البراعة ، بعد ان كانت مسدودة ، وبنى بروج الخطابة بعد ما كانت مهدودة ....

من رسالة الى السيد الحلوانى

سيدى ما الذى أوجب تناسيك لحبك الذى لم ينس لعهدك والذى لا يزال على ممر الايام يرقب الك ويرعى ودك ، وما الذى توهمته فى صديقك الفقير الصادق ، حتى قطعت صدقات رسائلك عنه وهو بها وامق وبك واثق

سيدى ما هذا التجنى ، والاغضاء عنى ، سيدى ما الرأى ن كتبك عنى

استأخرت ، ولا وانس فضلك منى استنفرت ، وانى بها لرءوف ، شغوف بحسنها الشغوف

سيدى مالك نسيت من لهج بذكرك وذكراك ، ولا يهنى بعد دوام الايمان الادوام محياك ورؤية محياك ،

سيدى مالى لا أرى هدهد كتابك المبين ، أم كان من الغائبين ، لاعذبن خاطرى به عذابا شديدا أولاذبحنه أوليأتينى بسلطان مبين ، يا تينى من سبا ساحتك بنبأ يقين ، يقينى من الجوى فيقينى انه شفاء لقلبى الجريح من النوى ، أفان أحاط بما لم يحط به فى البلاغة أحد ، جرد سيف الغبطة لرحم لأحبته وأحد ؟ أوان جد ورثيت البراعة ماجد أومزح ، جند جيش الهجران وصمرخده للاخوان ومرح ، كلا انه لكتاب كريم ، وان كان ربما شرد ونفر كريم

سيدى مالحمائل جمائلك التى كانت تهز أعطافها نسمات الحنين ، الى أسيف بنيك الذى له فى كل آن أنين ، تسنت ولم تنثن كعادتها والشمائلك التى لعبت بها شمول اللطافة وهى أحلى من اللطافة ، وألذ من الكنافة ، تجنت ولم ترمقنى حور غاداتها ، الرافلات فى حرائر بهجتها

سيدى ماهـذا الدلال وماله من دليل ، وماذلك الملال وليس له وجه جميل ، بعد ذلك الجميل من ذلك الجناب الجليل ان كنت مقصرا فانى بكل كمال محلق ، أوكنت عن الوفاء أقصرت فيما أسلفت فانى الآن على بابك متملق

سيدى وأبيك ، ماهـذا الظن بمعاليك ، وأخيك وحميك وفيك ، ما كذا كان أملى فيك ، سيدى كيف أمكن علياك ، أن تمزق بغير الاحسان سماء سجاياك ، ولا سبيل لخرق العوائد ولا مجال ، وقد قيل أيضاً ان الخرق والالتئام فى السموات محال ، ولا أزال أقول سيدى سيدى ، حتى يشتد بعودك الى حنانك الى ساعدى

ثم ارجع فاقول سيدى الحمد لله الذى أنجاك وأنجالك وحباك وأحباك السلامة من ذلك الحادث المهول ، والحمد لله الذى كفى الجميع أمره ، ولم يجرع أحد منا مره ، فلكم ولنا وللجميع الهناء الاكبر ، ولله تعالى الحمد والشكر أكثر ما يحمد وأكبر ما يشكر

نبذ من شعره

سهام العيون

أقطف ورود خدود الغيد بالقبل * وقل وفاء بحق للهوى قبلى
واخلع عذارك فى خالى العذار ولا * تبال فالعذر عند الخال منه خلى
واشرب بطرفت زرجونيـة عللا * من الحيا الذى يشفى من العلل
وكن على حذر من أسهم عرضت * لمن تعـرض للالحاظ والمقـل
من أعين مارنت الا رمت مهجا * تبيت فى وهج منها وفى وهـل
تحيك ماغزلت ثوب الضنا فترى * منها الحماسة للالحاظ فى الغزل
واهصر قدودا ازدهت ممشوقة فغدت * معشوقة لغصون البان والاسـل
واضمم جناحك فوق الخصر مختصرا * واجعل كنفسك كفلا مامن الكفل
وان تشا فارتشف من مبسم ضربا * ولا تخف ضرب حد الشارب الثمل
وكرر الرشف تشف النفس من كبد * وتطف من كبد نارا من الغلل
وعض غصن اقاح الثغر محتسيا * من كأسه قرقفا قد شج بالعسل
واطرب بعود وقانون ولا تن فى * لهو بدا واطرح الاتراح بالجذل

ولا تراع قوانيننا ولا أدبا * وملا ملام خفيف العقل ذى ثقل
فالناس قد رفضوا القانون بينهم * واستحسنوا الرفض لكن لا لحب على
وليس همهم الا التمدن أى * تحايل ماحرم الرحمن فى الازل
واسل الهموم بنار الهم واسل فتى * سلا وسلى فؤادا بانَ فى شغل
وروق البال بالراووق منبسطا * بالقبض منك على ساق له جدل
من كف ساقية كالظبى آنسة * تزرى بطلعتها للشمس فى الحمل
تقول للبدر فى الظلماء طلعته * بأى وجه إذا أقبلت تظهر لى
هيفاء ضامرة الكشحين مائلة الـ ـعطفين سكرى بلا عل ولا نهل
وطفاء فاترة الاجفان عاطرة الا * أردان ساحرة الالباب بالكحل
نفوح أردانها طيباً كما نفحت * أقطار مصر بمدح الاوحد البطل

شعر ناصيف

بنصيف قد أنصف الدهر بيرو * ت فأضحت تتيه فى ثوب سؤدد
ولئن أصبحت تفاخر كل الـ * مدن أضحى لعمرى الخال يشهد
ما سمعنا بمثله عيسويا * يتحدى بمثل معجز احمد
نظم الدر والدرارى فى أحسن سمط من البيان ومهد
ألمعى لكنه عيسوى * كان أولى بفضل دين محمد
لو تروى ارتوى بكوثره العذ * ب وأروى اظماء من بات يجحد
جل من قسم الحظوظ فلا عتب * وان كان العقل فى الامر معهد
حكم مولى يقضى علينا بما شا * ء تعالى عن التولد سرمد
دم حليف العلا نصيف بفضل * لا يوازى وحسن حمد مؤبد

حسن التشبيب

خذوا حذركم من نظرة الحدق النجل * فكم أرشقت بالصب نبلا على نبل
متى أمكنت قلب امرىء فعلت به * لعمرك ما شاءت من الاسر والقتل
ومهما رنت أورت زناد الغرام فى الـ * فؤاد فأمسى فى عياء وفى شغل
وان غزلت الحاظها نسجت لنا * سقاماتها أثواب سقم من الغزل
وان نعست أجفانها أيقظت أسى * هواها بقلب لم تكله من قبل
لقد شبهوها بالمهند فانثنى * وقد أدركته خجلة الغل والكل
وقالوا بها سكر فقلت غلطتم * ولكنه سحر يجر الى السل
لئن أنكر العذال سحر جفونها * فآيته البيضا السواد من الكحل
تأمل عذولى فى رقائق هدبها * ترى السيف فيها والهوى سابق العذل
فلا تقتن حيث العيون فانها * مصارع جد فى مكامن من هزل
وما بطل من قام والحرب قائم * الى بطل بل من لوى من هوى النجل
بنفسى لعوبا بالعقول تخالها * قريبا ويقصيها الدلال على الخل
لها مالغصن البان والريم والطلا * رضايا وجيداً واعتدالا بلا عدل
تميس فتزرى بالقناة وانها * لتنآد من حر النسائم فى الاصل

الى هنا وقف القلم عن تحبير هذا القسم الاول من هذا السفر وسيتلى بثان ان شاء الله
القاهرة فى ٢٩ ربيع الثانى سنة ١٣٣٢ الموافق ٢٦ مارس سنة ١٩١٤

كلمات عن الكتاب

﴿ كلمة جريدة المؤيد ﴾

وضع حضرة الاديب الفاضل حسن افندى السندوبى الكاتب المعروف كتابا له سماه « أعيان البيان » ترجم فيه اعلام الادباء وأعيان الكتاب والشعراء من أول القرن الثالث عشر الهجرى الى الآن ورتبه على أسلوب حسن لم يسبق اليه . فهو يذكر حياة المترجم ثم يقفوها بفصل فى مميزاته يبين فيه عن الصورة الذهنية التى ارتسمت فى مخيلته من مطالعته مؤلفات المترجم ودرس كتاباته واستقراء مكنوناتها بحيث يلبسه من الوصف والتمييز ثوبا محكما نسج بيد الانصاف وحيك بمنوال الاصابة . ثم يتلوه بفصل فى بيان مؤلفاته وموضوعاتها ومنزلتها وماينفع منها ومالا يفيد . ثم يفرد بابا فى آثار أقلامه فيختار فيه مايراه جيدا من نثر المترجم ونظمه موشى بالشروح والتعليقات محلى بصور المترجمين

ومن عرف فى حضرة مؤلفه الفاضل المكانة الادبية، وسعة الاطلاع، وبعد الهمة ونفاذ الرأى ، علم أن كتابه هذا سيكون من أنفع الكتب الخالدة وأمتعها ان شاء الله

وللكاتب الاديب الشيخ محمد المهياوى

« أعيان البيان » — اسم كتاب مشبع ممتع ، صنع يد صديقنا الاديب حسن أفندى السندوبى . وهو فى موضوعه مرتبط بحاجة الادب العربى فى هذا العصر ارتباطا لا فكاك له ولا استغناء عنه . والعجب ان تتهيأ أسباب النشاط لصاحبه الاديب حتى يصبر على عناء تأليفه ، وصعوبة تصنيفه

نقول ذلك لا لاننا نجد فى كفاءة السندوبى ووفرة أدبه وفطنته قصورا عن وضع كتاب مثل كتابه . بل لاننا نعرف فى أخلاق المقتدرين من أدبائنا نكوصا عن العمل وملالة للبحث وسأما من التأليف والتصنيف . وكم أعلن رجل أو رجال منهم الى الامة عزيمتهم على القيام للادب العربى بحق الخدمة التى يقتضيها طور اللغة واللسان فى هذه الايام . ثم لم يكن منهم بعد طول التربص بهم والتشوف الى مؤلفاتهم إلا جمود وقعود . و إلا انصراف عن الابتداء فى العمل أو انقطاع عن تمام ما أخذوا فيه

أما صديقنا السندوبى . فلقد أقنعنا بانه استطاع أن يجمع الى كفاءته الادبية الصبر على التأليف ومشقة البحث عن الحقائق الصادقة فى متفرقات المراجع . والكتاب الذى أخرجه الينا يقتضى عناية أعظم مما يقتضيه كل كتاب . وسأطلع القارىء على قيمة تلك العناية حتى يجزل حمده ، و يكبر همته

فى نوع التأليف عند كل أمة كتب تشبه أن تكون فلسفة حياة الرجال تزن أعمالهم وآثارهم وتدل على ما تركته آراء كل رجل من الاثر الطيب أو غيره فى البيئة التى عاش بينها . وقد كان لهذا النوع من المؤلفات منزلة لدى أهل الصدور الاولى من أبناء العربية

ولا تزال تلك المؤلفات قائمة بين أيدينا حتى اليوم . غير أنها افتقدت منزلتها كما افتقدت كل أنواع التآليف منازلها فى فترة الجمود التى أصيب بها الشرق فى العصور الاخيرة فانقطع التآليف وذهبت الايام بحياة رجال كثير ين كانت خليقة ان تكون قدوة طيبة لو صادفت أعمالهم وآثارهم عناية بحفظها

جاء صديقنا السندوبى يحمل عن اخوانه الادباء وعن الامة كافة اصلاح هذا الخطأ واستدراك مافات عسى ان يحتفظ على الفائدة كلها أو بعضها فوضع كتابه « أعيان البيان » ملتزما فيه أن يلم بنشاة كل أديب كاتب أو شاعر وآثار قلمه وتأثيره فى أنهاض الادب العربى من فجر القرن الثالث عشر الى الآن . ولقد تبينت من اعمام السندوبى عمله العظيم ان له ميزة على أدباء هذا العصر هى أنه كافأهم فى المعرفة والعلم وفضلهم بتنفيذ عزمه ومغالبة الايام على الصبر والجلادة

ومن يعلم ان رجال البيان العربى الذين أنشأهم القرن الماضى اشتات متفرقون وان الاهمال الذى استحكم فى أهل هذا القرن ذهب بتراجمهم وآثارهم وان قصد الصحة فى ذلك يحتاج الى تعب فى البحث وصبر طويل على استطلاع الحقائق من قطر غير هذا القطر ودور كتب غير دار الكتب المصرية الخديوية يعلم ان صاحب « الاعيان » جلد على الشرس حتى يروضه ، كثير المعالجة للبعيد حتى يقربه

اطلعت على كتابه فقرأت مقدمة شهدت شهادة عدل انها تغنى الطالب يضرب فى بطون الاسفار قصدا الى معرفة الاسلوب العربى وما طرأ عليه من التغيير فى جميع العصور مع الابقاء على رونق البلاغة وتجويد العبارة . أو قصداً الى معرفة ما تفعل الكتابة بالنفس وما كانت تتخذ وسيلة اليه من شئون الملك ودواعى الحكم فى الشرق عند الامويين والعباسيين وفى الغرب عند الاندلسيين . وسيرى الناس صدق ما أقول يوم يكمل حظهم بتناول هذا الكتاب الجليل إن شاء الله

رجاء

المرجو من القارئ الكريم ان يرد بقلمه ما في هذا الجدول من الصواب الى أماكنه قبل المضي في قراءته

صحيفه	سطر	خطا	صواب
٩	٢٠	المنطبق	المنطيق
١٦	٩	ارسمت	ارتسمت
٢٨	٥	طرقه	طوقه
٢٩	٦	رساله	رسالته
٣١	١٩	فعلتها	مقلتها
٣٢	٢	أصبوا	أصبو
٣٦	١٣	آيانه	آياته
٣٨	٤	اسحرهم	واسحرهم
٥٠	٢٠	عش	عشي
٥١	٣	الدرا	الدار
٥١	١٥	آدات	أداة
٥٢	٤	ومن	وممن
٥٢	١٧	يدي	يدا
٥٢	١٨	غريبين	غريبان
٥٢	١٩	لكلا	لكلتا
٥٥	١٦	نرك	ترك

صحيفه	سطر	خطا	صواب
٦١	١٢	فزاع	فذاع
٧٦	١١	استنم	استتم
٧٩	١٤	بينها	بينهما
٨٠	٥	منها	منها
١٠٦	٣	الثقاة	الثقات
١٠٨	١٠	العذارى	المذارى
١١٢	٩	معوذيهم	معوزيهم
١١٣	٩	منشائه	منشئه
١١٣	١١	فى اكنافه	من اكنافه
١١٤	٢٢	الجواح	الخوارج
١٧١	٩	الكربزى	الكزبرى
١٧٥	١	اخوا	أخا
١٧٧	١٢	المسلمون	المسلمين
١٨٠	١٩	بنية	بلين
١٩٣	١٤	باهيلها	باهلها
١٩٦	٥	بامؤنسى	يامؤنسى
١٩٦	٨	الدواء	الدوا
١٩٦	١٤	يثوب	بثوب
١٩٧	٧	كان	كأن
١٩٨	٢	أمل	امل
٢٠٠	٤	نهاء نفس	نهى ء نفسا

فهرست

اهداء الكتاب ٢
مقدمة الكتاب . وفيها أطوار الانشاء العربى منذ العصر الجاهلى الى اليوم ٥-١٦
الشيخ حسن قويدر
ترجمته ١٧ مميزاته ١٨ مؤلفاته ١٩
آثار أقلامه ٢٠
نخب من نثره ٢٠ نبذ من شعره ٢١
عبد الباقى العمرى الفاروقى
ترجمته ٢٧ مميزاته ٢٨ مؤلفاته ٢٨
آثار أقلامه ٢٩
نخب من نثره ٢٩ نبذ من شعره ٣٠
الشيخ محمد شهاب الدين
ترجمته ٣٥ مميزاته ٣٦ مؤلفاته ٣٧
آثار أقلامه ٣٧
نخب من نثره ٣٧ نبذ من شعره ٣٩

السيد على الدرويش

ترجمته ٤٦ مميزاته ٤٧ مؤلفاته ٤٧

آثار أقلامه ٤٨

نخب من نثره ٤٨ نبذ من شعره ٥٣

الشيخ ناصيف اليازجى

ترجمته ٦٠ مميزاته ٦٢ مؤلفاته ٦٢

آثار أقلامه ٦٤

نخب من نثره ٦٤ نبذ من شعره ٧٧

رفاعة رافع بك

ترجمته ٩٠ مميزاته ٩٢ مؤلفاته ٩٣

آثار أقلامه ٩٥

نخب من نثره ٩٥ نبذ من شعره ٩٨

أبو الثناء الشهاب الالوسى

ترجمته ٩٩ مميزاته ١٠٢ مؤلفاته ١٠٣

آثار أقلامه ١٠٤

نخب من نثره ١٠٤ نبذ من شعره ١٠٩

الشيخ أحمد فارس

ترجمته ١١١ مميزاته ١١٣ مؤلفاته ١١٥

آثار أقلامه ١١٨

نخب من نثره ١١٨ نبذ من شعره ١٥٩

الامير عبد القادر الجزائرى

ترجمته ١٧١ مميزاته ١٧٤ مؤلفاته ١٧٥

آثار أقلامه ١٧٦

نخب من نثره ١٧٦ نبذ من شعره ١٨٣

ابراهيم مرزوق بك

ترجمته ١٩١ مميزاته ١٩١ مؤلفاته ١٩٢

آثار أقلامه ١٩٣

نخب من نثره ١٩٣ نبذ من شعره ١٩٦

المعلم بطرس البستاني

ترجمته ٢٠٥ مميزاته ٢٠٦ مؤلفاته ٢٠٧

آثار أقلامه ٢٠٩

نخب من نثره ٢٠٩

الشيخ عبد الهادي نجا الابياري

ترجمته ٢٢٢ مميزاته ٢٢٣ مؤلفاته ٢٢٤

آثار أقلامه ٢٢٥

نخب من نثره ٢٢٥ نبذ من شعره ٢٢٩

كلمات عن الكتاب ٢٣٢

رجاء ٢٣٤

الفهرس ٢٣٧